

دراسات منهجية هادفة

حول الأصول الثلاثة:

الله، الرسول، الإسلام

الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الجزء الاول

« سترى في هذا البحث ، بالدليل والبرهان ان
محمدا رسول الله حقا ، وأن محمدا أعظم الناس في
كل شيء ، وأن الذين يتخذون غيره قدوة حمقى
وناقصون ... »

بقلم

سعيد حوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة

١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

نماذج من تنفيذه للأمر الثاني « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو »

٦٦

نماذج من تنفيذه للأمر الثالث « واحفض جناحك للمؤمنين »

٧١

نماذج من تنفيذه للأمر الرابع « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »

٧٧

نماذج من تنفيذه للأمر الخامس « كونوا قوامين بالقسط »

٨١

٣ - تبليغه عليه السلام دعوة الله وقيامه بذلك كاملاً

٨٥

١ - نماذج عن مواقف الكافرين منه عليه السلام :

٨٧

أ - ابتذاله وصبره على ذلك

٨٧

ب - محاولة اغرائه ورفضه لذلك

٩٢

ج - محاولتهم أن يضطخوا عليه عائلياً

٩٧

د - سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والاعراض والانتقامات

٩٨

هـ - استمالة سلاح المقاطعة

١٠١

و - محاولتهم قتله

١٠٣

ز - ملاحقة خطواته ومحاولة إيشاله منهم

١٠٦

٢ - نماذج عن الطرق التي سلكها عليه السلام لإبصال الدعوة إلى الناس :

١٠٧

أ - دعوته الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم

١٠٧

ب - ذهابه إلى أماكن تجمع الناس وتبليغهم دعوة الله

١٠٨

ج - رحلته من أجل التبليغ

١١١

د - تكليفه من أسلم تبليغ من لم يسلم

١١١

هـ - تكليفه من تعلم أن يعلم من لم يعلم

١١٢

و - إرساله الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء

١١٣

٤ - عقله العظيم وفطنته عليه السلام

١١٦

من وصاياه

١٢٨

الباب الثاني : القدوة العليا

١٣٣

الأخلاقي الأول « وإنك لعل خلق عظيم »

١٣٦

أولاً : نماذج من صبره ١٣٧
 ثانياً : نماذج من رحمته ١٤٣
 ثالثاً : نماذج من حلمه ١٤٥
 رابعاً : نماذج من كرمه ١٤٨
 خامساً : نماذج من تواضعه وتياسره ١٥١

رجل الأسرة الأول : أباً وزوجاً ١٥٦
 التعريف بأزواجه عليه السلام ١٥٦
 المعلم والمربي الأول ١٧٩
 رجل الدولة الأول : سياسياً وعسكرياً ١٩٦
 القسم الأول : الرسول : القيادة السياسية العليا ١٩٧

١ - استيعابه عليه السلام لدعوته نظرياً وعملياً وثقته بها وبانتصارها . . . ١٩٨
 ٢ - استطاعته عليه السلام الاستمرار بدعوته نبليغاً وإقناعاً ٢٠١
 ٣ - قدرته عليه السلام على استيعاب أتباعه تربية وتنظيماً وتسييراً ورعاية . . ٢٠٣
 ٤ - الثقة التي كان يتمتع بها عليه السلام عند أتباعه ٢٠٩
 ٥ - استطاعة القائد الاستفادة من كل امكانيات الأتباع العقلية والجسمية . . .
 أثناء الحركة ، مع المعرفة الدقيقة بامكانية كل منهم ووضعهم في محله ٢١٣
 ٦ - قدرته الكاملة عليه السلام على حل المشاكل الطارئة : ٢١٨

١ - حله لمشكلة وضع الحجر الأسود ٢١٨
 ٢ - نموذج من حلوله السريعة لمشاكل المنافقين ٢١٩

٣ - حله لمشاكل الهجرة ٢٢٢
 ٤ - حله لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة ٢٢٦
 ٥ - حله لمشكلة هزيمة أحد ٢٢٩
 ٧ - بعد نظره عليه السلام وضرراته السياسية الموقفة ٢٣٠
 ٨ و ٩ - الوصول إلى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر . . ٢٤٢
 القسم الثاني : الشخصية القيادية العسكرية المثلى ٢٤٥

مُقَدِّمَة

من بين هذه المخلوقات التي تعد بالبلايين يظهر هذا الإنسان بشكل متميز جدا ، وتميزه عن بقية المخلوقات يجعله عالما وحده تنطوي فيه العوالم ويبقى بعد ذلك بقية من التفرد .

ونواحي هذا التفرد في الإنسان كثيرة نشير إلى ما يلي منها :

١ - في خلقته : قال تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) فما من شيء في الإنسان إلا وقد ركب وصور على أحسن مثال وأجمله وأعدله وأكمله ، قارن بين الإنسان وبين أي مخلوق آخر من حيث الحلقة تجد تشابهاً في ما لا بد منه للحي كحي ، ثم ترى بعد ذلك أوجه التمايز يد الإنسان تمتاز على يد أي مخلوق آخر ، ولولا هذا لما كانت حضارات ، وقامة الإنسان وانتصاب جسمه لا يشبهه فيه غيره ، وبشرة الإنسان وأعضاؤه كل ذلك فيه تميز ، وهو في الإنسان أكمل وأعدل وأجمل من الظفر إلى الشعر إلى الأنف إلى الأذن إلى الوجه إلى القدم إلى أي شيء .

٢ - في علمه : قال تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) وقال : (علم الإنسان

ما لم يعلم) فالإنسان وحده أعطي ملكة التعلم بشكل لا مثيل له عند غيره .
فالمادة لا تعقل أصلا ، وكذلك النبات ، وعلم الحيوان محصور ضمن حدود
طعامه وشرابه وسفاده ، والخطر الذي يتهدهده ، ولا يتعلم شيئا إلا بصعوبة .
أما الإنسان فيعقل ذاته ويعقل غيره ، ويركب ويحلل ، يعرف الأشياء ، ولماذا
وجدت وكيف وجدت وكيف يستفاد منها ، ويعرف القوانين التي تربط
بين الأشياء أو التي تخضع لها الأشياء ، وآثار علم الإنسان واضحة جلية وتميز
الإنسان في ذلك واضح جلي .

٣ - في إرادته : قال تعالى : (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا)
إن العلم شيء سلبي ، والذي يجعله إيجابياً ، هو الإرادة ، وكلما كانت
الإحاطة في موضوع أتم كان مجال الاختيار أوسع ولما كان الإنسان أكثر علما
فهو أوسع إرادة ، ومجال الإرادات أمامه أكثر وهو بالتالي يملك أكبر قدر
من الإرادة . ولذلك تراه يستطيع أن يتصرف أمام الحادث الواحد بأكثر من
أسلوب فإذا ظلم قد يعنف أو ينتقم وقد يكظم غيظه أو يظهره وقد يؤخر
الانتقام لتسنع له الفرصة وقد يجبن ، وقد يترفع وقد يسف وقد يرد بالمثل
وقد يطغى وقد وقد ... مواقف كثيرة أمام الحادث الواحد ، أما الحيوان
فله تصرف واحد أمام الحادث الواحد على ضالة عدد مواقفه ومحدوديتها ...
وهكذا فتميز الإنسان في صفة الإرادة واضح جلي .

٤ - في مكانته وإمكاناته : إن مكانة الإنسان في الوجود هي السيادة ،
وذلك أن كل شيء مسخر له : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) .
(ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض) . (هو انشأكم
من الأرض واستعمركم فيها) وإمكانات الإنسان تبلغ أن تستفيد من طاقات
هذا الكون . فقدرة الإنسان هائلة يكفي لمعرفة تميزها على سبيل المثال أن نذكر
أن كل الحيوانات لا تستطيع أن تصنع حتى فأسا بينما صنع الإنسان الأقمار
الصناعية والقنابل الذرية .

٥ - في ملكة البيان عنده : قال تعالى : (الرحمن خلق الإنسان علمه البيان)
إن الحيوانات كلها لا تخرج من أفواهاها إلا أصوات مبهمه ، أما الإنسان فإنه
يستطيع أن يخرج هذه الأصوات وزيادة على ذلك فإنه يستطيع أن يخرج سبعا
وعشرين حرفا تتركب منها مليارات الكلمات في كل لغات العالم يتكلم
بها الإنسان . فيسحر ويضحك ويبكي ويفسد ويصلح ويشعر أو ينثر ويبين عن
خلجات الخاطر وإشراقة الوجدان ، وقوانين الكون والسماء والأرض ،
ويغني وينشد ، إن تميز الإنسان في ملكة البيان من أبرز خصائصه .

٦ - في عقله وإدراكه وخياله وتصوره : إن الحيوان يشترك مع الإنسان
في حواسه ولكن الانسان يمتاز عنه إدراكا وتصورا وخيالا أرقى وأعلى .
فالإنسان والحيوان يشاهدان زرقة البحر ولكن شتان بين النظرتين . فزرقة
البحر ألهم بسببها الإنسان شعرا ونثرا وعلماء ومتعة وتأملات وإشارات إلى
أشياء كثيرة ، وتضع السم للذبابة في ماء السكر فتأكل منه وتموت وتأني
الأخرى والأخرى ويتمن جميعا ولا يخطر لواحدة منهن أن تتعظ ؛ ترى كم
انسانا يأكل من طعام مات منه غيره وراه ؟ ..

٧ - في استعداده الأخلاقي : هناك أخلاق عالية وأخلاق سافلة ، أخلاق
راقية وأخلاق منحطة ، أخلاق فاضلة وأخلاق مردولة ، والإنسان عنده استعداد
لأن يتدنى فيكون أخبث الموجودات أو يتعالى فيكون مثال طهر . وعنده
استعداد ليكون في أحد حيزي الخير أو الشر أو يخلط بين الجانبين على حين
الحيوان يبقى ذا خلق واحد في الغالب ، فالغل والحقد والحسد والغش والكبر
والرياء والغضب والطمع والبذخ والبطر والفخر والخيلاء والصلف والمداينة
والعجب والمكر والخيانة والمخادعة والقسوة والفظاظة والجفاء والطيش وقلة
الحياء وقلة الرحمة ، ثم اضداد هذه المعاني كلها وأمثال هذه وهذه كثير كل
ذلك ، مما يمكن أن يتخلق به الإنسان ومن ثم كان استعداد الإنسان الأخلاقي
سمة بارزة تميزه عن أي مخلوق آخر .

والسؤال الآن هو : ماذا يترتب على الإنسان نتيجة لهذا التفرد ؟

إن القاعدة على قدر ما تعطى تطالب ضمن استطاعتك هي قاعدة هذا الموضوع ، فإن الله جلت حكمته الذي سخر الكون للإنسان قد رتب على ذلك أن جعل الإنسان هو المسؤول الوحيد أمامه من هذه المخلوقات المرنية كلها فقال : (أبحسب الإنسان أن يترك سدى) وقال : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم ألينا لا ترجعون) وقال (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) فالله عز وجل جعل الإنسان بهذا التفرد خليفة في الأرض (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (هو الذي جعلكم خلائف الأرض) والاستخلاف يعني ما يلي :

- ١ - إن المستخلف في الملك ليس مالكا أصيلاً .
- ٢ - إن عليه أن يتصرف حسب أمر المستخلف لا حسب أمره هو .
- ٣ - ألا يشق عصا الطاعة ويتعدى الحدود المقررة له .
- ٤ - أن يفعل ما يريد المستخلف لا ما يريد به هو .

وهذا كله يعني أن الإنسان ليس حراً بل هو عبد لله الذي أقامه هذا المقام في الوجود قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فسيادة الإنسان على الكون في مقابل عبوديته لله . وما لم يعط الإنسان عبوديته لله يكون قد أقام نفسه مقام الحماد والنبات والحيوان غير المسؤولين . لذلك نرى القرآن قد ألح على عدم إنسانية من لا يلتزم بطاعة الله فقال تعالى : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) وقال (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقال (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال (لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون

بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقال (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقال : (كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) . إن القيام بأمر الله هو وحده الذي يطلق طاقات الإنسان كلها في طريقها الصاعد نحو الكمال ، وترك أمر الله يعني إطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية الحرة .

ولا يقوم الإنسان بأمر الله إلا اذا عرفه حق معرفته وعرف ما يأمر به ، ولا يتم للإنسان هذا إلا بمعرفة الرسول الذي يصطفيه الله للقيام بهذه المهمة ، ذلك أن الله لم تقتض حكمته أن يتصل بكل إنسان على حدة ليبلغه أمره بل اقتضت حكمته أن يصطفي من الناس رسولا يقوم بهذا نيابة عنه (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) وفي ذلك حكم منها :

١ - ان الإتصال بعالم الغيب يحتاج لأهلية خاصة واستعداد عظيم ، ولم يعط كل إنسان مثل هذا (الله أعلم حيث يجعل رسالته) إذ أن حكمة الله اقتضت ألا تجعل الناس درجة واحدة إذ لا تستقيم الحياة البشرية بذلك . فَمَنْ للمهن ، ومن للحرف ومن لقضاء حاجات الناس ، ومن للخدمة ومن للسيادة ومن للتبعية ، إذا كان الناس على نسق واحد قال تعالى : (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) و كانسجام مع هذا القانون العام اصطفى الله بشرا ليكونوا رسلا (وقالوا لولا نزلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض) .

٢ - ان امتحان الإنسان وإختباره هدف أساسي من أهداف التكليف (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) و امتحان الإنسان بالإنسان هدف آخر (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) .

(وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) وانسجاما مع هذا جرت سنة الله أن يختار إنسانا رسولا ليبلي الآخرين به . إنه الإختبار العظيم الذي من نجاح به تخلص من رجس الحسد ، وشهوة الاستعلاء ، وتمحص خالصا للحق محبا له . ولأهمية ذلك نلاحظ أنه حتى الرسل امتحنوا بهذا المعنى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا) .

٣ - ومن أهم ما امتحن به الإنسان تكليفه بالإيمان بالغيب الذي قام على صدق المخبر به الدليل وهذا لا يتم إلا إذا كان بين الله وخلقه واسطة هو الرسول ، هذا مع ملاحظة أن الرسل ممتحنون بشيء من هذا (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) (قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني) وإذن كانت حكمة الله أن يصطفي رسلا من البشر يعرف فهم على ذاته ويعرفهم على ما يريد منهم ومن خلقه ويأمرهم أن يعرفوا الناس عليه وعلى تكاليفه ليتحقق بذلك إنسانيتهم ولتظهر بذلك أنفسهم ، وليعيشوا محققين ما من أجله خلقوا .

وهؤلاء الرسل يمثلون ذروة الكمال البشري لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله ويقومون بأضخم مهمة في الوجود وهي مهمة إرشاد الإنسان إلى طريقه الصحيح ، إلى الكمال بتخليصه من أدران نفسه وكل مؤثر حيواني أو مادي أو غريب عن فطرتها ، حتى تصبح ربانية (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن

يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) .

وبعد : كيف نعرف نحن بقية البشر رسل الله ؟ إن معرفة الرسول وأتباعه يترتب عليها هدايتي واستحقاقي ثواب الله بينما جهلي وكفري به حال وجوده ودعوته لي يترتب عليها بقائي على ضلالي واستحقاقي عذاب الله في الدنيا والآخرة لذلك كان مهماً جداً أن أعرف كيف أهتدي إلى الرسول وبدون معرفة هذا قد يلتبس علي الأمر فأعتبر غير الرسول رسولاً فأضل أو أجهل الرسول فأعذب (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

لذلك فقد جعل الله للرسول علامات يعرفون بها . هذه العلامات هي :

١ - الصفات الشخصية لصاحب الرسالة : فليس من المعقول أن يكون الرسول كذاباً إذ أن الكذاب لا يصدق في الأمور العادية فضلاً عن مثل هذه النفسية الكبرى ، فالأخلاقية العالية سمة لا بد منها لإنسان مرسل من عند الله ليظهر البشر من كل شر ويدله على كل خير . فإذا ما كان شريراً تظاهر عليه صفات الأشرار فأنى يجعله الله محل دعوته ، كما أنه ليس من المعقول أن يكون أبلهاً أو غير ذكي إذ المغفل أو عادي الذكاء لا يسلم له الناس عقولهم ولا يستطيع هو أن يقنع هذه العقول ، ومهمة الرسول لا تقوم إلا إذا كان أكبر الناس عقلاً وفطنة كي يستطيع إقامة الحجة على الناس ، كما أنه ليس من المعقول أن يدعو الرسول إلى شيء ويكون سلوكه مخالفاً لما إليه يدعو . فهو يدعو إلى طاعة الله فليس من المعقول أن يعصيه . ويدعو إلى ترك معصيته فلا يعقل ألا يطيعه إذا كان صادقاً . فينبغي إذن أن يكون مظهرًا كاملاً للطاعة وترك المعصية . كما أنه ليس من المعقول أن يرسل رسولا ولا تكون عنده إمكانية تبليغ الرسالة المكلف بها إلى أصحابها . وبدون هذا لا تقوم الحجة على الناس وهذا يحتاج إلى شخصية فذة عظيمة . إذ دعوة الرسل ليست كغيرها من الدعوات التي ترضي شهوات البشر ، بل هي دعوة مهمتها كبح جماح النفس البشرية

وعلى هذا فأمام عملية التبليغ عقبات ومخاطر وصعوبات واضطهاد لا يصبر عليها إلا صادق مع الله . ثم الرسول هو قدوة البشر في طريقهم إلى الله ، فلا بد أن يكون أرقى البشر في كل جانب من جوانب الحياة وعنده دائماً الحل الأمثل للبشر .

٢ - المعجزات : والمعجزات هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهر على يد الرسول أو النبي . وهي علامة على الرسالة لأنها تخرج من عالم الأسباب كلها ، بحيث يعجز الإنسان كإنسان أن يأتي بها وذلك أن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين الكون ، وقدرة الله وحدها هي المطلقة ، فكون الرسول تظهر معه آثار القدرة المطلقة فذلك دليل على أن له صلة مع الله . ويخلط الناس عادة بين المعجزة التي هي علامة رسالة الرسول وبين السحر وآثار الرياضة الروحية . والذي نحب أن نقرره هنا هو أن السحر والشعوذة نوعان من العلوم التي تخضع لقوانين هذا الكون وإن كانا مجهولين إلا للقليل من الناس ولكن أي إنسان تعلم علم السحر يستطيع أن يفعل ما يفعل وكذلك فيما يتعلق بآثار الرياضة الروحية ، فلعالم الروح قوانينه التي من اكتشفها قد تظهر معه بعض آثارها ولكنها ما خرجت عن كونها من الأسباب العادية إذ أن أي إنسان يستطيع أن يفعل ما فعلوه إذا سلك نفس طريقهم. أما المعجزة فلا علاقة لها بعالم الأسباب أصلاً فليست كأثر عن علم أو تجربة أو قانون إذ من شروط المعجزة ألا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بها .

ان المعجزة تكون بقدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون. إن عيسى عليه السلام كان يبريء الأبرص وقد يشفى البرص على يد طيب ولكن الفارق بين الحالتين ان ذلك بقدرة الله وهذا بمعرفة القوانين التي بثها الله بالكون . إن الانسان يستطيع بذكائه وامكانياته أن يستخرج الماء من أعماق الأرض أو أن يركب بالوسائل المعروفة من الأوكسجين والهيدروجين ماء ، ولكن الفارق بين الماء المستخرج والمصنوع ، وبين الماء الذي خرج بضرب عصا موسى أو نبع

حيث وضع محمد ﷺ أصابعه كالفارق بين صنع الله وصنع الإنسان ، صنع الله بكلمة كن وصنع الإنسان بالعمل والجهد والآلة والفكر والعلم والأسباب وربط القانون بالقانون ، وهكذا استطاع الإنسان أن يجاوز سطح الأرض ، ويسير بالفضاء ، ولكن الفارق بين هذا وبين عروج محمد رسول الله إلى السماء كالفارق بين كل ما صنع الله وصنع المخلوق ، العروج كان بكلمة الله وصعود الإنسان إلى هذا الفضاء ، كان بالارتقاء بالأسباب . فالمعجزة إذن لا دخل لأي سبب كوني فيها سواء كان روحيا أو ماديا أو أي شيء آخر . ومن هنا كانت ذات دلالة كاملة على أن صاحبها رسول الله .

٣ - النبوءات : النبوءة هي الإخبار عن المستقبل ، وكون وقوعها دليلاً على صحة دعوى الرسالة يعود إلى أن علم الإنسان محدود بالزمان الحاضر والماضي ومحجوب عن المستقبل ، والله وحده ذو العلم المحيط بكل زمان ومكان ، وما كان ويكون ، فكون الرسول يخبر عما سيكون ويقع كما أخبر ، فذلك دليل على أن له صلة بالله ، وكما أن المعجزة تخرج عن عالم الأسباب حتى تصلح دليلاً ، فكذلك هنا المقصود بالإخبار عن الغيب مما ليس له علاقة بنتائج ترتب على مقدمات أو توقعات دلت عليها طوابع ، فهذا يستطيعه كثير من الناس بما أوتوا من حكمة وحنكة وخبرة ومعرفة وتجربة .

٤ - الثمرات : إن ثمرات الرسول تدل عليه من انسجام دعوته مع قواعد الفطرة ، إلى الأخلاقية العظيمة التي تظهر على أتباعه ، كان يحكم الحق القوة ، ويظهر الوفاء على الغدر ، وإن كان في الغدر منفعة وتصبح نفس الإنسان منضبطة انضباطاً كاملاً بالخير ، فيؤدي الحقوق وقيم الواجبات ويعيش لله وبالله عادلاً في دنياه حريصاً على آخرته ، تفجرت طاقاته كلها ، وسارت في طريقها الصحيح ، فنمت ملكاته العليا كلها وانضبطت ملكاته الدنيا جميعاً . إن ثمرات دعوة الرسول تختلف اختلافاً جوهرياً عن ثمرات أي دعوة أخرى حتى لتكاد الفطرة تحس بحدسها إذا رأت ثمرات النبوة أن سبب هذه الثمرات لا بد أن يكون

وراءه عناية ربانية خاصة .

٥ - البشارات : إن الأنبياء كلهم رسل الله الواحد الأحد ، وقد يأمر الله الرسول السابق أن يبشر برسول لاحق فتكون نبوءة الأول وتمهيداً للثاني . وليس هذا شرطاً في كل رسالة ولكنه متوقع وجوده ومتأكد حصوله وقد يذكر بالبشارة اسم الرسول اللاحق أو صفاته أو كلاهما والبشارة يستأنس بها إذا وجدت بقية العلامات .

فهذه علامات خمس يتم بعضها بعضاً نتعرف بها على صدق مدعي الرسالة ونمتحن كل رسالة بها .

قدمنا هذا الكلام بين يدي الفصول الخمسة التي لها علاقة بهذه القضايا الخمس والتي نتحدث بها عن رسالة النبي العربي محمد ﷺ وثبوتها . هذه الرسالة التي ختم الله بها النبوة (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ونسخ بها كل شريعة سابقة وكلف الإنسانية كلها بها ، بحيث لا يستحق أحد رحمته إلا إذا التزم بها . ومن لم يلتزم بها استحق عذابه . وتم بها انتقال الرسالة من طور القومية إلى طور الإنسانية الشاملة ، إذ أن رسل الله قبل محمد كانوا يبعث الواحد منهم إلى قومه خاصة . وبعث محمد إلى الناس عامة . فاصبحت الإنسانية كلها ببعثته ملزمة بشريعة واحدة هي شريعته وليس أمام أحد من البشر خيار سوى سلوك الطريق الذي هدى إليه . وإلا فإنه يكون من الضالين . ولما كانت هذه الرسالة لها مثل هذه الأهمية . جعل الله عز وجل فيها ومعها من واضحات الأدلة ومشرقات البراهين الكثير الكبير بحيث لا يبقى معه حجة لمحتاج أو شبهة لأحد .

هذه الفصول الخمسة ستجد إن شاء الله في كل واحد منها ما يؤكد لك هذا المعنى بشكله الكامل بحيث لا تشك معه أن محمداً رسول الله وأنه لا عذر لأحد كفر به أو أعرض عن شريعته .

وهذه الفصول الخمسة على الترتيب التالي :

الفصل الأول : الصفات

الفصل الثاني : المعجزات

الفصل الثالث : النبوءات

الفصل الرابع : الثمرات

الفصل الخامس : البشارات

وبذلك ينتهي المبحث الثاني من مباحث هذا الكتاب ليبدأ المبحث الثالث وهو الإسلام دين الله وشريعته التي بلغنا إياها رسوله ﷺ وبذلك نكون قد عرفنا المكلف وهو الله في المبحث الأول والتكليف وهو الإسلام في المبحث الثالث ومبلغ التكليف والقدوة فيه وهو الرسول في المبحث الثاني وهو هذا فإلى الفصل الأول من هذا المبحث .



الفصل الأول

الصفات

بدأنا بهذا الفصل بقصد التعريف على جوانب في شخصية الرسول من ناحية ومن ناحية أخرى كي يكون بمثابة مفتاح للفصول الأخرى وقد حاولنا أن نمشي فيه على الترتيب التالي :

١ - مقدمة نستعرض فيها صفات الرسول الجسمية ليتضح كيف أن تركيبه الجسمي متناسب مع الرسالة التي كلف بها .

٢ - الباب الأول : ويبحث في الصفات الأساسية للرسول وكيف كان للرسول منها أعلى ما يتصور في حق بشر .

٣ - الباب الثاني : ويبحث في كون الرسول هو القدوة العليا للبشر في كل جانب من جوانب الحياة لأنه كان في كل جانب في الذروة العليا من الكمال .

وجعلنا المقدمة تحت عنوان : تكوين الرسول الجسمي .

وجعلنا الباب الأول تحت عنوان : الصفات الأساسية .

وجعلنا الباب الثاني تحت عنوان : القدوة العليا .

ونأمل ألا تنتهي من هذا الفصل إلا وقد اتضح لطالب الحق أن محمدا لا يمكن أن يكون إلا رسول الله حقاً صلى الله عليه وسلم .

المقدمة : تكوين الرسول الحسني

إن أول ما يقع بصر الإنسان على رسول الله يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيل له. ومظهر يوحى بثقة مطلقة لا حد لها وهذا ما ينعقد عليه إجماع من شاهدوه عليه الصلاة والسلام .

أخرج الدارمي والبيهقي عن جابر بن سمرة قال : رأيت النبي في ليلة اضحيان « أي مقمرة مسفرة » فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو كان أحسن في عيني من القمر .

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله كأنَّ الشمس تجري في وجهه وما رأيت أحداً أسرع في مشيه منه كأن الأرض تطوى له إنا لنجهد وإنه غير مكترث .

وأخرج الشيخان عن البراء قال : كان رسول الله بعيد ما بين المنكبين يبلغ شعره شحمة أذنيه ما رأيت شيئاً أحسن منه .

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة في وصف وجه رسول الله قال : بل مثل الشمس والقمر مستديرًا .

وأخرج الشيخان عن البراء قال : كان رسول الله أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير .

وأخرج مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له صف لنا رسول الله قال : كان أبيض مليح الوجه .

وأخرج الدارمي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم عن أبي عبيدة قال : قلت للربيع بنت معوذ صفني لي رسول الله قالت : لو رأيته قلت الشمس طالعة .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ضخم القدمين حسن الوجه لم أر بعده مثله .

وأخرج أبو موسى المديني في كتاب الصحابة عن أمد بن أبلد الحضرمي قال رأيت رسول الله فما رأيت قبله ولا بعده مثله .

وأخرج الدارمي عن ابن عمر قال : ما رأيت أشجع ولا أجود ولا أضوأ من رسول الله .

وأخرج أحمد والبيهقي عن محرش الكعبي قال : اعتمر النبي من الجعرانة ليلاً فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة .

ومن شعر عمه أبي طالب فيه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد والبيهقي عن علي قال : كان النبي ليس بالذاهب طولا وفوق الربعة إذا جاء مع القوم غمرهم أبيض ضخم الهامة « أي الرأس » أغر أبلج أهدب الأشفار « أي طويل شعر العين أسوده » كأن العرق في وجهه اللؤلؤ لم أر قبله ولا بعده مثله .

ومن وصف هند بن أبي هالة له : كان رسول الله فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر .. عظيم الهامة رجل الشعر .. أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوانغ في غير قرن . بينهما عرق يدره الغضب « الحاجب الأزج المقوس الطويل الوافر الشعر » أقي العرنيين « العرنيين الأنف أو ما صلب منه والقنأ طول الأنف ودقة أرنبته واحديداب وسطه » له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم « الأشم الطويل قصبة الأنف » كث اللحية أدعج « الدعج شدة سواد العين » سهل الخدين ضليع الفم أشنب مفلج الأسنان « أي لأسنانه رونق وغير متراكبة » دقيق المسربة « أي خفيف شعر ما فوق السرة » كأن عنقه جيد دمية في صفاء ، معتدل الخلق بادن متماسك سواء البطن والصدر عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين .. أنور المتجرد . طويل الزندين رحب الراحة .. شثن الكفين

والقدمين سابل الأطراف « أي طويل الأصابع » خمصان الأخمصين .. ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صلب وإذا التفت التفت جميعاً خافض الطرف نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء ...

وكان إذا مس أحداً أحس بطمأنينة عجيبة وروح عجيب .

أخرج أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال : اشتكيت بمكة فدخل علي رسول الله يعودني فوضع يده على جبهته فمسح وجهي وصدري وبطني فما زلت يخيل إلي أني أجد برد يده على كبدي حتى الساعة .

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : مسح رسول الله خدي فوجدت ليده برداً وريحاناً كأنما أخرجها من جونة عطار . وأخرج الشيخان عن أنس قال ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ولا شممت مسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان منظره يوحى لمن يراه بأنه أمام نبي .

أخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال : لما قدم النبي المدينة جثته لأنظر إليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب .

وعن أبي رمثة التميمي قال : أتيت النبي ومعي ابن لي فأريته فلما رأيته قلت هذا نبي الله .

ويقول عبدالله بن رواحة في وصفه :

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبئك بالخبير

هذه بعض آثار مما ورد في وصف تكوينه الجسمي نقلناها بين يدي صفاته وكمالاته الخلقية العظيمة لتتضح صورته من جميع جوانبها عليه السلام .

الباب الأول

الصفات الأساسية

إنه لا بد لكل رسولٍ لله أن يكون متصفاً بصفات أساسية أربع حتى يكون أهلاً للرسالة . هذه الصفات الأربع هي :

١ - الصدق المطلق الذي لا ينقض في كل حال . بحيث لو امتحن كل قول له لكان مطابقاً للواقع إذا وعد أو عاهد أو جَدَّ أو داعب أو أخبر أو تنبأ وإذا انتقضت هذه الصفة أي نقض ، فإن دعوى الرسالة تنتقض من أساسها لأن الناس لا يثقون برسول غير صادق ، والرسول الصادق لا يمكن أن تجد في جزء من أجزاء كلامه شيئاً من الباطل في أي حال من الأحوال وفي أي جانب من الجوانب .

٢ - الإلتزام الكامل بما يدعو إليه نيابة عن الله إذ مهمة الرسالة تبليغ الناس ما كلفهم به الله فإذا لم يقم الرسول نفسه بهذه التكليف دل ذلك على عدم تفاعله مع التكليف وهذا دليل كذبه في دعوى الرسالة . إذ الرسول الذي يتصل به الله أعرف بجلال الله وبالتالي لا يعصي له أمراً لأن عصيان أمر الله خيانة ، وغير الأمناء ليسوا أهلاً لحمل رسالة الله .

٣ - التبليغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة وعدم المبالاة معه بسخط الناس أو تعذيبهم أو إيذائهم أو كيدهم أو مؤامراتهم أو إرجافهم ، والإستقامة على أمر الله وعدم الانحراف عنه ، مهما كانت المغريات والاستمرار على ذلك . إذ بدون التبليغ لا تظهر الرسالة وبدون الاستمرار عليه والصبر لا تستقر . والخضوع لضغط الناس أو لإغرائهم دليل كذب دعوى البلاغ عن الله . إذ لا يبلغ رسالة الله إلا

من رغب بالله عن غيره وكان الله وحده هو العظيم عنده ولا يبالي بغير رضاه

٤ - العقل العظيم إذ لا يسلم الناس ولا يتبعون إنساناً إلا إذا كان أرجحهم عقلاً ليطمئنوا على أنه لا يسير بهم في الطريق الخاطئ كما أنه بدون العقل العظيم لا يستطيع صاحب الرسالة أن يقنع الآخرين بالحق الذي في رسالته ، خاصة أصحاب المدارك الواسعة والعقول الكبيرة ولا يستطيع أن يرد هجمات المبطلين والمتكبرين والمنحرفين والمتنفعين بالإنحراف . فلا بد أن يكون الرسول أذكى الخلق وأفطنهم وأعقلهم وأحكمهم وأكملهم مدارك كي تقوم به الحجة .

فإذا اجتمعت هذه الصفات الأربع لإنسان يذكر أنه رسول الله مع بقية العلامات التي يعرف بها الرسول دون وجود مانع يحيل الدعوى ، كان ذلك برهاناً ودليلاً على صحة الدعوى إذ لا يوجد مبرر لتكذيب الصادق ولا يوجد تعليل لحرارة الإلتزام غير التسليم ، وعدم الإنصراف عن التليغ مع توفر دواعي الإنصراف لا تعلل إلا بالإخلاص للدعوة وصاحبها ، ودعوة حجتها معها ، وصاحبها قادر على إقامة الحجة في أي جانب من جوانبها فيها دليل حقيتها .

وسرى في هذا الباب كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان المثل الأعلى في كل صفة من هذه الصفات بحيث لا يستطيع أن تدرس واحدة منها عنده إلا وتسلم أن صاحبها رسول الله حقاً . وسندرس هذه الصفات على الترتيب المذكور هنا فنبدأ بصفة الصدق عنده عليه الصلاة والسلام .

١ - صدقه عليه السلام

وطريقتنا في استعراض هذه الصفة أن نأتي بالشهادات عاينها وهذه الشهادات ثلاث :

أ - شهادة الخصوم

ب - شهادة الأتباع

ج - شهادة الواقع ، وشهادة الواقع تتمثل في أربع : في الإخبار وفي

الوعد ، والعهد ، وفي المزاح والمداعبة وفي النبوءات .

أ - شهادة الخصوم :

وشهادة الخصوم في هذا الباب لها وزنها الكبير ، إذ تدلك على مبلغ الثقة التي كان يتمتع بها رسول الله عند الجميع ، ولكن بعض الناس استغربوا واستكبروا فأنكر دون وجود مبرر لهذا الإنكار وهذه نصوص تؤكد لك هذا الذي قلناه .

« أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال : إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أنني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل : يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله أدعوك إلى الله . فقال أبو جهل : يا محمد هل أنت منته عن سب آلها ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت ، فوالله لو أنني أعلم أن ما تقول حق لا تبعثك فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل علي فقال : والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء . أن بني قصي قالوا : فينا الحجابة . قلنا نعم ثم قالوا : فينا السقاية قلنا نعم ، ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي . والله لا أفعل » وأخرجه ابن أبي شبة بنحوه .

وأخرج الترمذي عن علي أن أبا جهل قال للنبي ﷺ إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله تعالى : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

«وأخرج ابن عساكر عن معاوية (رض) قال : خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفاً هند وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لي إذ سمعنا رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان : إنزل يا معاوية حتى يركب محمد فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله ﷺ فسار أمامنا هنيئة ثم التفت إلينا فقال : يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لتموتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار . وأنا أقول لكم بحق وإنكم لأول من أنذرتهم ثم قرأ رسول الله ﷺ (حم

تنزيل الكتاب من الله العزيز الرحيم... حتى بلغ - قالتا أتينا طائعين) فقال له أبو سفيان : أفرغت يا محمد؟ قال نعم ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة وركبتها وأقبلت هند على أبي سفيان : ألهذا الساحر أنزلت ابني قال : لا والله ما هو بساحر ولا كذاب » وأخرجه الطبراني أيضاً .

وروى البخاري ومسلم قصة أبي سفيان عند هرقل كما حدث بها أبو سفيان ابن عباس ومنها سؤال هرقل لأبي سفيان هذا : « قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . قلت لا » وفي آخر القصة يقول هرقل لأبي سفيان : « وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال : فرعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى » .

وأخرج الشيخان والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فھر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال : رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد : قال أبو لهب : نبأ لك يا محمد ألهذا جمعتنا فنزلت : (تبت يدا أبي لهب وتب) من هذه النصوص يتبين لك أن الثقة بصدق محمد ﷺ كانت متوفرة ولم يكن هذا الموضوع فيه شك أبداً وهذا الذي يعزل لنا :

١ - ظاهرة الإيمان به من قبل من حاربوه واحداً فواحداً طوعاً لا إكراها أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب ... ذلك لأنهم ما كانوا يشكون في أن محمداً صادق ، ولكن فاجأهم بشيء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فانكروه ، حتى إذا ذهب هول المفاجأة وحكموا عقولهم التقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد ﷺ فتولد عن ذلك إيمان .

٢ - ظاهرة الإخلاص له بعد الإيمان . فبعضهم لم يؤمن إلا آخرها بعد أن

غلب كبقايا قريش فإنهم أخيرا غلبوا للإسلام ، وكان يمنعهم من ذلك ثارات وأحقاد وشبهات وشهوات ، حتى إذا دخلوا فيه تسليما للأمر الواقع وإذا بهم مخلصون لرسول الله كآتم مايكون الإخلاص ، ومتفانون في الإسلام بعد أن زالت عن أعينهم غشاوات ، من بعدها تبيينوا أن محمدا هو الأخ الكريم والإبن الكريم فكانت معرفتهم به وثقتهم بشخصيته أساسا لإخلاصهم في طريقهم الجديد الذي ساروا به بعد ذلك فرحين .

وبعد فهذه شهادة خصوم : بعضهم أسلم بعد خصومة شديدة وبعضهم مات على كفره ولكن الجميع حتى في أشد حالات الخصومة كانوا مؤمنين أن محمدا ﷺ صادق .

ب - شهادة الأتباع :

ونقدم لشهادة الأتباع بما يلي :

١ - أن رسول الله ﷺ كان دائم الخلطة لأصحابه في طعامهم وشرابهم وسفرهم وصلاتهم ومجالسهم وهو عليه السلام كان يحب البساطة والصراحة ويكره التكلف ، وبعض الصحابة خالط الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدها عشرات السنين .

٢ - وهؤلاء الأصحاب لم يكونوا أغرارا ولا مغفلين ولا منغزلين عن العالم ، بل بعضهم من مكة التي كان العرب سنويا يقصدونها للحج ، وتسلم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة عدا عن صلات أهلها بواسطة التجارة مع اليمن ومع الشام حيث مراكز الحضارة . وبعض أصحابه من المدينة حيث الصلات الفكرية مع اليهود وما ينشأ عن ذلك من تفتح ذهني .

كما أن هؤلاء الأصحاب أثبتوا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولا وأكثرهم دهاءا وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم بفتح أعظم الدول المتحضرة وقتذاك وإدارتها وكسب مودة شعوبها ودمجهم بعد ذلك في الأمة الإسلامية .

فإذا ما اجتمعت هاتان الناحيتان . الخلطة الدائمة . وذكاء المخالطين ، فإن أمر الكاذب يفتضح ، وأمر الصادق يتضح .

والظاهرة الواضحة في حياة الصحابة أنهم كلما ازدادوا برسول الله ﷺ خلطة ازدادوا به إيمانا وتصديقا بل أكثرهم اختلاطا به أكثرهم إيمانا به وطاعة له وقد بلغ هذا معهم لدرجة أنه أصبح الموت من أجل ما يريد الرسول ﷺ أحب إليهم من الحياة ، وإنفاق المال أحب إليهم من إمساكه ، والطاعة أحب إليهم من المعصية . ودين الرسول ﷺ أحب إليهم من الأموال والأولاد والمساكن والزوجات والوطن . وكل هذا من مظاهر التصديق الكامل إذ لولا التصديق لما كان شيء من هذا . فقد قتل منهم الإبن أباه ، وأراد الأب قتل ابنه فعلام يفعلون هذا لولا أن إيمانهم برسول الله ﷺ وتصديقهم به وصل إلى ذروة الذرى . وهذه أمثلة كل منها يعتبر أثرا من آثار التصديق الكامل ودليلا عليه نذكرها بلا تعليق وفي كل منها شهادة من صاحبها . بعد تجربة على أن محمدا ﷺ صادق لا شك في ذلك .

١ - أخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسي عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا - ألح أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور فقال : يا أبا بكر إنا قليل . فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته ، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ . وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا ووطي أبو بكر وضرب ضربا شديدا ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من انفه .

وجاء بنوتيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنوتيم أبا بكر

في ثوب حتى أدخلوه منزله . ولا يشكون في موته ، ثم رجعت بنوتيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنوتيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ؟ ، فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : أنظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ فقالت : والله مالي علم بصاحبك . فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحين أن أذهب معك إلى إبنك قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفأ . فدنّت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت والله إن قوما نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله ﷺ قالت : هذه أملك تسمع . قال : فلا شيء عليك منها . قالت : سالم صالح . قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأرقم . قال : فإن لله علي أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمهلنا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس : خرجتا به يتكى عليهما حتى أدخلتاها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله واكب عليه المسلمون ، وورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة . فقال أبو بكر : بأبي وأمي يا رسول الله ، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أُمِّي برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار . قال : فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت .

٢- وأخرج ابن إسحاق عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما أسلم عمر رضي الله عنه قال : أي قریش أنقل للحديث ؟ فقبل له جميل بن معمر الجمحي فدعا عليه ، قال عبد الله : وغدوت أتبع أثره وأنظر مايفعل - وأنا غلام أعقل

كل ما رأيت - حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أنني أسلمت ودخلت في دين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته انا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ . قال يقول عمر من خلفه كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله محمداً رسول الله ، وثاروا إليه فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، قال : وطلع فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : إفعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . قال : فبينما هم على ذلك اذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . قال : فمه ! رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل . قال : فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه . قال فقلت لأبي - بعد أن هاجر إلى المدينة - يا أبت : من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة - يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال : ذاك أي بني : العاص بن وائل السهمي . وهذا اسناد جيد قوي - كذا في البداية .

٣ - وأخرج البخاري في التاريخ عن مسعود بن خراش رضي الله عنه بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثير يتبعون فتى شاباً موثقاً بيده في عنقه . قلت : ما شأنه ، قالوا : هذا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه صبأ . وامرأة وراءه تدمدم وتسبه . قلت من هذه ؟ قالوا الصعبة بنت الحضرمي أمه .

٤ - وأخرج البيهقي وابن سعد والحارث وابن المنذر وابن عساكر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه : أن صهيباً رضي الله عنه : أقبل مهاجراً نحو النبي صلى الله عليه وسلم فتبعه نفر من قريش مشركون ، فترل فانتقل كنانته فقال : قد علمتم يا معشر قريش اني أرماكم رجلاً بسهم ،

وأيما الله لا تصلون إلي حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه . ثم شأنكم بعد ذلك وإن شئتم دلتكم على مالي بمكة وتخلوا سبيلي .. قالوا : نعم . فتعاهدوا على ذلك فدلهم ، فأنزل الله على رسوله القرآن (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله) حتى فرغ من الآية . فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم صهييا قال : ربح البيع يا أبا يحيى ربح البيع يا أبا يحيى ! وقرأ عليه القرآن .

٥ - وأخرج الحاكم عن سليمان بن بلال رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعاً الخروج معه ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأمر أن يخرج أحدهما فاستهما . فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد (رضي الله عنهما) إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم فأقم مع نسائك . فقال سعد : لو كان غير الجنة لآثرتك به إني أرجو الشهادة في وجهي هذا ، فاستهما ، فخرج سهم سعد ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر . فقتله عمرو بن عبد ود . وأخرجه أيضاً ابن المبارك عن سليمان وموسى بن عقبة عن الزهري ، كما في الإصابة .

٦ - وأخرج الطبراني عن ابن عمر - أن عمر - رضي الله عنهما ، قال يوم أحد لأخيه : خذ درعي يا أخي ! قال أريد من الشهادة مثل الذي تريد ، فتركاها جميعاً ، قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح .

٧ - وأخرج ابن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدي بن النجار قال : انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم - وقد ألقوا بأيديهم . فقال : فما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا ، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قتل .

٨ - وأخرج الحاكم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بعثني

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضي الله عنه وقال لي : إن رأيته فاقرئه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجددك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأصبته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم . فقلت له يا سعد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرني كيف تجددك ؟ قال : على رسول الله السلام ، وعليك السلام ، قل له : يا رسول الله أجدني أجدر ربح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم شفر يطرف . قال : وفاضت نفسه - رحمه الله - قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وقال الذهبي : صحيح . ثم أخرج الحاكم من طريق ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة حدثه عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع رضي الله عنه - فذكر الحديث بنحو منه - وقال : فقال سعد : أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنني من الأموات ، واقرئه السلام وقل له : يقول سعد : جزاك الله عنا ، وعن جميع الأمة خيراً .

٩ - وأخرج البيهقي عن مالك بن عمير رضي الله عنه وكان قد أدرك الجاهلية . قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني لقيت العدو ولقيت أبي فيهم ، فسمعت لك منه مقالة قبيحة فلم أصبر حتى طعنته بالرمح - أو حتى قتلته ، فسكت عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ثم جاء آخر فقال : إني لقيت أبي فركته وأحببت أن يليه غيري . فسكت عنه . قال البيهقي وهذا مرسل جيد .

١٠ - وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أبي وهو في ظل أطم فقال : غبر علينا ابن أبي كبشة . فقال ابنه عبد الله بن عبد الله رضي الله عنه : يا رسول الله والذي

أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه ؟ فقال : لا ، ولكن برأباك وأحسن صحبته .
قال الهيثمي رواه البزار ورجاله ثقات .

١١ - وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لسعيد بن العاص رضي الله عنه وقربه :
إني أراك تظن أنني قتلت أباك إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ، ولكني قتلت
خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فاني مررت به وهو يبحث بحث
الثور بروقه ، فحدثت عنه وقصد له ابن عمه علي فقتله . كذا في البداية ،
وزاد في الاستيعاب والإصابة : فقال له سعيد بن العاص : لو قتلته لكنت على
الحق وكان على الباطل ، فأعجبه قوله .

١٢ - وأخرج ابن سعد عن الزهري قال : لما قدم أبو سفيان بن حرب
المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يريد غزو مكة فكلّمه أن يزيد في هدنة
الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فدخل على ابنته أم
حبيبة رضي الله عنها . فلما ذهب ليجلس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم
طوته دونه . فقال : يا بنية ! أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟؟ فقالت :
بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بنية !
لقد أصابك بعدي شر . وذكر ابن إسحاق نحوه بلا إسناد ، كما في البداية
وزاد : فلم أحب أن تجلس على فراشه .

١٣ - وأخرج الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان
يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة . وقالوا : قتل محمد حتى كثرت الصوارخ
في ناحية المدينة . فخرجت امرأة من الأنصار محرمة فاستقبلت بأبيها وابنها
وزوجها وأخيها - أي قتلى - لا أدري أيهم استقبلت به أولا . كلما مرت على
أحدهم قالت : من هذا ؟ قالوا : أبوك أخوك زوجك ابنك ، تقول : ما
فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقولون : أمامك حتى دفعت إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فاخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بآني أنت وأمي يا رسول

الله لا أبالي إذ سلمت من عطب .

هذه نصوص تبين لك مدى الإيمان برسول الله ﷺ عند أتباعه المخالطين له مما يدل على أن تصديقهم لرسول الله ﷺ بلغ حداً لا مثيل له .

ج - وأخيراً شهادة الواقع

إن شهادة الواقع أعلى الشهادات لأن الإنسان يصل بامتحانه إلى اليقين الذي لا يخالطه شك ونعني بهذا أن يقوم الإنسان بأجراء اختبار كامل لكل ما ورد عن الرسول من قول أو فعل . فإذا ما وجد أن كل قول أو فعل مما يمكن أن يدخل تحت الاختبار لا يخرج عن الحق والصدق . لم يبق أمام الإنسان إلا طريق واحد هو الإيمان والتصديق . وسنرى في الفصل الثاني القادم أن الاختبار الكامل للقرآن يجعلك على مثل الشمس وضوحاً أن القرآن كله حق وصدق وأنه من عند الله وسنرى في الفصل الثالث إن شاء الله أن الاختبار الكامل لنبوءاته ، يدل على أن المستقبل كان كشفاً لها وتوكيداً . أما هنا فسننقل نماذج من مزاحه ومداعباته لنرى أنها لا تخرج عن الحق والصدق ، ونماذج عن وعوده وعهوده وصدقه فيها ، ونماذج من أحاديثه التي يستطيع الإنسان أن يعرف صدقها بالاختبار ، لنرى العجب في مطابقة ما عرفه انسان عصرنا بعد التجربة ، لما نطق به شفتا رسول الله من عصور . ثم نختم هذا الموضوع بالتذكير أن المصدر الوحيد الذي نستطيع أن نأخذ عنه العلم بالغيبات بثقة هو رسول الله . فهو الحجة وحده في هذا ، وكلامه حجة على غيره فيه ، مع مناقشة بعض القضايا التي لها علاقة بهذا الأمر ونبدأ باستعراض ما ذكرنا :

١ - نماذج من صدقه في مزاحه ومداعباته

إن الناس عادة لا يلتزمون الصدق في المزاح ولكن رسول الله داعب صادقاً ومزاح صادقاً وألزم أمته الصدق في كل حال . أخرج أحمد عن أنس ابن مالك : ان رجلاً أتى النبي فاستحمله فقال رسول الله : انا حاملوك على

ولد ناقة فقال يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة ؟ فقال رسول الله : وهل تلد الإبل إلا النوق . رواه أبو داود والترمذي .

وقال زيد بن أسلم : أن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي فقالت : إن زوجي يدعوك قال : ومن هو أهو الذي بعينه بياض ؟ قالت والله ما بعينه بياض فقال بلى إن بعينه بياضاً فقالت لا والله . فقال ما من أحد إلا وبعينه بياض . هو أراد البياض المحيط بالحدقة وهي فهمت البياض على الحدقة الذي يكون الرجل أعور به .

وأخرج أحمد عن أنس : أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً ، وكان يهدي النبي الهدية من البادية فيجهزه النبي إذا أراد أن يخرج . فقال رسول الله : إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه وكان رسول الله يحبه وكان رجلاً دميماً . فأتاه رسول الله وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل فقال : أرسلني من هذا ؟ فالتفت فعرف النبي فجعل لا يألو ما الصق ظهره بصدر النبي حين عرفه وجعل رسول الله يقول : من يشتري العبد ؟ فقال يا رسول الله اذن والله تجدني كاسداً فقال رسول الله : لكن عند الله لست بكاسد . أو قال لكن عند الله غال . رواه ثقات فأنت ترى من سياق الحديث أنه عني بالعبد عبد الله وكلنا عبد الله .

وأخرج الترمذي في الشمائل عن الحسن قال : أتت عجوز النبي فقالت يا رسول الله أدع الله أن يدخلني الجنة فقال يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز فقلت تبكي فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول : (إنا أنشأناهم إنشاءً فجعلناهم أبكاراً) .

وأخرج الترمذي في الشمائل عن أنس قال : قال لي رسول الله يا ذا الأذنين . قال أبو أسامة يعني يمازحه . وكل إنسان له أذنان فانت ترى من هذه الأمثلة أنه داعب ومازح دون أن يخرج عن الحق والصدق ولكنه استعمل هذا الصدق استعمالاً لطيفاً ، على غير المتعارف . ففهم المخاطب فهماً كانت

فيه نكتة وهكذا كانت مداعباته كلها حقاً .

أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله إنك تداعبنا ...
قال : إني لا أقول إلا حقاً . إنها نبوة صدق وما كان للنبوة أن يكون للباطل
عندها أو معها نصيب .

٢ - نماذج من صدقه في وعوده وعهوده :

أخرج أبو داود عن عبد الله بن أبي الحنساء قال : « بايعت النبي ﷺ قبل
أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتية بها في مكانه ذلك . فنسيت يومي والغد
فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال يا فتى لقد شققت علي ، أنا ههنا منذ
ثلاث أنتظرك » . وأخرج ابن حبان والحاكم : « كان صلى الله عليه وسلم
جالساً يقسم غنائم هوازن بجنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : إن لي
عندك موعداً يا رسول الله . قال : صدقت فاحتكم ما شئت . قال : أحتكم
ثمانين ضائنة وراعيها . قال : هي لك وقال : احتكمت يسيراً »

وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى في قضية إسلامه وكيف أنه
عندما كان مشركاً تولى مطالبة الرسول ﷺ بالجللاء عن مكة في عمرة
القضاء بعد انقضاء مدة الثلاثة أيام المتفق عليها يقول حويطب : « ولما قدم
رسول الله ﷺ لعمرة القضاء وخرجت قريش من مكة كنت فيمن تخلف
بمكة أنا وسهيل بن عمرو لأن نخرج رسول الله ﷺ إذا مضى الوقت فلما
انقضت الثلاثة أقبلت أنا وسهيل بن عمرو فقلنا : قد مضى شرطك فاخرج من
بلدنا فصاح يا بلال لا تغب الشمس وواحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا » .

وهذه فقرات من كتاب (بطل الأبطال) يحل فيها صاحبه بعض مواقف
الوفاء بالعهد والوعد التي وقفها رسول الله ﷺ يقول : « قبل سنة من هجرة
الحديبية كانت قريش تحاصر المدينة وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل
القرى والأعراب فنقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله . واشتد بذلك
الكرب وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً ، ولكن الله نصر عبده ، وأعزه وألقى

الرعب في قلوب المشركين ، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان جيش الإسلام بقيادة رسول الله يزحف إلى مكة ، فنزل الحديبية وبعثت قريش رسلها إلى محمد ﷺ .

وهوذا عروة بن مسعود الثقفي رسولها يعود إليها يصف حال محمد وجنده بهذه العبارة :

« إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه » . كان محمد في منعة وقوة ولكنه كان يعلن أنه لا يريد الحرب ، ويقول : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . فلما جاء سهيل بن عمرو مفوضاً من قريش لعقد الهدنة يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن وهو أن محمداً يسلم إلى قريش من لجأ إليه من المسلمين بغير إذن وليه ولا يطلب تسليم من لجأ إلى قريش من أتباعه ..

ذلك الشرط أهاج أصحاب محمد ﷺ حتى أن عمر رضي الله عنه كان يذهب تارة إلى أبي بكر وتارة أخرى إلى الرسول ويقول : ألسنا المسلمين ! أليسوا المشركين ! ألسنت رسول الله ! ! .. فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ فيقول الرسول : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله . فقبول المسلمين هذا الشرط هو استسلام منهم لأمر لم يدركوا سره وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم وبينما هم على هذه المضاضة وقد فرغ الرسول من الجدل مع مفوض قريش سهيل بن عمرو ولم يكتب العقد ولم يمض جاءهم أبو جندل مستصرخاً يرسف في قيوده وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد بلغت القضية بيني وبينك — أي فرغنا من المناقشة — قبل أن يأتيك هذا . قال محمد صدقت ، وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين ! أأرد إلى

المشركين يفتنونني في ديني ؟ تصوروا ذلكم المقام مقام محمد وهو الشجاع الذي حدثتكم عن شجاعته المنقطعة النظير وهو القوي الذي خرج من المدينة زاحفاً بجيش . سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له تصوروه وهو يرى أقرب أصحابه (في حالة تدمر) ثم تصوروا لاجئاً يرسف في القيود وهو من أبناء الأعزة في قريش يرسف فيها (اتباعاً) لمحمد ودين محمد ثم انظروا إليه لا يحتال ولا يتردد ولما يكتب ولما يمض يقول لسهيل صدقت لقد لحت القضية ويرد صاحبه باكياً إلى أعدائه تصوروا كل ذلك ثم ليكتب إلي من يشاء بمثل واحد في تاريخ البشر كله كهذا المثل يضربه محمد في رعاية الكلمة التي قالها ولما تكتب ولما تمض .

ويقول صاحب الكتاب ذاكراً مثلاً آخر :

ثم أنظروا إلى وفائه للمشركين أيضاً : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل في عقد محمد وعهده ، ومن شاء دخل في عقد قريش وعهدها . فدخلت خزاعة على شركها في عهد محمد فلما نقضت قريش عهدها معه ونصرت حليفها بكرا عليها . ذهب عمرو بن سالم الخزاعي يطالب (رسول الله) بالعهد ويطلب (منه) نصر حلفائه فوقف على رسول الله وهو في المسجد ينشده ويقول :

يا رب إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأثلدا
فانصر هداك الله نصراً اعتداً وادع عباد الله يأتوا مددا
في فيلق كالبحر يجري مزبداً إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقلك المؤكدا

فكان ذلك الإعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين سبباً (في تجهيز أضخم جيش عرفته الجزيرة والسير لنصرة الحليف وكان من آثار ذلك فتح مكة كما هو معروف) هذه أمثلة سقناها من وفاء (رسول الله) لأعداء الملة وقد عاهدهم ... أو قبل محالفتهم على غيرهم .
هذه نماذج من صدقه في وعده وعهده وسواها كثير فما حدث أن وعد

رسول الله أو عاهد فأخلف أو غدر. روى البخاري أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن محمد هل يغدر أجاب أبو سفيان : لا - فقال هرقل بعد ذلك : وسألتك هل يغدر فزعمت انه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر .

إن الغدر نوع من أنواع الكذب والخلف بالوعد كذب . والرسول عليه السلام منزّه عن ذلك ، ومن النماذج القليلة التي ذكرناها ، ترى أنه ما أحد من البشر غير الرسل وصل إلى ما وصل إليه الرسول في الوفاء ، لشرف الكلمة ، إلا إذا كان تلميذاً من تلامذته ، يقتدي به . لقد كانت كلمة الرسول هي الضمان الذي ما بعده ضمان ، حتى أن ألد خصومه وأعرقهم في عداوته كان لا يتردد إذا تأكد أن محمداً أمته أن يلقي نفسه في أحضان المسلمين ، ثقة منه أن كلمة محمد ضمان لا يعدله ضمان . ومن تتبع حوادث السيرة وجد الأمثلة الكثيرة على هذا ، إنها صفة الصدق عند الأنبياء لا تتخلف .

٣ - نماذج من حديثه الذي صدقته علوم عصرنا من غير النبوءات :

آ) - قال عليه السلام في الحديث الصحيح : (إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء) .

إن هذا الحديث ذكر قضيتين كلتاها لم تكن معروفة قديماً أولاهما أن الذباب ناقل داء وهذا شيء أصبح الآن معروفاً لدى الجميع أن الذباب ناقل جراثيم ممتاز. والثانية وهي التي يجهلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كذلك وهذا تحقيق كتبه الدكتور عز الدين جواله حول هذا الموضوع ننقل منه ما يلزمنا هنا يقول :

قبل الخوض في هذا الموضوع لنذكر ما يلي :

١ - من المعروف منذ القديم أن بعض المؤذيات يكون في سمها نفع ودواء ، فقد يجتمع الضدان في حيوان واحد فالعقرب في إبرتها سم نافع ، وقد يداوي سمها بجزء منها وفي ذلك يقول العلماء « وقد وجدنا لكون أحد جناحي الذباب داء والآخر شفاء ودواء فيما أقامه الله من عجائب خلقه وبدائع

فطرته شواهد ونظائر ، منها النحلة يخرج من بطنها شراب نافع ويكمن في ابرتها السم النافع ، والعقرب تهيج الداء بابرتها ويتداوى من ذلك بجرمها .

٢ - وفي الطب يخضر لقاح من ذبيب الأفاعي والحشرات السامة يحقن به لدغ العقرب أو لدغ الأفعى . بل وينفع في تخفيف آلام السرطان أيضاً .

٣ - ان الطب الحديث استخرج من مواد مستقذرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأساً على عقب فالبنسلين استخرج من العفن و الستربتومايسين من تراب المقابر ... الخ او بمعنى أدق من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر . أما والحالة كذلك ، فهل يمتنع عقلاً ونظرياً أن يكون في الذباب هذه الحشرة القذرة ، والتي تنقل القذر طفيلي أو جرثوم يخرج أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذي تحمله .

٤ - من المعروف في فن الجراثيم أن للجرثوم ذيفان (مادة منفصلة عن الجرثوم) وأن هذا الذيفان إذا دخل بدن الحيوان كون البدن أجساماً ضد هذا الذيفان ، لها قدرة على تخريب الذيفان والتهام الجراثيم تسمى بمبيدات الجراثيم . فهل يستبعد القول بأن الذباب تلتهم الجراثيم فيما تلتهم ، فيكون في جسم الذباب الأجسام الضدية المبيدة للجراثيم والتي مر ذكرها ، ولها القدرة على الفتك بالجراثيم الممرضة التي ينقلها الذباب إلى الطعام أو الشراب ، فإذا وقعت في الطعام فما علينا إلا نغس الذبابة فيه فتخرج تلك الأجسام الضدية فتبيد الجراثيم التي تنقلها وتقضي على الأمراض التي تحملها .

وبعد كلام للدكتور عز الدين يستمر فينقل تحقيقاً للطبيبين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين في إثبات ما في الحديث فنقل بعضاً منه ، يقولان :

ما تقوله المراجع العلمية :

في ١٨٧١ وجد الاستاذ الألماني « بريفلد » من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة

المتزلية مضابة بطفيلي من جنس الفطريات سماها « امبوزاموسكي » وهو طفيلي يعيش الذبابة على الدوام وبالتدقيق فيه وجدته من نوع من الفطور التي تسمى « انتوموفترالي » تنتمي إلى أهم فصيلة في الفطور الاشنية وهي المسماة بالفطور الاشنية المرتبطة أو المتحدة ، وهو من النوع الثاني للفطر المسمى الفطور الاشنية الطفيلية وهذا الطفيلي يقضي حياته في الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطسن الذبابة بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة سيأتي ذكرها . ثم لا تلبث هذه الخلايا المستديرة أن تستطيل فتخرج من الفتحات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة.

ودور الخروج هذا يمثل الدور التناسلي لهذا الفطر ، وفي هذا الدور تتجمع بذور الفطر داخل الخلية ، فيزداد الضغط الداخلي للخلية من جراء ذلك ، حتى إذا وصل الضغط إلى قوة معينة لا تحملها جدر الخلية انفجرت الخلية وأطلقت البذور إلى خارجها بقوة دفع شديدة ، تدفع البذور إلى مسافة ٢ سم خارج الخلية ، على هيئة رشاش مصحوبا بالسائل الخلوي . وعلى هذا إذا امعنا النظر في ذبابة ميتة ومتروكة على الزجاج نشاهد :

أ - مجالا من بذور هذا الفطر حول الذبابة المذكورة .

ب - ويشاهد حول القسم الثالث والأخير من الذباب على بطنها وعلى ظهرها وجود الخلايا المتفجرة . والتي خرجت منها البذور وقد برز منها رؤوس الخلايا المستطيلة التي مر ذكرها . وقد جاءت مكتشفات العلماء الحديثة مؤيدة ما ذهب اليه « بريفلد » ومبينة خصائص عجيبة لهذا الفطر الذي يعيش في بطن الذبابة منها :

١ - في عام ١٩٤٥ أعلن أكبر استاذ في علم الفطريات وهو « لانجيرون » أن هذا الفطر الذي يعيش دوما في بطن الذبابة على شكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة (انزيم) قوية تحلل وتذيب من أجزاء الحشرة الحاملة للمرض .

٢ - في عام ١٩٤٧ - ١٩٥٠ تمكن العالمان الانجليزيان « آرنشتين و كوك »

والعالم السويسري « روليوس » من عزل مادة سموها « جافاسين » استخرجوها من فصيلة الفطور التي تعيش في الذباب وتبين لهم ان هذه المادة مضادة للحياة تقتل جراثيم مختلفة من بينها جراثيم غرام السالبة والموجبة والديزانتريا والتيفوئيد .

٣ - وفي عام ١٩٤٨ تمكن « بريان و كورتيس وهيمنج وجيفيرس وماكجوان » من بريطانيا من عزل مادة مضادة للحياة أسموها « كلوتيزين » وقد عزلوها عن فطريات تنتمي إلى نفس فصيلة الفطريات التي تعيش في الذباب وتؤثر في جراثيم غرام السالبة كالتيفوئيد والديزانتريا .

٤ - وفي عام ١٩٤٩ تمكن عالمان انجليزيان هما « كومسي وفارمر » وعلماء آخرون من سويسرا هم « جرمان وروث واثلنجر وبلاتنر » من عزل مادة مضادة للحياة أيضا أسموها « انياتين » عزلوها من فطر ينتمي إلى فصيلة الفطر الذي يعيش في الذباب ووجدوا لها فعالية شديدة جدا ، وتؤثر بقوة على جراثيم غرام موجب وسالب وعلى بعض فطريات أخرى كالزحار والتيفوئيد والكوليرا .

٥ - وفي عام ١٩٤٧ عزل « موفيتش » مواد مضادة للحياة من مزرعة للفطريات الموجودة على نفس جسم الذبابة ، فوجدها ذات مفعول قوي على الجراثيم السالبة لصيغة غرام . كالزحار والتيفوئيد وما يشابهها ووجدها ذات مفعول قوي على الجراثيم المسببة لأمراض الحميات ذات الحضانة القصيرة المدة . وان غراما واحدا من هذه المادة يمكنه أن يحفظ أكثر من ١٠٠٠ لتر من اللبن الملووث بالجراثيم المذكورة .

والخلاصة يستدل من كل ما سبق أنه :

١ - يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة والبراز وما شابه ذلك ، فيحمل بأرجله أو يمج كثيرا من الجراثيم المرضية الخطرة .

٢ - يقع الذباب على الأكل فيلمس بأرجله الملوثة الحاملة للمرض هذا الطعام ، أو هذا الشراب ، فيلوته بما يحمل من سم نافع ، أو يتبرز عليه فيخرج

مع ونيمها تلك الجراثيم الدقيقة الممرضة .

٣ - فإذا حملت الذبابة من الطعام . وألقيت خارجة دون غمس ، بقيت هذه الجراثيم في مكان سقوط الذباب ، فإذا التهمها الآكل وهو لا يعلم طبعاً . دخلت فيه الجراثيم ، فإذا وجدت أسباباً مساعدة ، تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض ، فلا يشعر إلا وهو فريسة للحمى طريقاً للفراش .

٤ - أما إذا غمست الذبابة كلها . أو مقلت في الطعام فماذا يحدث . إذا غمست الذبابة أحدثت هذه الحركة ضغطاً داخل الحلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة فزاد توتر البروز والسائل داخلها زيادة تؤدي لانفجار الخلايا ، وخروج الأنزيمات الحالة لجراثيم المرض والقاتلة له . فتقع على الجراثيم التي تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها ، ويصبح الطعام طاهراً من الجراثيم المرضية .

٥ - وهكذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيراً للحديث النبوي المؤكد لضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء الذي يكافح ما تحمله من داء .

ويستنتج من ذلك أن العلم الحديث قد حقق ما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم .

فقد أثبت العلم الحديث أن الذباب ينقل الجراثيم والأقذار بأرجله من النفايات والكنف والمزابل إلى الاطعمة والأشربة . وإلى فتحات الوجه والتنفس فيسبب الأمراض المعدية من تيفوئيد وسل وكوليرا وغيرها . وهذا ما أخبر عنه المصطفى ﷺ من أن بأحد جناحي الذبابة داء .

والدواء يجب الوقاية منه والبعد عنه ، ولا يكون ذلك إلا بمكافحة الذباب وإبادته والاحتباس منه .

ويقرر العلم الحديث أيضاً كما رأينا أن في الذباب طفيلياً له ذيفان يبيد الجراثيم ، ويفتك بها بشدة وأن هذا الذيفان لا ينفصل عن جرثومه إلا بعد

وصول توتره إلى درجة معينة ، يكفي لبلوغه الضغط عليه بغمسه ولو في الشراب أو الطعام . وهذا ما ورد في الحديث عنه ﷺ ، (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) .

ب) — عن عائشة أن فاطمة بنت أبي حبيش سألت النبي ﷺ فقالت إني أستحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة ؟ فقال : « لا إن ذلك دم عرق ، ولكن دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها ثم اغتسلي وصلي » .

المسألة هنا كما يلي : للمرأة عادة شهرية يخرج فيها الدم من رحمها كأثر من آثار عدم تلقيح بويضة الانثى بماء الذكر والدم الذي يخرج منها في هذه الحالة يسمى دم حيض وهذه امرأة يخرج منها الدم دائماً وكانت تتصور ان هذا الدم كله دم حيض ولكن الرسول أفهمها ان هذا الدم ليس دم حيض ولكنه نزيف عرق .

فماذا يقول العلماء المختصون المعاصرون الآن في هذه الناحية ؟

يقولون : ان الدم الوحيد الذي يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس أما الدم الآخر الذي يكون في غير هذا فمرجهه إلى نزيف يحدث في بعض الاغشية مما لا علاقة له بالرحم ، ودم الحيض الذي يخرج منه ، فهل كان حديث أهل الاختصاص في عصرنا إلا مصداقاً لما قاله عليه السلام من عصور لم يكن هذا فيها معروفاً ؟ .

ج) — روى مسلم عن طارق الجعفي أنه سأل النبي عن الخمر فنهاه عنه فقال : انما أصنعها للدواء فقال : « إنه ليس بدواء ولكنه داء » .

ان هذا الحديث يذكر أن الحمرة من أسباب المرض وليست من أسباب الشفاء . فماذا يقول الاطباء في عصرنا ؟ ننقل للجواب على هذا ما ذكره صاحب كتاب روح الدين الإسلامي في هذا الموضوع وقد نقل هو قسماً من

بحته عن كتاب الاسلام والطب الحديث يقول :

الخمير أساسها مادة الكحول بكميات مختلفة ، وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة جدا في جسم الانسان في عملية هضم المواد السكرية . . . ولها فوائد طبايا ولكن يظهر أن هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جدا (وطبعا الحديث لم يذكر أن ما يجري داخل الجسم من عملية التخمر فيه ضرر ولكن الكلام فيما نخمره ثم نشربه) فإن زاد عن ذلك أحدث ضررا خصوصا إذا كان التعاطي لمدة طويلة ، فإنه يحدث التهابا مزمنيا في الأعصاب وفي الكلى ، وتصلبا في الشرايين وتنجس في الكبد ، وضعفا في القلب ورب سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ (وطبعا لا يسأل هذا السؤال إلا إنسان يجهل أن الجسم متى اعتاد على الكحول ، طلبه وغلب الإنسان ، فلم يعد يستطيع الصبر عنه) والجواب أن الكحول يختلف عن أغلب المواد في أنه حتى بالمقادير البسيطة : يحدث ضعفا في قوة الإرادة والحكم ، وتزداد به الانفعالات النفسانية ، وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يصبح شخصا آخر ، واراادته تصبح غير إرادته الطبيعية ، ومع علمه بضرر الزيادة في حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه ، وهو تحت تأثير البسيط منه وقد يحدث الشيء البسيط منه حركة انتعاش ولكن ضعف الارادة المتولدة منه يجعل الشخص عبدا لعادة شرب الخمير .

وان تأثير الخمير يبدأ بمجرد وصول عشرة جرامات من الكحول إلى الدم للشخص البالغ ، وهذا القدر يوجد في كأس واحدة من الويسكي أو الكونياك ، وقد لا يصل الشخص إلى درجة السكر ، ولكن على كل حال له أثر ملموس في حالة الشخص الجسمية والعقلية ، وإذا فحص الشخص في هذه الحالة ، نجد أن درجة إدراكه وتقديره قد تغيرت فعلا ، فهو مثلا اذا كتب على الآلة الكاتبة ، زادت اخطاؤه عن المعتاد ، وإذا قاد سيارة لم يتبع بالضبط قوانين المرور . وقد ثبت من الاحصائيات ان أكثر من ١٣ في المائة من حوادث المرور سببها الخمير .

والجرعة الواحدة من الخمر تحدث شيئاً من الإرتفاع في ضغط الدم ، وهذا الإرتفاع وحده قد لا يكون له ضرر كبير ولكن الضرر يتضاعف إذا كان الشخص مرتفع الضغط من نفسه ، ثم إذا كانت كمية الخمر وافرة كانت كافية لأن تحدث هيجانا يزيد في الضغط لدرجة ينفجر معها شريان في المخ ، يسبب شللا قد ينجو منه الشخص جزئيا أو لا ينجو كلية ، إذ من المعلوم ان الشخص الذي ضغطه الدموي مرتفع يجب أن يلتزم الهدوء في حياته ، لأن أي هيجان يزيد في ارتفاع الضغط يعرضه لانفجار شرياني ، والسكران لا يمكنه أن يضبط عواطفه ، وبالتالي لا يمكنه أن يضمن لنفسه هذا الهدوء .

والخمر تحدث عند غير المعتود عليها احتقاناً في المعدة ، قد يسبب غثيانا أو قيئا ، وإذا كانت الجرعة كبيرة سببت التهابا في المعدة وعسر هضم يمتد إلى بضعة أيام .

ويرى بعض الأطباء أن الخمر ولو كانت قليلة جدا ، فهي ضارة بالخميرات في طول القناة الهضمية . وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيرا طبيعيا . والخمر لها تأثير في الوراثة . فقد شوهد ان أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحي الجسم ، ضعفاء البنية ناقصي العقول ، ويكون لديهم ميل إلى الإجرام ودافع إلى الشر . وأن من يبحث في كتب الطب يتولاه العجب عندما يقرأ مسببات الأمراض المختلفة . اذ يجد للخمر نصيب الأسد في ذلك .

لقد أصبحت فكرة التداوي بالخمر محض خرافة وتؤكد كونها داء بعشرات الطرق ، وأقل ما فيها ما ذكره «بتنام» في كتابه أصول الشرائع : النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله وفي الأقاليم الجنوبية يصير كالمجنون . ولعله وضح بعد هذا كيف أن كلمة الرسول لا ينقضها شيء لأنها محض الحق والصدق الذي لا تزيده الأيام إلا تثبيتا وتأكيدا .

(د) - عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « ان لكل داء دواء فإذا أصيب دواء

الداء برأ بإذن الله»، رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء» رواه البخاري. وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداؤوا ولا تتداؤوا بحرام». أخرجه أبو داود.

هذه الأحاديث تلح على أن لكل داء دواء فماذا قال الواقع؟

لقد قال الواقع ولا يزال يقول كل يوم أن ذلك حق لا مرية فيه، ففي كل يوم يكشف أهل الاختصاص دواء لداء لم يكن له دواء معروف. ولعلك تلاحظ أن العلماء مقبلون على محاولة اكتشاف دواء كل داء بروح الوثائق أنه لا بد أن يكون لكل داء دواء وإن جهلوه الآن، ولكن لا بد واجدوه. فأخذت هذه القضية مأخذ البديهية في أذهانهم، وفي ذلك كله تجد كيف أن كلمة رسول الله لا تنتقض بل هي الصدق كل الصدق.

هـ) — مما قرره علماء الظواهر الطبيعية في عصرنا أن ما ينزل سنويا من الأمطار في العالم لا يتغير مقداره بتاتا، فلا يزيد ولا ينقص ولو مقدارا بسيطا، وعللوا ذلك بأن ما تقدمه الشمس من الحرارة نسبته ثابتة. والعوامل الأخرى التي تشارك في وجود ظاهرة المطر تبقى ثابتة بالنسبة لمجموع الكرة الأرضية. فعلى هذا تكون نسبة بخار الماء في الجو سنويا ثابتة ونسبة الأمطار بالتالي لا تتغير بتاتا في كل عام، وأما ما نراه من كون المطر ينزل في منطقة واحدة بنسب مختلفة خلال سنين، فهذا لا يؤثر على جوهر القضية، لأنه ينقص في مكان على حساب زيادته في مكان آخر، فالنسبة بالنسبة للعالم كله واحدة وإن اختلفت بالنسبة لكل منطقة على حدة.

وانظر بعد هذا الذي قدمناه إلى هذا الأثر تجد أن علماء عصرنا ما زادوا على أن أكدوا مضمونه ليكون جزءا من شهادة الواقع على صدق الرسول عليه السلام والأثر هو: «ما عام بأمطر من عام».

(و) - روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس حديث دخوله وخاله بن الوليد مع رسول الله على ميمونة . ومن الحديث قال : قال صلى الله عليه وسلم : «من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزيء من الطعام والشراب إلا اللبن » .

ان هذه الحقيقة التي أشار إليها الحديث وهي كون الحليب هو الغذاء الكامل وأي غذاء آخر يبقى فيه نقص كغذاء منفرد ، أصبحت الآن تجدها في أي كتاب عن علم التغذية يصدر الآن ، وذلك بعد أن تقدمت وسائل التحليل والتجريب ، وتقدمت الإنسان دالة له على ما ينفع ويضر ، فإن النتيجة التي أوصلت إليها إنسان عصرنا في هذا الموضوع كانت متناسقة تماما مع ما أشار إليه الرسول في الحديث بشكل واضح ، وهذه الحقيقة على بساطتها تدل على كيف أن الكلمة النبوية كلها حق وصدق لا يزيد عليها مرور الأيام إلا ثباتاً .

(ز) - نشر الدكتور « جراد فنتسر » في مجلة كوسموس الألمانية مقالا تحت عنوان : الأخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب والاقتراب منها . جاء فيه :

« إن ازدياد شغف الناس بالكلاب في هذا العهد الأخير ، ينهضنا إلى لفت الأنظار للأخطار التي تنجم عن ذلك وخاصة إذا دفع اقتناؤها إلى مداعبتها وتقيلها ، والسماح لها بلحس الأيدي وتركها تعلق فضلات الطعام من أوانيها ، فكل ما ذكر مع نبوه عن الذوق السليم ، ومنافاته للآداب ، لا يتفق وقوانين الصحة فإن الأخطار التي تهدد صحة الإنسان وحياته بسبب هذا التسامح لا يستهان بها ، فإن الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعدها إلى الإنسان وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل إلى حد العدوان على حياته » .

وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجما لا يسلم من

الإصابة بهذه الديدان الشريطية .

وقد رؤي في إقليم فريزلند بهولندة حيث تستخدم الكلاب في الجر . أن في كل مائة منها ١٣ إصابة . ووجد في اسلانده شخص مصاب بهذه الآفة في كل ٤٣ شخصا من أهاليها . وشوهد أن هذه النسبة تزيد في أستراليا إذ ثبت وجود شخص في كل ٣٩ شخصا من سكانها مصاباً بها . وثبت كذلك أنها كانت سبباً مباشراً للكثير من الأمراض في الأقطار الأخرى .

ثم يقول : ومما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب ، وتعويد الأطفال التوقي منها . فلا تترك تلحق أيديهم ولا يجوز إبقاء الكلاب بمحال نزهة الأطفال ، وميادين رياضتهم ، ويجب أن لا تطعم الكلاب في الأواني المعدة لأكل الناس وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والأسواق العامة أو المطاعم . وعلى وجه عام يجب إبعادها عن كل ما له صلة بمأكل الإنسان ومشربه .

وان من كشوفات عصرنا استخراج كثير من مبيدات الجراثيم من التراب وخاصة تراب المقابر ، لأنه أكثر من غيره تلوثاً فمثلاً الستربتومايسين والتتراسكلين والنيومايسين ، وكلها من مبيدات الجراثيم استفيد من التراب في استخراجها لوجود ذيفان في جراثيمه يقضي على أنواع من الجراثيم الأخرى .
ضع ما مر كله في ذهنك واقرأ هذا الحديث :

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال : « طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أواهن بالتراب » . إنك ترى ان كشوفات عصرنا قد برهنت على صدق ما دلنا عليه الحديث .

٤ - وأخيراً : فإنه ما من كلمة قالها رسول الله إلا وكان الحق والصدق ملأها . ولكن كلام رسول الله ينقسم إلى قسمين :
١ - ما له علاقة بالغيب .

٢ - ما له علاقة بالمشهود المسحوس .

فالنوع الثاني فقط هو الذي يستطيع الإنسان أن يختبره فإذا ما ثبت صدقه فيه كان ذلك آية صدقه على الأول مع جعل الله علامات أخرى تكون دليل صدقه في أمر الغيب ، هي المعجزات والنبوءات . فرسول ثبت صدقه في كل شيء مع هذه المؤيدات فلا يبقى مجال أمام الإنسان إلا التسليم له .

ونحب أن نذكر هنا بعض الملاحظات المهمة بمناسبة كلامنا عن صفة الصدق عنده عليه السلام :

الملاحظة الأولى : ان معرفة صحة الحديث ، وتأكد ثبوته عن رسول الله . ينبغي أن يسبق دراسة المضمون . لأن كثيراً من الكلام دُسَّ عليه وقد قام العلماء بتمحيص الصحيح من كل ما روي عنه عليه السلام كما سيمر معنا في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) فلا بد من الرجوع إلى ما أثبتوه أولاً ، ليكون تحليل المضمون قائماً على أساس سليم ، وينبغي أن يتوفر هذا في كل دراسة لها علاقة برسول الله .

الملاحظة الثانية : ان بعض الألفاظ في اللغة العربية نقلت من مدلولاتها اللغوية إلى مدلولات شرعية ، فصارت تطلق على كلا المدلولين ، وقد تستعمل في القرآن وفي حديث الرسول تارة بالاستعمال الأول ، وتارة بالاستعمال الجديد ، فلا بد لدارس النص من أن يتأكد أولاً من نوعية استعمال اللفظ في النص الخاص الذي يدرسه . فمثلاً كلمة « السماء » ذكرت أحياناً في القرآن للدلالة على المعنى اللغوي وهو كل ما علا . وذكرت أحياناً للدلالة على السماء التي هي سكن الملائكة وفيها وفيها من عالم الغيب فلا بد لدارس نص فيه مثل هذا أن يعرف بواسطة القرائن أولاً المقصود الحقيقي من اللفظ في هذا المحل . وقد أخطأ كثيرون بفهم النصوص نتيجة لعدم وضوح هذا عندهم ، فعرضوا قضايا على أنها حقائق وهي ليست كذلك ، وأنكروا قضايا هي من باب الحقائق ، وهم في كلا الحالين متوهمون ، وجعلوا توهمهم من الإسلام ،

فحملوا الإسلام ما ليس منه جهلا .

الملاحظة الثالثة : ان بعض الأمور تكون نتيجة لعوامل كثيرة ، كل عامل من هذه العوامل يكون سببا من عدة أسباب مؤثرة فيه ، وفي هذه الحال . لو ذكر إنسان سببا فقط ولم يذكر الآخر لا يعني هذا انه ينفي البقية . فمثلا قد يكون الكسل نتيجة لاجتماع الحر والتعب والضجر والعادة والملل ، وقد تجتمع هذه الأسباب كلها عند إنسان ، فلو قلت لهذا الإنسان : الحر جعلك تكسل لا يعني هذا أنني أنفي الأسباب الأخرى لكسله ، وهناك كثير من القضايا ربطها الله بأسباب حسية وأسباب غيبية كالموت مثلا . فإن له سببا حسيا هو المرض ، وآخر غيبيا هو قبض الروح من قبل الملك الموكل بذلك ، وأمور كثيرة من هذا النوع : والقرآن والحديث قد يتحدثان في موقف عن السبب الحسي لقضية ، وقد يتحدثان في موقف آخر عن السبب الغيبي لها ، ولا يعني أن ذكر أحدهما في موطن نفي للثاني .

ومن هنا نجد أن كثيرين من الناس يتوهمون في فهم بعض النصوص ، فتراهم إذا قرؤا نصا يتحدث عن السبب الغيبي فقط لقضية هنا سبب حسي كذلك ، انهم ينفون السبب الحسي أو العكس في القضايا المقابلة ، وذلك جهل عظيم يقابله جهل الذين يثبتون السبب الحسي فقط ، ولا يثبتون معه السبب الغيبي الذي أخبرنا به الرسول الصادق . إن القوارع والجوائح والمصائب التي تصيب بني البشر لها أسبابها العادية : ولا يتنافى هذا مع كونها بقدره الله وإرادته إنتقاما من الناس بما صنعوا وتذكيرا لهم حتى يرجعوا . قال تعالى : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم) .

الملاحظة الرابعة : تمتلئ كتب التصوف الاسلامي بالحديث عن انكشاف بعض عوالم الغيب للناس من الصوفيين ويقولون : إن أي إنسان يفعل ما يفعلون يصل إلى مثل الذي يصلون اليه من مثل هذه المشاهدات التي تزيد في يقين الإنسان ، ويلاحظ أن من الذين يقولون مثل هذا الكلام ناسا مجمعا على توثيقهم

وسدقهم ، وهذا لا شك من جملة المؤكدات لصديق رسالة الرسول ، ولكننا نحب هنا أن نذكر بعض الضوابط لنعرف حدود ما يمكننا قبوله من هذا الكلام فنقول :

١ - إن امكانية رؤية بعض عوالم الغيب ضمن شروط معينة جائزة .
أشار اليها الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لبعض الصحابة ، فقد روى أحمد قول رسول الله لأصحابه وهو يسمع عذاب القبر : « لولا نمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتكم ما أسمع » . وقد روى مسلم قول رسول الله ﷺ لأبي بكر وحظلة : « والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حظلة ساعة وساعة ساعة وساعة ساعة وساعة » . وأخرج البخاري عن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت الفرس ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيا قريبا منها فانصرف فأخره ثم رفع رأسه إلى السماء فاذا مثل الظلة فيها امثال المصابيح فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر اليها الناس لا تتوارى منهم » . وأخرج الشيخان والترمذي عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال : « تذاك السكينة تنزلت لاقرآن » .

٢ - لكننا لا نستطيع قبول كلام يدعي صاحبه أنه رأى من مثل هذا الا بشروط منها :

أ - أن يكون ممن تقبل شهادته فالفاسق والمبتدع والضال جميع هؤلاء لا تقبل شهادتهم وكلامهم في مثل هذه القضايا .

ب - وأن يكون هذا الاطلاع كأثر من آثار التزامه بشريعة الله ، وسنة رسول الله ، فلا نقبل كلام إنسان ادعى أنه شاهد من مثل هذا باتباعه طريقاً لم

بشرعه لنا رسول الله ، لأنه بعمله فسق والفاسق لا شهادة له .

ج - وأن يكون ما اطلع عليه من عالم الغيب متفقاً مع ما أخبر عنه رسول الله في هذه القضية ، لأن رسول الله وحده الذي لا يمكن أن يكون في كلامه خطأ ، ولأن الله جعله الحجة على الناس في كل شيء ، فلا نقبل كلام إنسان ينقضه نص .

د - وألا يكون مدعاه أنه شاهد شيئاً تستحيل مشاهدته شرعاً في قوانين كوننا الحالية ، أو يرتب على مشاهدته تشريعات محدثة فمن توفرت فيه هذه الشروط وأخبرنا أنه قد حدث له من هذه الكشوفات ، فلا علينا لو قبلنا كلامه إذ لا مبرر لتكذيبه، ولم يعرف عنه إلا الصدق ، ولعل الفارق بين العقل الخرافي والعقل العلمي هو الثبوت لا الإنكار دون مبرر ، فهذا نوع من المرض العقلي يشبه المرض الآخر .

الملاحظة الخامسة : إن هناك ظواهر غيبية كثيرة تحتاج إلى تحليل ووضع لها في محلها الصحيح :

- ١ - ظاهرة الأحلام
- ٢ - ظاهرة التنويم المغناطيسي
- ٣ - ظاهرة تحضير الأرواح
- ٤ - ظاهرة الاتصال بعالم الجن .
- ٥ - ظاهرة التلبّاثي .

هذه الظواهر أخذت محلها الآن في معرض الحقائق وكل منها يدعم قضية الإيمان بعالم الغيب من زاوية من الزوايا، بصرف النظر عن تعليل هذه الظواهر، إلا أنها جميعاً تشير إلى قضية واحدة هي وجود عالم غيبي كما أخبر الرسل ، تمثل هذه الظواهر جزءاً منه .

فانكشف شيء من المستقبل البعيد للإنسان وهو في حالة النوم، ووقوعه في كثير من الأحيان حرفياً دون أن يكون في بعض الحالات تفكير مسبق عنه،

دليل على وجود علم محيط بالمستقبل ، هو غيب بالنسبة لنا .

وظاهرة التنويم المغناطيسي تدل بشكل لا يقبل الجدل ، على وجود الروح وعلى أن لها قوانينها وعالمها الخاص ، فالإنسان في حالة النوم المغناطيسي ، تكون حواسه كلها معطلة ، وحتى الأفعال الانعكاسية . كذلك تكون في حالة شلل تام ، حتى لو وخزت النائم بإبرة فإنه لا يظهر عليه أي شعور ، ومع ذلك فانك تسأله عن أشياء بعيدة عنه ، فيحدثك عنها وكأنه يراها وهو لا يعرفها في حالة اليقظة ، ولا يستطيع لو كان مستيقظاً أن يجيب على أي سؤال مما أجاب عليه وهو نائم ، فاذا استيقظ من هذا النوع من النوم فإنه لا يتذكر شيئاً مما سئل عنه وأجاب . وهذه نقول عجيبة سجلت في حالات التنويم المغناطيسي .

نقل « بيو » في كتابه : المخاطبات على التنويم المغناطيسي هذه المحاوره بين منوم ومنومة كما نقلها « شارول » قالت المنومة : هل تسمع ما يأمرني به ؟ فقال الدكتور : من هو الذي يأمرك ؟ فقالت هي الست تسمعه فقال كلا لم أسمع شيئاً ولم أر أحداً فقالت : حقيقة لأنك نائم وأنا يقظي فقال لها الدكتور : كيف ذلك أتدعين أنني نائم وأنت يقظي ، مع أنك تحت تأثير إرادتي في الحالة المغناطيسية، أنك تتوهمين أنك يقظي لكونك تكلميني ، وإنك متمتعة بنوع من الإرادة ، ولكنك في الحقيقة لا تستطيعين أن تفتحي جفنيك . فقالت : إني أكرر لك القول بأنك أنت النائم وأنا بالعكس اليقظي تماماً على مثل الحالة التي سنكون عليها جميعاً في يوم ما لأفسر لك ذلك . إن كل الذي تستطيع أن تراه أنت ليس إلا أشكالاً غليظة مادية ، فلا يمكن أن تميز إلا أشكالها الظاهرة ، ولكن جمالها الحقيقي محجوب عنك تماماً أما أنا ففي حالة وقوف وظائف أعضائي الآن وفي حالة حرية روحي من علائقها الاعتيادية، فإني أرى ما هو مستور عنك وأسمع ما لا يمكنك سماعه ، وأفهم كل ما هو غير مفهوم لديك إلى أن قالت : وإني بمجرد الإرادة أستطيع أن أسمع الأصوات البعيدة غني ولو كان

بيني وبينها مائة فرسخ . وبالاختصار فإنني لا احتاج أن تأتي الأشياء إلي أنا بل أذهب إليها حيثما كانت ، وأحكم على حقيقتها بطريقة أضبط مما يحكم بها عليها أي إنسان آخر لا يكون في الحالة التي أنا عليها .

ونقل « أكزركوف » في كتابه : المذهب الروحي وفن استحضار الأرواح ما يلي :

إن زوجة الإنجليزي الشهير « دومرجان » معتادة على تنويم امرأة وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب إلى المحل الذي تعينه لها فقالت لها يوما وهي تحت تأثير النوم المغناطيسي : إذهبي إلى منزلي القديم فقالت المتومة : قد فعلت وطرقت الباب بشدة ، قالت زوجة دومرجان : فذهبت في اليوم التالي لأتأكد من صدقها ، وسألت عما حصل في تلك اللحظة فأجابني السكان بأنهم سمعوا طرقا شديدا على الباب ، فذهبوا إليه فلم يجدوا أحدا فعلموا أن ذلك فعل الأشقياء من الأطفال .

وينقل أكزركوف كذلك حادثة أخرى لها علاقة بظاهرة تخضير الأرواح ، هي أنه كان يحضر روحا مع ثلة من إخوانه ، وكانت الواسطة امرأة شهيرة هي مدام « دسبرانس » فشهد أن الروح تجسدت من نصفها الأعلى وأن الواسطة التي هي المرأة قد فقدت أطرافها السفلى تماما . وقد فحصوا ذلك بأيديهم وأعينهم وهم في غاية الدهشة ، فلم يجدوا لأطرافها أثرا ثم لما ذهبت الروح عادت إليها أطرافها ، وقد شاهد مثل هذه الحادثة التي فيها يفنى جسد الواسطة كله أو بعضه علماء آخرون .

وظاهرة تخضير الأرواح كظاهرة التنويم المغناطيسي أصبحت منتشرة في كل مكان في العالم ، وهي تدل بمجملها على وجود عالم الغيب ، إذ الأرواح التي تخضر : قسم منها يذكر أنه أرواح بشر ، وأخرى تذكر أنها أرواح جن ، وهي كما رأيت في بعض مظاهرها ، تريك كيف أن بعض الأجسام لا ترى مع وجودها إذا كانت في حالة روحية معينة .

وأما ظاهرة التلبائي وهي الظاهرة التي تحدث لبعض الناس ، إذ يشاهدون حوادث بعيدة جداً بشكل خارق ، فهي كذلك تدل على أن في الإنسان شيئاً غير الجسد ، وأما ظاهرة الإتصال بالجن وهي ظاهرة موجودة بشكل واضح في بعض المناطق ولها خصائصها الغريبة . فهي تؤكد بشكل ما وجود عالم الجن والشياطين الذي أخبر عنه الرسل . هذه الظواهر كلها تشير وتؤكد إلى أن هناك عالم غيب ولكن هذه الظواهر كلها لا يصح أن تكون وسيلة من وسائل المعرفة وطريقاً من طرق الهداية إذ ما من واحدة منها فيها ضمان على أنها طريق سليم للمعرفة إذ يختلط بها الكذب بالصدق ، والحق بالباطل ، وروح الشيطان بروح الإنسان . وليست هناك مسؤولية محددة ، كما أن للدجل في كثير من أحوالها نصيباً . لذلك يبقى أمام الإنسان طريق وحيد مأمون لمعرفة عالم الغيب ، هو طريق الرسول المؤيد بالمعجزة من عالم الغيب ، وهي شهادة ضمان كاملة على الحق ، عدا عن كون البلاغ يأتي من مصدر ثقة مسؤول مشاهد لنا معروف ، وما دام الرسول وحده هو المصدر الوحيد للمعرفة في موضوع عالم الغيب ، فينبغي أن يعرض استخدام هذه القضايا على هديه ، ليعرف حكم الجواز أو عدمه . كما ينبغي أن يعرض ما يأتي من هديه ليعرف وجه الحق فيه ، ولا يضح أبدأ أن نعتبر أمثال هذه الطرق وسيلة من وسائل المعرفة الجازمة أو طريقاً من طرق الهداية المستقلة .

الملاحظة السادسة : إن سبب التزامنا الكامل بقول الرسول كقياس وحيد للحق ، هو أنه وحده الذي كلفنا الله باتباعه وتصديقه ، وألزمنا ذلك وأقام علينا الحجة فيه بالعلامات الكثيرة التي جعلها مؤيدة له ، وشاهد صدق عليه ، فكان هذا ضماناً لنا بأنه على الحق والصدق الذين لا شبهة فيهما ، لأن الله وحده هو المحيط علماً بكل شيء ، والمنزه عن كل خطأ ، وهذا رسوله الذي ينطق بأمره ووحيه ، فهو كذلك منزّه عن الخطأ والباطل برعاية الله وتعليمه ، وهذه شهادة الواقع تثبت أن الحق كل الحق في كل كلمة قالها رسول الله .

ذكرنا هذه الملاحظات الستة في معرض الحديث عن صفة الصدق عند رسول الله لأن الذي يصرف بعض الناس عن الإيمان شبهة لها علاقة بواحدة من هذه الملاحظات ، كذلك الذي يستبعد وجود عالم غيبي ، أو كذلك الذي أشكل عليه نص ، إما لأن النص غير صحيح النسبة لرسول الله أو لمعلم حصل الحديث على المعنى المراد أو لقصور الإطلاع وهكذا ...

وعلى كل فإن ما كتبناه هنا عن صفة الصدق لرسول الله هو مقدمة البرهان عليها . وإلا فإن هذا البحث كله بفصوله الخمسة كله برهان عليها وتأكيد لمضمونها بالشكل الذي يثلج القلب بإذن الله ببرد اليقين .
والآن ننتقل لاستعراض الصفة الأساسية الثانية للرسول وحظه الأكمل منها عليه الصلاة والسلام وهي :

٢ - التزامه الكامل بتطبيق ما يدعو اليه عليه السلام

شهدت البشرية في تاريخها الطويل انفصالا بين المثل والواقع ، بين المقال والفعال ، بين الدعوى والحقيقة ، وكان دائماً المثل والمقال والدعوى ، أكبر من الواقع والفعال والحقيقة ، وهذا شيء يعرفه من له أدنى معرفة بالتاريخ والحياة ، غير أن هذه الظاهرة تكاد تكون مفقودة في واقع اتباع الرسل المخلصين وعلى عكسها تماماً في حياة الرسل ، إذ دائماً في حياة الرسل تجدد أن واقعهم أعظم من كل تصور نظري ، فهم وحدهم الذين دعوا الإنسانية إلى أعظم قمم السمو ، ومثلوا هم بسلوكهم العملي هذه الذروة بشكل رائع مدهش عجيب ، وهذا بحمد ذاته من أدلة صدقهم . إذ الالتزام بالسمو لا تطبيقه النفس البشرية عادة ما لم تنهذب هذه النفس بدافع الخضوع لأمر الله بعد الإيمان به ، ومعرفة أمره ، ويستطيع الإنسان أن يعرف هذا بالتجربة ، إذا شاهد أحوال الكافرين ، فمثلاً قد يحاول كافر أن يقلد مسلماً في صلاته متظاهراً بالإيمان ، فإذا ما راقبت مثل هذا وجدته عملياً لا يبقى على حالة واحدة بالتطبيق ، كما أن تطبيقه يكون بسيطاً جداً ، ولو لم يكن في وضع يراه الناس فإنه لا يفعل شيئاً

أصلا ، فعندما ترى في المقابل الرسل بعبادتهم العجيبة الكثيرة لله ، مع قيامهم بأمر الله كما كلفهم على ما فيه من مشقة أو جهد ، دون تكلف بل بكامل الرضا والسعادة ، فذلك لا شك دليل صدق لا يدحض .

ولما كان الكلام هنا خاصا بالحديث عن محمد رسول الله ، وظهور هذا في حياته العملية على أعلى ما يخطر بعقل بشر ، رأينا أن نختار بعضا من الأوامر القرآنية التي وجهها الله لرسوله في قضايا متعددة لنرى كيف كان قيام رسول الله بها دليلا كاملا على أنه رسول الله ، وحرصنا أن تكون الأوامر التي ندرسها مختلفة الجوانب لنرى كيف كان يقيم رسول الله كل أمر أمر به بشكل كامل . بحيث لا يكون تنفيذه لأمر مضيقا لأمر آخر ، كما نرى عند بعض الناس ، إذ نراهم مقبلين على تنفيذ أمر الله في العبادة مثلا ، مفرطين ببقية أوامر الله وتكاليفه ، لكن رسول الله كان يقوم بكل أمر بما لا يسبق إليه ، مع إحاطته وعدم تفريطه بأي جانب من جوانب الاسلام الذي كلف به ، وأمر أن يدعو إليه ، حتى أن الدارس المنصف لحياته في هذا الجانب لا يتمالك إلا أن يشهد أنه رسول الله حقا . يقول الجليلي ملك عثمان لما بلغه أن رسول الله يدعو إلى الإسلام : (والله لقد دلني على هذا النبي الأمي انه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له وإنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفي بالعهد وينجز الموعد وأشهد أنه نبي) .

والأوامر التي اخترناها لرؤية تطبيقه العملي لها هي ما يلي :

- ١ - قوله تعالى (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) .
- ٢ - قوله تعالى (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) . (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا) .
- ٣ - قوله تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) .
- ٤ - قوله تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) .
- ٥ - قوله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم

واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) . (كونوا قوامين بالقسط) .
فلنر نماذج من تطبيقه لكل أمر من الأوامر الآتفة الذكر مع ملاحظة أن
كل أمر من أوامر الله له ، كان يقوم به على مثل هذا . بحيث لا تجد أمرا من أوامر
الله إلا وله من تنفيذه أعلى حظ يتصوره بشر لأنه أعلى لإنسان مثل العبودية لله
على الأرض .

١ - نماذج من تنفيذه للأمر الأول (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) :

أخرج الشيخان عن عائشة قالت : كان النبي يقوم من الليل (أي مصليا
لله) حتى تنفطر قدماه فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما
تقدم من ذنبك وما تأخر قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » .
وذكر المغيرة عن رسول الله مثل هذا .

وأخرج البخاري عن عائشة أن رسول الله كان يصلي إحدى عشرة ركعة
(أي في الليل) يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن
يرفع رأسه ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر ثم يضطجع على شقه الايمن حتى
يأتيه المنادي للصلاة » .

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : صليت مع النبي ليلة فلم يزل قائما
حتى هممت بأمر سوء قيل : ما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه » .
وأخرج مسلم عن حذيفة قال : صليت مع النبي ذات ليلة فافتتح البقرة
فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة (أي بالبقرة) فمضى فقلت
يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها (وهذه السور
تعدل سدس القرآن) يقرأ مترسلا اذا مر بآية فيها تسبيح سبح واذا مر بتعوذ
تعوذ ثم ركع فجعل يقول : سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحوا من قيامه
ثم قال : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ثم قام طويلا قريبا مما ركع ثم
سجد فقال : سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريبا من قيامه » .

وروى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة

(أي قيام الليل) من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة » .

وأخرج مالك والترمذي وأبو داود عن عائشة قالت : فقدته صلى الله عليه وسلم من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو ساجد يقول : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وأخرج البخاري عن أنس قال : كان رسول الله يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئاً وكان لا تشأ أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته » .

وروى الترمذي عن عائشة قالت : « كان رسول الله يتحرى صوم الإثنين والخميس » .

وروى النسائي عن ابن عباس قال : « كان رسول الله لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر » .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال : « كان رسول الله يعتكف العشر الأواخر من رمضان » .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل كله وأيقظ أهله وجدّ وشد المنزر » .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : « لم يكن النبي يصوم من شهر أكثر من شعبان فإنه كان يصوم شعبان كله وفي رواية : كان يصوم شعبان إلا قليلاً » .

وعن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله : اقرأ علي القرآن فقلت : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : إني أحب أن أسمع من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت هذه الآية : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال : حسبك فالتفت فإذا عيناه تذرفان (أي يبكي) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود ومالك .

وعن عائشة قالت : « كان رسول الله يذكر الله على كل أحيانه » .
وروى أبو داود والترمذي بإسناد حسن صحيح عن ابن عمر قال :
كنا نعد لرسول الله في المجلس الواحد مائة مرة : رب اغفر لي وتب علي
إنك أنت التواب الرحيم » .

وروى مسلم عن الأغر المزني أن رسول الله قال : « إنه ليغان على قلبي وإني
لاستغفر الله في اليوم مائة مرة . » .

وقال الحسن بن علي : سألت أبي عن دخول رسول الله (أي إلى بيته)
فقال : كان دخوله لنفسه مأذونا له في ذلك وكان إذا أوى إلى منزله جزءاً
دخوله ثلاثة أجزاء جزءاً لله وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه ثم جزءاً جزأه بينه
وبين الناس فرد ذلك على العامة بالخاصة ...

وهذه نماذج متممة لما تقدم عن مناجاته لله وذكره له في بعض أحواله :
عن جويرية زوج النبي أن رسول الله خرج من عندها بكرة حين صلى
الصبح وهي في مسجدتها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال ما زلت
على الحال التي فارقتك عليها قالت نعم ، قال : لقد قلت بعدك أربع كلمات
ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : « سبحان الله وبحمده عدد
خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا
كبر للصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ ، فقلت يا رسول الله : بأبي أنت وأمي ،
سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : أقول « اللهم نقني من خطاياي
كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسلني بالماء والثلج
والبرد » أخرجه الحمسة إلا الترمذي وهذا لفظ الشيخين .

زاد أبو داود والنسائي في أوله : « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما
باعدت بين المشرق والمغرب » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول في

سجوده : اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله ، أوله وآخره ، سره وعلايته .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن : أي يطبق ما جاء في القرآن من أمر الله) .

وفي أخرى لمسلم وأبي داود والنسائي كان يقول في ركوعه وسجوده : (سبح قدوس رب الملائكة والروح) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ركع قال : اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربي خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي وعظامي لله رب العالمين . أخرجه النسائي .

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد . أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يقول بين السجدين : اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني . أخرجه أبو داود والترمذي واللفظ له .

وعن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سجد قال : (اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله احسن الخالقين ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم يقول بعد التشهد : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة الدجال . وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (سمعت رسول الله ﷺ ليلة
حين فرغ من صلاته يقول : اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ،
وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعبي وترد بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ،
وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي ، وتعصمني بها من
كل سوء اللهم أعطني إيماناً و يقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف
كرامتك في الدنيا والآخرة . اللهم إني أنزل بك حاجتي ، وإن قصر رأيي
وضعف عملي وافتقرت إلى رحمتك ، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي
الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ،
ومن فتنة القبور اللهم ما قصر عنه رأيي ، ولم تبلغه مسألتني ولم تبلغه نيتي من
خير وعدته أحداً من خلقك أو خير أنت معطيه أحداً من عبادك ، فإني راغب
إليك فيه وأسألك برحمتك يا رب العالمين .

اللهم يا ذا الجبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة
يوم الخلود مع المقربين الشهود ، الركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك
رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد. اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا
مضلين ، سلماً لأوليائك حرباً لأعدائك ، نحب بحبك من أحبك ، ونعادي
بعداوتك من خالفك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك
التكلان . اللهم اجعل نورا في قلبي ، ونورا في قبوري ، ونورا من بين يدي ،
ونورا من خلفي ، ونورا عن يميني ، ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا
من تحتي ونورا في سمعي ونوراً في بصري ونوراً في شعري ونوراً في بشري
ونوراً في لحمي ونوراً في دمي ، ونورا في مخي ، ونورا في عظامي ، اللهم
أعظم لي نورا ، وأعطني نورا ، واجعل لي نورا سبحانه الذي تعطف العز
وقال به ، سبحانه الذي لبس المجد وتكرم به ، سبحانه الذي لا ينبغي التسبيح
إلا له سبحانه ذي الفضل والنعم. سبحانه ذي المجد والكرم سبحانه ذي الجلال
والإكرام) .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم يستغفر ثلاثا ويقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحي ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت) .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يقول إذا أمسى : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر . رب أعوذ بك من عذاب في النار ، وعذاب في القبر ، وإذا أصبح قال ذلك : أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ..)

عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا . وكفانا وآوانا فكم من لا كافي له ولا مؤوي) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه نفث في يديه وقرأ المعوذتين ، وقل هو الله أحد ، ويمسح بهما وجهه وجسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من الليل قال : لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، استغفرك لذنبي وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علما . ولا ترغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .

وعن علي رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يقول عند مضجعه : اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وبكلماتك التامات من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم اللهم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ولا ينفع ذا الجدم منك الجد . سبحانك اللهم وبحمدك) .

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله . اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نضل أو نظلم أو نظلم . أو نجهل أو يجهل علينا) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال (قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسه حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك . ومن اليقين ما تهون به علينا مضائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكثر همتنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا) .

وعن مالك (انه بلغه أن رسول الله ﷺ إذا وضع رجله في الغرز وهو يريد السفر يقول : بسم الله اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل . اللهم ازو لنا الأرض وهون علينا السفر اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنقلب ومن سوء المنظر في المال والأهل) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله ﷺ إذا قفل من السفر يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ، ثم يقول : لا إله إلا

الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ،
آيئون قائلون ، عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر
عبده ، وهزم الأحزاب وحده) .

وعن عبد الله الخطمي رضي الله عنه قال (كان رسول الله ﷺ إذا ودع
أحدًا قال : أستودع الله دينكم وأمانتكم ، وخواتيم أعمالكم) .
وله في أخرى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال (استودع الله دينك
وأمانتك وخواتيم أعمالك) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال (كان رسول الله ﷺ إذا
أقبل الليل عليه في السفر قال : يا أرض ربي وربك الله ، أعوذ بالله من شرك
وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ، ومن
الحية والعقرب . ومن ساكن البلد ووالد وما ولد) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال (كان رسول الله ﷺ يقول عند
الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله
رب السموات والأرض ورب العرش الكريم) . وعن أنس رضي الله عنه قال
(كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر يقول : يا حي يا قيوم برحمتك
أستغيث : وقال أظنوا بي إذا الجلال والإكرام) .

عن الحذري رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ إذا استجد ثوبًا
قال : اللهم لك الحمد أنت كسوتني هذا ويسمي : أسألك خيره وخير ما
صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له) .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ إذا أكل أو
شرب قال : الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين) .

وعن أنس رضي الله عنه قال (كان رسول الله ﷺ إذا دخل الحلاء
لقضاء الحاجة يقول : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي ﷺ إذا خرج من الحلاء

قال : غفرانك .

عن فاطمة بنت الحسين بن علي عن جدتها فاطمة الكبرى رضي الله عنها قالت (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : رب اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلى على محمد ﷺ وقال : رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك) .

عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال : اللهم أهله علينا باليمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربي وربك الله) .

وعن قتادة رضي الله عنه قال (انه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال : هلال خير ورشد ثلاث مرات ، آمنت بالذي خلقك ثلاث مرات ، ثم يقول : الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا) أخرجه أبو داود .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال (كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرا وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير . واجعل الموت راحة لي من كل شر) .

وعن أنس رضي الله عنه قال (كان أكثر دعاء النبي ﷺ اللهم آتنا في

الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

عن أنس رضي الله عنه قال (كان النبي ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) .

وعن أنس أيضا رضي الله عنه قال (كان النبي ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من الجذام والبرص والجنون ومن سيء الأسقام) .

وعن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال (كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع) .

وعنه رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الاخلاق) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، فقلت له في ذلك ، فقال : أخبرني ربي أنني سأرى علامة في أمي ، فاذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه . فقد رأيتها : اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

هذه نماذج من عبادته عليه الصلاة والسلام لله شكرا ، وهذا كله ولم نذكر إقامته للصلوات الخمس ولا لرواتبها، ولم نتعرض لكل ما أثر عنه من عبادة لله جل جلاله ، فهل بلغ أحد في عبادة الله وشكره ما بلغه رسول الله ، وهل يستطيع أحد أن يتصور أن هذا ممكن الوقوع والحصول بهذا الكمال والجلال ، وبهذه الكثرة والسعة وبهذا الإنسجام والتوافق مع هذه المعرفة العظيمة لله وكمالاته . لولا أن محمدا رسول الله يقوم بأمره كأعظم ما يقوم به أحد .

٢ - نماذج من تنفيذه لامر الله في المثال الثاني : « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » .
« ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » .

روى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي قال : ألهم لا عيش إلا عيش الآخرة .

وروى البخاري عن أبي ذر (رض) قال كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر فقلت لبيك يا رسول الله فقال : ما يسرنى أن عندي مثل أحد هذا ذهباً تمضي علي ثلاثة أيام وعندي منه ديناراً إلا شيء أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه .

وروى مسلم عن النعمان بن بشير (رض) قال ذكر عمر بن الخطاب (رض) ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه . الدقل : رديء التمر .

روى البخاري ومسلم عن عائشة (رض) قالت : توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي .

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب أخيه جويرية بنت الحارث أم المؤمنين (رض) قال : ما ترك رسول الله ﷺ عنده دينا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة .

وروى ابن جابر عن جابر رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأعطاه ثم أتاه آخر فسأله فوعده فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله : سئلت فأعطيت ، ثم سئلت فأعطيت ، ثم سئلت فوعدت ثم سئلت فوعدت فكان رسول الله ﷺ كرهها ، فقام عبد الله بن

حذافة السهمي رضي الله عنه فقال : أنفق يا رسول الله ولا تخشى من ذي العرش إقلال ، فقال بذلك أمرت . كذا في الكنز ج ٣ ص ٣١١ .

وأخرج البزار باسناد حسن والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ على بلال رضي الله عنه وعنده صبر من تمر فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أعد ذلك لاضيفك قال : ما تخشى أن يكون لك دخان في نار جهنم أنفق يا بلال ولا تخشى من ذي العرش إقلالا . وأخرجه أبو نعيم في الحلية ج ١ ص ١٤٩ عن عبد الله نحوه ورواه أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه باسناد حسن وكما في الترغيب ج ٢ ص ١٧٤ .

وأخرج أبو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أهديت للنبي ﷺ ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائرا . فلما كان من الغد أتته بها فقال رسول الله ﷺ ألم أنهك أن ترفعي شيئا لغد ، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد . قال الهيثمي ج ١٠ ص ٢٤١ ورجاله ثقات .

وأخرج الطبراني في الكبير - ورواته ثقات محتج بهم في الصحيح - عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وضعها عند عائشة رضي الله عنها فلما كان عند مرضه قال : يا عائشة إبعثي بالذهب إلى علي ، ثم أغمي عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مرارا ، كل ذلك يغمى على رسول الله ﷺ ويشغل عائشة رضي الله عنها ما به ، فبعث إلى علي فتصدق بها . وأمسى رسول الله ﷺ في حديد الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة رضي الله عنها بمصباح لها إلى امرأة من نساءها فقالت : أهدي لنا في مصباحنا من عكتك السمن فان رسول الله ﷺ أمسى في حديد الموت .

ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه . كذا في الترغيب ج ٢ ص ١٧٨ وعن أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : أمرني رسول الله ﷺ أن أتصدق بذهب كان عنده في مرضه . قالت : فأفارق . قال :

ما فعلت ؟ قلت : شغلني ما رأيت منك . قال : فهلما بها قال : فجاءت بها إليه سبعة أو تسعة - أبو حازم يشك - دنانير . فقال حين جاءت بها : ما ظن محمد لو لقي الله وهذه عنده وما تنفي هذه من محمد ﷺ لو لقي الله وهذه عنده ، قال الهيثمي (ج ١٠ ص ٢٤٠) : رواه أحمد بأسانيده ، ورجال أحدها رجال الصحيح .

أخرج أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير . قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وقرظ في ناحية في الغرفة . وإذا إهاب معلق فابتدرت عينايا فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب فقال : يا نبي الله ، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانة لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والانهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانة . قال : يا ابن الخطاب . أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض وفي رواية : ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض .

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : والله يا ابن أخي ان كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال : ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار . قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الاسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار وكانت لهم منايح وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينها . « متفق عليه » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات ،

وما أكل خبزاً مرققا حتى مات .

وعن خالد بن عمر العدوي قال : خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت اشدقنا فالتقطت بردة فشقتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً . رواه مسلم .

وعن جابر رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا . متفق عليه .

وعن أنس رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها . رواه مسلم .

وعن عمر رضي الله عنه قال : قسم رسول الله ﷺ قسماً فقلت : يا رسول الله لغير هؤلاء كانوا أحق به منهم؟ فقال إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش فأعطيهم أو يبخلوني ولست بباخل .

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه قال : بينما هو يسير مع النبي ﷺ مقفله من حنين فعلقه الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداه فوقف النبي ﷺ فقال : « اعطوني ردائي فلو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً . رواه البخاري . مقفله . حال رجوعه . السمرة : شجرة ، والعضاه : شجر له شوك .

وأخرج أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس والنبي ﷺ جالس فلم

يؤذن له ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبي بكر
 وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت فقال
 عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك . فقال عمر : يا رسول الله !
 لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك
 النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : هن حولي يسألنني النفقة . فقام أبو بكر
 إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ
 ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ
 بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة
 فقال : اني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ، قالت :
 وما هو ؟ قال : فتلا عليها : يا أيها النبي قل لأزواجك - الآية . قالت عائشة :
 أفيك أستأمر أبوي ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله ، واسألك أن لا تذكر
 لامرأة من نساءك ما اخترت . فقال ﷺ ان الله تعالى لم يبعثني معنفا ولكن
 بعثني معلماً ميسراً لا تسألني امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتها . وأخرجه
 مسلم والنسائي ، وعند ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
 قالت عائشة : انزلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نساءه فقال ﷺ اني ذاكر
 لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك ، قالت : وقد علم أن أبوي
 لم يكونا يأمراني بفراقه . قالت ثم قال : ان الله تبارك وتعالى قال : يا أيها
 النبي قل لأزواجك - الآيتين . قالت عائشة : فقلت : أي هذا أستأمر أبوي ؟
 فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت
 عائشة ، وأخرجه البخاري ومسلم عن عائشة مثله .

هذه الأمثلة على الزهد والإنفاق وتحمل خشونة الحياة والإقبال على الله طلباً
 لمرضاته ، وحرصاً على نيل ثوابه في اليوم الآخر وهي يسير من كثير ، تبين
 كيف قام رسول الله ﷺ بأمر الله حق القيام بحيث لا يسبق ولا يلحق ، إذ لو

رجعت إلى الأمرين اللذين ذكرنا الأمثلة على تطبيقهما . فانك لا تستطيع أن تجد أبلغ من هذا في تنفيذ أمر الله وانه لمجافاة لكل واقع بشري وتنكب عن كل حقائق النفس البشرية ، أن نتصور أن مثل هذا التطبيق والتنفيذ ، بهذا الشكل . لمثل هذه الأوامر ، يمكن أن يكون ، لولا أن صاحبه رسول الله حقاً . صغرت لديه الدنيا بما فيها وهان لديه المال بكل أنواعه لمعرفته بأن الله أعظم كل شيء ويهون في سبيله كل شيء .

٣ - نماذج من تنفيذه للأمر الثالث : « واخفض جناحك للمؤمنين »

وعاتب الله رسوله ﷺ لأنه أتاه مرة مؤمن مسلم وهو يعرض دعوة الإسلام على زعيم من زعماء المشركين فلم يقبل على المسلم تقول عائشة : أنزلت « عبس وتولى » في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : أترى بما أقول بأساً ؟ فيقول : لا فني هذا « أنزلت » أخرجه مالك والترمذي .

وآيات العتاب هي : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ...) فكيف كان رسول الله ﷺ بعد هذا العتاب وبعد ذلك الأمر في علاقته بالمؤمنين عوامهم وخواصهم ؟

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفاً ، والله ! ما كان يمتنع في غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه وما سأل سائل قط إلا أضغى إليه أذنه فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده

إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذي ينزعها منه .

وعند يعقوب بن سفيان عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صافح أو صافحه الرجل لا ينزع يده ، وإن استقبله بوجهه لا يصرفه عنه ، حتى يكون الرجل ينصرف عنه ، ولا يرى مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له . ورواه الترمذي وابن ماجه ، كما في البداية ج ٦ ص ٣٩ ..

وعند أبي داود عنه قال : ما رأيت رجلاً قط التزم أذن النبي صلى الله عليه وسلم فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه ، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذاً بيده رجل فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده .

تفرد به أبو داود كذا في البداية ج ٦ ص ٣٩ .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء قال عكرمة رضي الله عنه : أراه قال في دم ، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال : أحسنت إليك : قال الأعرابي : لا ولا أجملت ، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه ، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أن كفوا ، فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال : إنما جئنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت ، فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال : أحسنت إليك ، فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ! قال النبي ﷺ إنك جئنا فسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم ! فقال : نعم ، فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وأنا قد دعونا فأعطيناه فزعم أنه قد رضي ، كذا يا أعرابي ، فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل

وعشيرة خيراً ! فقال النبي ﷺ إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها ! فتوجه إليها وأخذ من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإني لو أطعتمكم حيث قال ما قال لدخل النار .

وأخرج الطبراني عن أبي غالب قال : قلت لأبي أمامة رضي الله عنه : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال : كان حديث رسول الله ﷺ القرآن يكثر الذكر ويقصر الخطبة ويطول الصلاة ولا يأنف ولا يستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتى يفرغ من حاجته . وإسناده حسن ، كما قال الهيثمي في (ج ٩ ص ٢٠) وأخرجه البيهقي والنسائي عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه نحوه كما في البداية ج ٦ ص ٤٥ .

وأخرج الترمذي في الشمائل (ص ٢٥) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه علي حتى ظننت أني خير القوم فقلت : يا رسول الله ! أنا خير أو أبو بكر رضي الله عنه . فقال : أبو بكر ، فقلت : يا رسول الله أنا خير أم عمر رضي الله عنه . فقال : عمر . فقلت : أنا خير أم عثمان رضي الله عنه ، فقال : عثمان فلما سألت رسول الله ﷺ فصدقني فلو ددت أني لم أكن سأله . وأخرجه الطبراني عنه نحوه وإسناده حسن كما قال الهيثمي ج ٩ ص ١٥ وقال في الصحيح : بعضه بغير سياقه .

وعند البزار والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أحد يأخذ بيده فينزعه يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله ولم يكن يرى ركبته أو ركبته خارجاً عن ركبة جليسه ولم يكن أحد يصافحه

إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه . وإسناد الطبراني حسن .

وعند أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع من يدها حتى تذهب به حيث شاءت . (رواه ابن ماجه) . وعند أحمد عنه قال : إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتطق به في حاجتها . ورواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه معلقاً كما في البداية ج ٦ ص ٣٩ ، وروى مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٢٥٦) عن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت : يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال : يا أم فلان أنظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك ! فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها . وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ص (٥٧) عن أنس مثله .

وأخرج مسلم (ج ٢ ص ٢٥٣) عن أنس رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة رضي الله عنه بيدي فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن أنساً غلام كيس فليخدمك قال : فخدمته في السفر والحضر ، والله ! ما قال لي شيء صنعته : لم صنعت هذا هكذا ولا شيء لم أصنعه : لم لم تصنع هذا هكذا ؟ وعنده أيضاً عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوماً لحاجة فقلت : والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ فخرجت حتى أمر على الصبيان وهم يلعبون في السوق فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي ! قال : فنظرت إليه وهو يضحك فقال : يا أنس إذهب حيث أمرتك ! قال : قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله ! قال أنس : والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال شيء صنعته : لم فعلت كذا وكذا ؟ ولشيء تركته : هلا فعلت كذا وكذا

وعنده أيضاً عنه قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، والله ، ما قال لي
أفأ قط ، ولا قال لي لشيء : لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا ؟

وعند أبي نعيم في الدلائل صفحة ٥٧ عن أنس رضي الله عنه قال : خدمت
رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين فما سبني سبة قط ولا ضربني ضربة ولا
انتهرني ولا عبس في وجهي ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه ، فإن
عاتبني عليه أحد من أهله قال : دعوه ! فلو قدر شيء لكان .

وأخرج البزار عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم إذا أتاه الوحي أو وعظ قلت : نذير قوم أتاها العذاب ، فإذا ذهب عنه
ذلك رأيت أطلق الناس وجهاً وأكثرهم ضحكاً وأحسنهم بشراً . قال الهيثمي
ج ٩ ص ١٧ : إسناده حسن .

وأخرج البيهقي وابن النجار عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت
عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت لها : من أنت ؟ قالت : جثامة
المزنية قال : بل أنت حنانة المزنية ، كيف أنتم ، كيف حالكم ؟ كيف كنتم
بعدنا ؟ قالت بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله فلما خرجت قلت : يا رسول الله !
تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! فقال : يا عائشة ! هذه كانت تأتينا زمان
خديجة وإن حسن العهد من الإيمان .

وأخرج البخاري في الأدب ص ١٨٨ عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال :
رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لحماً بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عضو
البعير فأتته امرأة فبسط لها رداءه . قلت من هذه ؟ قال أمه التي أرضعته .

وروى الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنهما وقد سأل أباه عن بعض
صفات رسول الله ﷺ فكان من سؤاله وجواب علي ما يلي :

قال الحسن وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟ فقال : « كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيه ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه (يجعله ضعيفاً واهياً بالمنع والزجر عنه) معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة » .

قال فسألته عن مجلسه كيف كان ؟ فقال : « كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن وينهي عن إبطائها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو لميسور من القول . قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا له أبناء عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن (تعاب) فيه الحرم . ولا تثني فلتاته (أي لا تشاع زلاته وهفواته والمراد لا فلتات في مجلسه) متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب » .

قال فسألته عن سيرته في جلسائه فقال : كان رسول الله ﷺ دائماً البشر . سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ (أي سيء الخلق) ، ولا غليظ ، ولا سخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهي . ولا يونس منه راجية ، ولا يخيب فيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجوا ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا تكلم سكتوا وإذا سكت تكلموا .

لا يتنازعون عنده الحديث ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في منطقته ومسالته حتى إن كان أصحابه ليستحبونه في المنطق (وفي الكثر ليستحبونهم) ، ويقول : إذا رأيتم صاحب حاجة فاردوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافيء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء « أو قيام » .

هذه أمثلة من مواقفه مع المؤمنين ، وتواضعه وخفض جناحه لهم ، إرجع بعد دراستها إلى الآية التي أمرته بذلك فهل تراه إلا قائماً بها حقاً وهل ترى إنساناً يبلغ عشر ما بلغه محمد ﷺ من المجد ويبقى يعامل المستضعفين والكبار والصغار والرؤساء والاتباع هذه المعاملة على سواء ؟ وهل هذا وضع طبيعي للنفس البشرية لولا أن الله هدبها وكانت مؤمنة بالله فعلاً متصلة به حقيقة طائعة له طاعة فناء ، اللهم ما كان هذا ليكون لولا أن محمداً عبدك ورسولك .

٤ (نماذج من تنفيذه للأمر الرابع : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم » .

إن خلق الرحمة عند رسول الله لا يدانيه فيه أحد من خلق الله أخرج الشيخان عن أنس أن نبي الله قال : إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فاسمع بكاء الصبي فاتجوز في صلاتي مما أعلم من وجد أمه من بكائه « ووسعت رحمته الناس حتى قال الله له : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وقد ظهرت هذه السجية على طبيعتها يوم فتح مكة إذ عفا عن أهلها بعد أن فعلوا فيه ما فعلوا كما ظهرت على سجيته بعد انتهاء غزوة بدر وأسر الأسرى ولم يكن نزل عليه من أمر الله في القضية شيء وإنما هو الاجتهاد الذي أذن فيه لرسول الله في هذه القضايا وكان أمام الرسول اقتراحان في شأن الأسرى اقتراح أبي بكر واقتراح عمر وكان اقتراح أبي بكر أخذ الفداء وإطلاق السراح . وكان اقتراح عمر القتل حتى يعلم الله أنه ليس في قلوب المسلمين رحمة بالكافرين ،

وأخذ رسول الله برأي أبي بكر لأنه أقرب لطبعه ، وهو الذي لاقى من قومه ما لاقى ثم إن الله عاتبه في هذه القضية على اللين وليس من إثم ولكن الله يريد أن يأخذ رسوله بالحزم فقال له « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يتخن في الأرض » ثم نزلت أوامر الله تطالب رسول الله بالجهاد والشدة والغلظة على الكافرين فاصبحت ترى رسول الله بعد هذه الرحمة الكبيرة والصبر الطويل والتحمل الكثير والمسألة الدائمة . المقاتل الشديد والمنفذ الذي طاعة الله فوق كل عواطفه ، بل عواطفه هي تنفيذ أمر الله ، واستعراض بسيط لحياته الحربية عليه السلام يرينا أن هذا النوع من القتال الذي خاضه عليه السلام ما كان ليكون من صنع بشر ، لولا أن هذا الإنسان ينفذ أمر الله ، معتمداً عليه ، فإنه ما من مقدمة في حياة الرسول تشير إلى مثل هذه النتائج ، لولا أن المسألة ربانية الطريق بسوء وختاماً ، أسلوباً وتنفيذاً . رب يأمر وعبد رسول ينفذ :

يؤمر ألا يخشى شيئاً فلا يخاف إلا الله ويؤمر بأن يتوكل على الله ويعتمد عليه وحده فيدخل أي معركة بما يتوفر له من قوة دون خوف من أي حشد يقابله ، ويؤمر ألا يكون في قلبه رحمة بالكافرين فيضرب حتى يستأصل ، ويؤمر بمتابعة القتال فيقاتل ولما يسترح ، ويؤمر بالعمل المتواصل حتى يخضع أعداء الله فلا يكاد ينتهي من تهيئة زوة إلا إلى غيرها ، ومن إخضاع منطقة إلا إلى منطقة أخرى . وهكذا حتى يضع اتباعه على الطريق لإخضاع العالم بعده لسلطان الله .

كان عدد أصحابه يوم بدر ثلاث مائة وخمسة عشر رجلاً ، وعدد المشركين حوالي ثلاثة أضعاف تفوقهم بالعدة ويدخل الرسول ﷺ المعركة وينتصر بها ولا يعتمد إلا على الله .

روى مسلم وأبو داود والترمذي عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : خرج رسول الله ﷺ قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة . ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه . فلما أدركه قال

لرسول الله ﷺ جئت لأتبعك وأصيب معك فقال ﷺ تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : لا . قال فارجع فلن أستعين بمشرك . قالت : ثم مضى حتى إذا كان بالشجرة أدركه الرجل فقال : كما قال أول مرة . فقال له ﷺ كما قال أول مرة قال فارجع فلن أستعين بمشرك . ثم رجع فأدركه بالبيداء . فقال له كما قال أول مرة . وقال : هل تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم . قال : فانطلق . فانطلق معه

وروى مسلم عن أبي الطفيل (رض) قال : قال حذيفة بن اليمان (رض) ما منعني أن أشهد بدرأ إلا أنني خرجت أنا وأبي الحسيل فأخذنا كفار قريش فقالوا انكم تريدون محمداً فقلنا : ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه أن لا نقاتل معه فلما أتينا المدينة ذكر ذلك له ﷺ فقال : انصرفا نفي لهم ونستعين بالله تعالى عليهم .

وأخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس (رض) قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة (رض) عري في عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا قال : وجدناه بحراً أو إنه لبحر وكان فرساً يبطن . وأخرج البخاري عن أبي اسحاق : سمع البراء بن عازب (رض) وسأله رجل من قيس أفررتم عن رسول الله يوم حنين فقال : لكن رسول الله لم يفرر .

والمعروف أن رسول الله ثبت يوم حنين بعشرة من أصحابه أدار بهم المعركة التي فر فيها اثنا عشر ألفاً ثم كان النصر بعد الهزيمة وفي غزوة أحد كان المشركون أضعاف المسلمين ودخل الرسول ﷺ المعركة وفشل المعركة بعض المتسرعين الذين لم يلتزموا خطة رسول الله ﷺ وأصيب المسلمون يومها إصابات كثيرة وانفصل الجيشان ورجع كل إلى بلده ولكن رسول الله ﷺ ما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر من دخل المعركة بالجهاز السريع فخرجوا بجراحهم وآلامهم وساروا وراء قريش فبلغ قريشاً الخبر ففرت وتحولت الهزيمة إلى انتصار وأكثر

من هذا فقد قطع على قريش خط الرجعة إذ فكروا وهم عائدون ان يسرجعوا إلى المدينة ليدخلوها فاتحين مستأصلين لحدور الإسلام . مع ملاحظة أن رسول الله بقي يقاتل يوم أحد حتى كف المشركون أنفسهم عن القتال ولم يفر رسول الله ﷺ أبداً .

وفي غزوة الأحزاب تجمعت الجزيرة العربية كلها لحرب رسول الله ﷺ ونقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ وأصبح المسلمون في وضع لا يطيقه أحد من البشر يتهددهم الخطر من جوانب لا تعد وثبت رسول الله ﷺ حتى انسحبت الأحزاب ولم يتمهل رسول الله ﷺ بعد انسحابهم حتى سار إلى قريظة لتأديب هؤلاء الناكثين للعهد فحاصروهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم بالجاهلية فأخذ سعد العهد عليهم وعلى رسول الله ﷺ بأن يلتزموا بحكمه فأعطوه فحكم سعد أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذرايرهم فقتل رسول الله ﷺ منهم في يوم واحد أربعمائة رجل صبراً . وهاجم الدولة الرومانية وهي يومها من هي وقوته لم تبلغ إلا قليلا مما فتح لأصحابه بعد ذلك أن يدخلوا معاركهم مع الدولة الرومانية والدولة الفارسية بأن واحد على قلة في العدة والعدد وانتصروا بتلك الشعلة التي أشعلها بهم الله على يد رسوله ﷺ وبكفي أن تعلم أن رسول الله ﷺ غزا بنفسه كما يروي مسلم تسع عشرة غزوة هذا عدا عن السرايا والبعوث الحربية التي كان يرسلها. هذا مع أن بقاءه في المدينة كانت مدتها كلها عشر سنوات .

والحديث عن غزواته طويل جداً نجده مفصلاً في كتب السيرة . ويكفي أن نذكر أن من آثارها توحيد الجزيرة العربية كلها ، بيمناها وحجازها ونجدها وسواحلها ، حتى لم يبق فيها شبر لم يخضع لسلطان الله ، وفتح لأتباعه طريق العمل العالمي . من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا . ونحن هنا لا نريد التفصيل وإنما نريد فقط إبراز ما به يظهر التطبيق الكامل لما أمر به رسول الله وهو بالتالي ما دعا إليه فكان في كل شيء لا تخالف أعماله دعوته .

(٥) - نماذج من تطبيقه للأوامر في المثال الخامس : « كونوا قوامين بالقسط » . « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم » .

أخرج البخاري عن عروة أن امرأة سرق في عهد رسول الله في غزوة الفتح ففرع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله وقال : أتكلمني في حد من حدود الله تعالى ؟ فقال أسامة استغفر لي يا رسول الله فلما كان العشي قام رسول الله خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإنما هلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر رسول الله بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت قالت عائشة : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله .

وأخرج أبو داود عن العرباض بن سارية السلمي قال :

نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً فأقبل إلى النبي فقال يا محمد ألكم أن تذبجوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول الله وقال يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد أن الجنة لا تحل إلا للمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قام فقال : أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن إلا إني والله لقد وعظت وأمرت ونهييت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نساءهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن حدرد الأسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدي عليه فقال يا محمد : إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها قال إعطه حقه قال : والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها قال إعطه حقه

قال والذي نفسي بيده ما أقدر عليها قد أخبر أنك تبعثنا إلى خير فارجو أن
تغنمنا شيئاً فارجع فأقضيه : قال : إعطه حقه وكان رسول الله إذا قال ثلاثاً لم
يراجع فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصا به وهو متزر ببردة
فنزعه عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال إشتري مني هذه البردة فباعها منه
بأربعة دراهم فمرت عجوز فقالت ما لك يا صاحب رسول الله فأخبرها فقالت
ها دونك هذا البرد لبرد عليها طرخته عليه وأخرجه أحمد أيضاً .

وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد قال : جاء اعرابي إلى النبي يتقاضاه ديناً
كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك الا قضيتني ، فانتهره أصحابه
فقالوا ويحك تدري من تكلم ؟ فقال : إني أطلب حقي فقال النبي هلا مع صاحب
الحق كنتم ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها : إن كان عندك تمر فاقرضينا
حتى يأتينا تمر فنقضيك فقالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فاقرضه
فقضى الأعرابي وأطعمه فقال : أوفيت أوفى الله لك فقال : أولئك خيار الناس
إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متمتع .

وأخرج ابو داوود عن أسيد بن حضير : أن رجلاً من الأنصار كان فيه
مزاح فبينما هو يحدث القوم ويضحكهم إذ طعنه النبي في خاصرته بعود كان في
يده فقال : إصبرني يا رسول الله (أي مكني من نفسك لأقتص منك) قال :
اصطبر فقال : إن عليك قميصاً وليس علي قميص فرفع النبي قميصه فاحتضنه
وجعل يقبل كشحه (الكشح ما فوق شدة الازار من جانب البطن) وقال إنما
أردت هذا يا رسول الله .

أخرج الطبراني عن عبدالله بن سلام باسناد رجاله ثقات قال :

لما أراد الله هدي زيد بن سعة قال زيد بن سعة ما من علامات النبوة شيء
إلا وقد عرفتها في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق
حلمه جهله ولا تزیده شدة الجهل عليه إلا حلماً قال : زيد بن سعة : فخرج
رسول الله يوماً من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب فأتاه رجل على راحلته

كالبدوي فقال : يا رسول الله ! لي نفر في قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في
 الإسلام وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً وقد أصابتهم سنة وشدة
 وقحط من الغيث فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما
 دخلوا فيه طمعاً فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تغيثهم به فعلت فنظر إلى رجل
 بجانبه أراه علياً فقال : يا رسول الله ما بقي منه شيء قال زيد بن سعة فدنوت
 إليه فقلت يا محمد هل لك أن تبيعني تمرأ معلوماً في حائط بني فلان إلى أجل
 معلوم إلى أجل كذا وكذا قال لا تسمي حائط بني فلان قلت : نعم فبايعني
 فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا
 فأعطاني الرجل وقال (يظهر أنها فأعطاه الرجل) : أعدل عليهم وأغثهم قال
 زيد بن سعة فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله ومعه
 أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه فلما صلى على الجنازة ودنا إلى الجدار
 ليجلس إليه أتته فأخذته بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ قلت
 له : يا محمد ألا تقضيني حقي فوالله ما علمتم بني عبد المطلب إلا مطلاً ولقد كان
 بمخالطتكم علم . ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير
 ثم رماني ببصره فقال : يا عدو الله أقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ وتصنع به
 ما أرى ؟ فوالذي نفسي بيده لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك ورسول
 الله ﷺ ينظر إلي في سكون وتؤدة . فقال يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا
 أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباعه ، إذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده
 عشرين صاعاً من تمر مكان ما رعته . قال زيد فذهب بي عمر فأعطاني حقي
 وزادني عشرين صاعاً من تمر . فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ! قال أمرني
 رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك وقال : وتعرفني يا عمر ؟ قال : لا .
 قلت : أنا زيد بن سعة . قال : الخبر . قلت : الخبر . قال فما دعاك إلى أن
 فعلت برسول الله ما فعلت ؟ وقلت له : ما قلت ؟ قلت : يا عمر ! لم يكن من
 علامات النبوة شيئاً إلا وقد عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا
 اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً

وقد أختبرتهما ، أشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وأشهدك أن شطر مالي - فأني أكثرها مالا - صدقة على أمة محمد ﷺ قال عمر : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم ، قلت أو على بعضهم . فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وآمن به وصدقه وبايعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة ، ثم توفي في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر - رحم الله زيدا .

من هذه الآثار يتبين كيف قام رسول الله بالقسط ، وأقامه على نفسه وأتباعه وأصحابه بلا مخاباة ولا مداراة ولا مDAHنة ، فكان في ذلك في القمة التي لا يرقى إليها راق في تنفيذ أمر الله وتطبيقه .

هذه نماذج رأينا فيها خمسة أوامر لله ورأينا كيف أن رسول الله قام بها بالشكل الذي لا يبقى معه مزيد لمستزيد ، وهذا الذي رأيناه هنا هو الذي نراه في كل أمر أمر الله به عباده حتى أن عائشة لما وصفت خلق رسول الله قالت « كان خلقه القرآن » وهذا واقع لا يعرفه حق المعرفة إلا من درس القرآن ودرس معه سيرة رسول الله تفصيلاً ، فإنه يرى بوضوح أنه ما من أمر وجهه الله لخلقه إلا وكان رسول الله أعظم الخلق تنفيذاً له وتطبيقاً ، بلا تفريط بأمر من أوامر الله وأي أمر من أوامر الله درست تنفيذ رسول الله له ذلك هذا التنفيذ على أن محمداً رسول الله ، وقد رأيت في الأمثلة الماضية هذه النماذج العالية من الالتزام الرائع الذي يجعلك كل موقف من مواقفه تستبعد وقوعه من غير رسول ، أو تابع رسول يقتدي به ، وهذه الصفة التي مرت معنا هي التي يسميها علماء المسلمين الأمانة ، إذ الأمانة عندهم تعني القيام بما كلف الله به عباده أخذاً من قوله تعالى :

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال . فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » فالأمانة هي التكليف وحملها هو إقامة ما كلف الله به عباده والرسول هم قدوة البشر في القيام بأمر الله

فلا بد أن يكونوا أكثر الخلق أمانة أي التزاماً صادقاً بما يدعون الخلق إليه نيابة عن الله ، ووجود هذا الالتزام مع بقية شروط الرسالة ، دليل من جملة الأدلة التي تثبت أن هذا الملتزم بما يدعو إليه الخلق من فضائل هو رسول الله رب العالمين .

والآن وقد وضح أن لرسول الله الحظ الأعلى من الصفة الثانية التي ينبغي أن يتصف بها كل من كان رسولا لله حقاً ، فلننتقل إلى الصفة الأساسية الثالثة لكل رسول وهي تبليغ دعوة الله مهما كانت الظروف ، لنرى كذلك أن لرسول الله الحظ الأعلى منها ، ونرى في كل موقف من مواقفه فيها ما يثبت أنه رسول الله حقاً :

٣ - تبليغه عليه السلام دعوة الله وقيامه بذلك كاملاً

لقد سلك رسول الله كل طريق سليم لتبليغ دعوة الله على الوجه الأكمل ، وسلك الناس في المقابل كل طريق يخطر بالبال ليشنوه عن القيام بأمر الله فلم يفعل :

إتصل بالافراد إتصالاً شخصياً ، وعرض نفسه على قبائل العرب ورحل من أجل تبليغ الدعوة وتتبع مواطن اجتماع الناس ليبلغهم . وأرسل الرسل نيابة عنه لتبليغ الدعوة واستقدم الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين . وراسل الأمراء والملوك داعياً لهم إلى الله وكلف أصحابه أن يتعلموا ويألموا ويعلموا وأمر جنده ألا يحاربوا قبل أن يدعوا إلى الإسلام ، ثم حمل جميع المسلمين أمانة البلاغ ليبلغوا العالم دعوة الله . حتى لا يبقى أحد من البشر إلا وقد بلغ ، وقامت عليه الحجة ، وفي المقابل ما ترك الآخرون طريقاً إلا سلكوه لإنهاء الدعوة والداعية .

سلكوا طريق الإيذاء له ولأتباعه ليشنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الإغراء ليشنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الضغط العائلي ليشنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الاستهزاء والإعراض والسخرية والافتراءات ليشنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا معه طريق المقاطعة الشاملة له ولمن آزره ليشنوه

عن التبليغ فما فعل . وقرروا قتله وملاحقته ليثبته عن التبليغ فما فعل . وطال
الزمن والمستجيبون قليلون ، والجميع يحاولون إثباته واستمر ، ثم حاربوه
ليستأصلوا دعوته ويستأصلوه وصبر واستمر رغم هذا كله ، ثم انتصر وانتصر
دينه ولا زال ينتصر ويتقدم رغم الأوضاع السياسية السيئة للمسلمين ، وكل ذلك
ببركات الداعية المبلغ الأول .

وقبل أن نستعرض نماذج عن هذا كله . نحب أن نؤكد التذكير بشيء حتى
لا يلهينا العرض عن الغاية .

منه هذا الشيء هو : أن إثباتنا هذه الصفات لرسول الله وبرهاننا على ذلك ،
كل هذا من أجل الوصول إلى برد اليقين بالإيمان به . وإتباعه عن ثقة بأنه
لا حق إلا ما أخبرنا أنه حق : فمن عرفته بالصدق طوال حياته وتأكدت من
تخبره له تطمئن إذا أخبرك عن شيء . والرسول كذلك ، وقيام الرسول
بتكاليف دعونه على ما فيها من مخالفة لهوى النفس ومن جهد ونصب دون
انتظار مكافأة ما في الحياة الدنيا طاعة لله ، دليل آخر على رسالته إذ غير
هذا الطريق لطالب غير الله أسهل .

وأما عملية التبليغ فليست هي عند الرسل كبقية عمليات التبليغ الأخرى التي
يقوم بها بقية البشر ، في الدعوة لفكرة ما ، ومن ثم كانت عملية التبليغ عند
الرسل دليلاً على صدقهم في كونهم مرسلين من عند الله .

إن غير الرسل يدعون الناس إلى شيء تألفه نفوسهم وتهواه . أي أنهم
يأتون الناس من قبل ما يشتهون فلا يعانون شيئاً ولا يحتاجون إلى تضحية ، وأحياناً
يضحون ولكن ينتظرون كسباً مادياً أكثر من تضحيتهم . وتراهم دائماً
يلاحظون السلامة إلا إذا أتاها ما لم يكن بالحسبان . وترى الحياة عزيزة جداً
عليهم وما أسهل ما ينسون دعوتهم إذا ينسوا من الكسب أو النصر . ونحن لانعني
بالطبع هنا أتباع الرسل إذ هؤلاء يعملون بروح الاقتداء بالرسول فعندهم من
حرارة إخلاصهم ان حماية النفس مقدمة عند أصحاب الدعوات الباطلة على
التبليغ ولكن التبليغ عند الرسل للدعوة الحق مقدم على كل شيء .

إن الرسل يبلغون الناس رسالة الله التي فيها ضبط نفوس البشر . حتى تستقر على السنن الصحيح للحياة ، وهم بهذا يدخلون في صراع مع أمـواء البشر ، ولكل إنسان هوى ، فهم يدخلون في صراع مع الناس جديعاً . والصعوبة التي يعانونها من أعدائهم يعانون قريباً منها في تربية أتباعهم والارتفاع بهم إذ البشر هم البشر على كل حال ، وتجاوز الرسول لهذه العقبات كلها ، وثباته على دعوة الحق بلا مداراة ولا موارد بل مطالبة للنفس البشرية بواجباتها كاملة ، وصبره على ذلك ، وتحمله كل شيء في هذا السبيل مرضاة لله . كل هذا دليل على حرارة الصدق والإخلاص للدعوة ولله المكلف بها . وسنرى في كل نموذج نقدمه عن عملية التبليغ عند رسول الله وما رافقه شاهد صدق على هذا السبيل قدمناه .

وسنقدم نوعين من النماذج :

- ١ - نماذج عن مواقف الكافرين منه ليشنوه عن الاستمرار بالتبليغ .
- ٢ - نماذج عن الطرق التي سلكها للقيام بعملية التبليغ .

نماذج النوع الأول :

أ - ايذاؤه وصبره على ذلك

١ - أخرج الطبراني عن الحارث بن الحارث قال قلت لأبي : ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابيء لهم . قال : فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو إلى توحيد الله عز وجل والإيمان وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه اقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحاً ومنديلاً فتناوله منها فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال : يا بنيئة خمري عليك نحرى ولا تخافين على أبىك . قلنا من هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته . رضي الله عنها .

وعنده أيضاً عن منبث الأزدي قال : رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا . فمنهم من تفل في وجهه ومنهم من حثا عليه التراب ومنهم من سبه حتى انتصف النهار . فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال : يا بنية لا تخشي على أبيك غيلة ولا ذلة . فقلت : من هذه ؟ قالوا : زينب بنت رسول الله ﷺ وهي جارية وضيئة .

٢ - وأخرج البيهقي عن عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما قال : لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفينة من سفهاء قريش فألقى عليه تراباً فرجع إلى بيته ، فأنت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي فجعل يقول : أي بنية ! لا تبكين فإن الله مانع أباك .

٣ - وعن ابن أبي شيبه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : مارأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوماً ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله ﷺ يصلي عند المقام . فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداه في عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبته ساقطاً وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول فأقبل أبو بكر رضي الله عنه يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه ويقول « أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » .

ثم انصرفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم . فقام رسول الله ﷺ فصلى . فلما قضى صلاته مر بهم - وهم جلوس في ظل الكعبة - فقال : يا معشر قريش ! أما والذي نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح وأشار بيده إلى حلقه . فقال أبو جهل : ما كنت جهولاً . فقال له رسول الله ﷺ أنت منهم .

٤ - وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال :

قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته .

قال : حضرتهم - وقد اجتمع اشرافهم في الحجر - فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا وسب آلهتنا . لقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا - قال فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استقبل الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت . فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول .

(غمزوه : أي أشاروا إليه) قال : فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى . فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى . فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال :

أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده ! لقد جثتكم بالذبح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم فيه وضاعة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول :
إنصرف يا أبا القاسم ، انصرف راشداً ، فوالله ما كنت جهولاً .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر - وأنا معهم - فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فأطافوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، قال فيقول رسول الله ﷺ : نعم . أنا الذي أقول ذلك . قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه وقام أبو بكر رضي الله عنه دونه يقول وهو يبكي : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط .

ه - وأخرج البزار والطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :
بينما رسول الله ﷺ في المسجد وأبو جهل بن هشام وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف ورجلان آخران كانوا سبعة وهم في الحجر ورسول الله ﷺ يصلي فلما سجد أطال السجود .

فقال أبو جهل : أيكم يأتي جزور بني فلان فيأتينا بفرثها فنكفئه على محمد صلى الله عليه وسلم فانطلق أشقاهم عقبة بن أبي معيط فأتى به فألقاه على كتفيه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد . قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندي منعة تمنعني فأنا أذهب ، إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلت حتى ألقيت عن عاتقه ثم استقبلت قريشاً نسبهم فلم يرجعوا إليها شيئاً ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود . فلما قضى صلى الله عليه وسلم صلاته قال :

اللهم عليك بقريش - ثلاثاً - عليك بعتبة وعقبة وأبي جهل وشيبة . ثم خرج من المسجد فلقبه أبو البختری بسوط يتخصر به ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم عليه أنكر وجهه فقال : مالك ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم خل عني .

قال : علم الله لا أخلي عنك أو تخبرني ما شأنك ؟ فلقد أصابك شيء . فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أنه غير مخل عنه أخبره فقال : إن أبا جهل أمر فطرح علي فرث فقال أبو البختری : هلم إلى المسجد فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو البختری فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البختری إلى أبي جهل فقال : يا أبا الحكم أنت الذي أمرت بمحمد صلى الله عليه وسلم فطرح عليه الفرث ؟ قال نعم :

قال : فرفع السوط فضرب به رأسه .

قال : فثار الرجال بعضها على بعض .

قال : وصاح أبو جهل ويحكم هي له إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم أن يلقي العداوة بيننا وينجو هو وأصحابه .

٦ - وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة ص ١٠٣ : عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال : ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف وهم إخوة : عبد ياليل بن عمرو ، وخبيب بن عمرو ، ومسعود بن عمرو . فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم البلاء وما انتهك قومه منه فقال أحدهم : أنا أسرق

ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط ؟

وقال آخر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبداً لأن كنت رسولا لأنك أعظم شرفاً وحقاً من أن أكلمك .

وقال الآخر : أعجز الله أن يرسل غيرك ؟

وأفشوا ذلك في ثقيف الذي قال لهم ، واجتمعوا يستهزؤون برسول الله ﷺ وقعدوا له صفين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضحوها بالحجارة وهم في ذلك يستهزئون ويسخرون . فلما خلص من صفيهم وقدماه تسيلان الدماء عمد إلى حائط من كرومهم ، فأتى ظل حبله من الكرم فجلس في أصلها مكروباً موجعاً تسيل قدماه الدماء فإذا في الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما أبصرهما كره أن يأتيهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله وبه الذي به فأرسلا إليه غلامهما عداساً بعنب وهو نصراني من أهل نينوى .

فلما أتاه وضع العنب بين يديه فقال رسول الله ﷺ : « بسم الله » فعجب عداس ، فقال له رسول الله ﷺ من أي أرض أنت ؟ يا عداس . قال أنا من أهل نينوى .

فقال النبي ﷺ : من أهل مدينة الرجل الصالح يونس بن متى ؟

فقال عداس : وما يدريك من يونس بن متى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس ما عرف ، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً يبلغه رسالات الله تعالى .

قال : يا رسول الله أخبرني خبر يونس بن متى ، فلما أخبره رسول الله

ﷺ من شأن يونس بن متى ما أوحى إليه من شأنه خر ساجداً لرسول الله ﷺ ثم جعل يقبل قدميه وهما تسيلان الدماء .

فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما سكتا . فلما أتاهما قالاه : ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه ولم ترك فعلت هذا بأحد منا .

قال : هذا رجل صالح حدثني عن أشياء عرفتھا من شأن رسول بعثه الله تعالى إلینا يدعی یونس بن متى ، فأخبرني أنه رسول الله ، فضحكا وقالا : لا یفتنک عن نصرائیک ، إنه رجل یخدع ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة . وذكر في البداية (ج ٣ ص ١٣٦) عن موسى بن عقبة : وقعد له أهل الطائف صنفین علی طریقہ ، فلما مر جعلوا لا یرفع رجلیہ ولا یضعهما الا رضخوهما بالحجارة حتی أدموه فخلص منهم وهما یسیلان الدماء . وفيما ذکر ابن إسحاق : فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد یش من خیر ثقیف وقد قال لهم - فیما ذکر لي - إن فعلتم ما فعلتم فاکتموا علي وكره رسول الله ﷺ أن یبلغ قومه عنه فیدثرهم ذلك علیه . فلم یفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم یسبونه ویضحون به حتی اجتمع علیه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فیہ . ورجع عنه من سفهاء ثقیف من كان یتبعه ، فعمد إلى ظل حبله من عنب فجلس فیہ وابنا ربيعة ینظران إلیه ویریان ما یلقى من سفهاء أهل الطائف .

من هذه القصص قصص الإيذاء الرهيب نعرف ما لاقى وهو الشريف الهاشمي ذو النفس الحساسة ، ابن الاشراف ومع ذلك تحمل واستمر وليس بيده ألا يستمر، وكما أودى هو أودى أتباعه كذلك وقتل بعضهم ... ومع ذلك صبروا وأمرهم بالصبر وهذا شيء یجرح الضمير أن یرى الإنسان الناس یعذبون بسبب دعوته لولا أن ذلك هو الحق الذي لا ريب فیہ وأن الإنسان ليس بخیراً فی سلوكه بل هو الذي لا بد منه للقیام بحق الله وإنها لرسالة الله .

ب - محاولة إغرائه ورفضه لذلك

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي ، قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي

قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، وكيف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد . قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي : إنك منا حيث قد علمت ، من السطة في العشيرة (السطة : الشرف) والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آباؤهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا وليد ، أسمع ، قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال له : حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال :

أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ،

قال : فاسمع مني .

قال : لأفعل ..

فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً . فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة

أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورأيي اني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ...

وقال ابن اسحاق : اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان ابن حرب ، والنضر بن الحارث (بن كلدة) اخو بني عبد الدار ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمие بن خلف ، أو من اجتمع منهم ، قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه ، حتى تعذروا فيه ، فبعثوا اليه :

إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم ،

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدأ ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعز عليه عتتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً

من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ،
وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فدا
بقي أمر قبيح إلا قد جثته فيما بيننا وبينك .

أو كما قالوا له : فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك
من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ،
فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا
الذي يأتيك رؤيا تراه قد غلب عليك ، — وكانوا يسمون التابع من الجن رؤيا —
فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو
نعذر فيه ،

فقال لهم رسول الله ﷺ ما بي ما تقولون ، ما جثت بما جثتكم به
أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني
إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا .
فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جثتكم به فهو
حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله
بيني وبينكم ، أو كما قال ﷺ . قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا
شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ،
ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ،
فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها
أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضي من آبائنا ، وليكن فيمن
يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فانه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول :
أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به
منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جثتكم من
الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم

في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى . حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك . سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول . ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بهذا عما تراك تبتغي ، فانك تقوم بالأسواق كما تقوم . وتلتبس المعاش كما تلتبسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، أو كما قال ، فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً . كما زعمت . إن شاء ربك فعل . فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

قال : فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله . إن شاء أن يفعله بكم فعل ، قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم اليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك ، أو تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخروم — وهو ابن عمته —، فهو لعائلة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول

ويصدقوك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوكم أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلتكم عليهم ومنزلتكم من الله فلم تفعل ثم سألوكم أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، أو كما قال له : فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر اليك حتى تأتيها ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنني أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا آسفا لما فاتته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى من مبادئهم إياه .

قارن بين الصورتين : إضطهاد بدون حدود ، واغراء إلى هذا المستوى ، ولا خيار . خذ ما تريد واترك ما أنت عليه أو تضطهد هذا الاضطهاد المر . ومحمد ﷺ في الحالتين هو هو لا الاضطهاد يؤثر في صده عن عملية التبليغ ولا الإغراء يثنيه . وفي موقفه في كلا الحالتين شهادة على أنه رسول الله حقا وأنه صاحب دعوة هداية أولا وآخرها .

جـ - محاولتهم أن يضغظوا عليه عائليا

أخرج الطبراني في الأوسط والكبير عن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قال : جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك يأتينا في أفئتنا وفي نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به ، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل ، فقال لي : يا عقيل . التمس لي ابن عمك ، فاخرجته من كبس (أي بيت صغير من أكباس أبي طالب) . فأقبل يمشي معي يطلب الفياء يمشي فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى إلى أبي طالب . فقال له أبو طالب : يا ابن أخي : والله ! ما علمت ان كنت لي لمطاعا وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهم تسمعهم ما يؤذيهم ، فإن رأيت أن تكف عنهم . فحلقت ببصره إلى السماء فقال : والله ! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم

من هذه الشمس شعلة من نار . فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخي قط .
ارجعوا راشدين .

قال الهيثمي (ج ٦ ص ١٤) : رواه الطبراني وأبو يعلى باختصار يسير من
أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح ، انتهى وأخرجه البخاري في التاريخ
بنحوه كما في البداية (ج ٣ ص ٤٢) .

وعند البيهقي أن أبا طالب قال له ﷺ يا ابن أخي ان قومك قد جاؤني
وقالوا كذا وكذا فابق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا
ولا أنت فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه وضعف عن
القيام معه . فقال رسول الله ﷺ يا عم : لو وضعت الشمس في يميني والقمر
في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه ، ثم استعبر
رسول الله ﷺ فبكى . فلما ولى قال له : حين رأى ما بلغ برسول الله ﷺ
يا ابن أخي فأقبل عليه فقال : إمض على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا
أسلمك نشيء أبداً — كذا في البداية (ج ٣ ص ٤٢) .

والذي يعرف عادة العرب في احترام الاكابر منهم وطاعتهم لأمرائهم
ومشايع بيوتهم يدرك مدى الأثر الكبير الذي يحدته تدخل أبي طالب شيخ
بني هاشم نتيجة ضغط قومه عليه . ومحمد ﷺ الحيي الحجول المذهب ما كان
ليخالف أمر عمه ورغبته لو كانت المسألة مسألة شخصية ولكن الأمر أكبر من
ذلك . إنه أمر الله الذي هو أكبر من كل عرف ومن كل اعتبار ومن كل ضغط .
وفي ذلك شهادة كاملة لمن عرف عادات القبائل العربية على ان محمدا رسول
الله ﷺ .

د — سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والاعراض والانتهاكات

من سيرة ابن هشام ننقل هذه المقاطع :
— ثم ان الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ،

وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، انه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكم فية ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه ، وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق (النخلة) وان فرعه لحناة — قال ابن هشام ، ويقال لغدق (الغدق : الماء الكثير) وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وأن اقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره .

وقال ابن اسحاق :

ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله ﷺ سفاههم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به ، مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

— وقال ابن اسحاق :

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، ومن كان يؤذي رسول الله وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهل لي ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني .

— وقال :

فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب ، حين سألوهم عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا ، وبلجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » أي اجعلوه لغوا وباطلا واتخذوه هزوا ، لعلكم تغلبونه بذلك ، فانكم ان ناظرتموه او خاصمتموه يوما غلبكم .

— وقال : فقال أبو جهل يوما هو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق : يا معشر قريش ، يزعم محمد انما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشرة ، وأنتم أكثر الناس عددا ، وكثرة ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا » ... إلى آخر القصة .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي فيتفرقون عنه ، ويأبون أن يسمعوا له ، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي ، استرق السمع دونهم ، فرقا منهم ، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يسمع منه ، ذهب

خشية أذاهم ، فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته ، فظن الذي يستمع أنهم يستمعون شيئاً من قراءته وسمع هو شيئاً دونهم ، أصاخ له يستمع منه .

تصور حرب الدعاية الفظيعة التي لجأوا إليها ، وهم قريش موطن ثقة العرب ، والذين تأتيهم العرب سنوياً للحج ، وهم يشوهون اسمه عاماً بعد عام ، ويحاولون أن يحاربوه بكل سلاح من أسلحة القول ، والعربي نفسه لا تسمح أبداً أن يقف موقف المتهم ، ومع ذلك بقي رسول الله ﷺ صابراً على هذه الحرب الدعائية الفظيعة ، هذه المدة الطويلة ! ثلاثة عشر عاماً ، ما وتى وما كل ، وهو يقوم بعملية التبليغ المستقيمة النظيفة .

ان استمرار الدعاية في مثل هذا الجو المحموم وحده ، دليل على صدقه فيما يدعو إليه ، وإلا فكيف نعلل استمرار رجل في دعوة يلاقي ما لاقي ، مع العرض عليه كل متاع الدنيا ، ثم لا يرضى إلا بحمل الناس على دعوته مع هذا الموقف الشديد منه . ان هذا لا يُعَاتَل إلا بصدقه في دعوته ، وأنه يبلغها مأموراً من الله عز وجل ، وقد وضح له أن النكوص عن طريقه وراءه ما وراء الذي يعصّي أمر الله من عقاب الله .

هـ - استعمال سلاح المقاطعة :

قال ابن اسحاق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل الاسلام يفسو في القبائل ، اجتمعوا واثتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ، على أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاقدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة

توكيدا على أنفسهم وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي — قال ابن هشام : ويقال : النضر بن الحارث ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فשל بعض أصابعه .

قال ابن اسحاق : فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش ، فظاهرهم .

وقال ابن اسحاق : وحدثني حسين بن عبد الله : أن أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشا ، فقال : يا بنت عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟ قالت : نعم فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة .

— وأخرج أبو نعيم في الحلية ج ١ ص ٩٣ عن سعد رضي الله عنه قال : كنا قوما يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته ، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومَرَرْنَا عليه وصبرنا له ، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة خرجت من الليل أبول . وإذا أنا أسمع بقعقة شيء تحت بولي فإذا قطعة جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرتين ثم استفها وشربت عليها من الماء فتويت عليها ثلاثاً » .

هذه المقاطعة التي كان من آثارها ما رأيت استمرت ثلاث سنين متواليات . لا بيع ولا شراء ولا زواج ولا أزواج ولا طعام ولا شراب .

يقول السهيلي : كانت الصحابة إذا قدمت غير إلى مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام قوتا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن أن لا يخسار عليكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس في يده شيء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس .

ثلاث سنوات متواليات على هذه الحال والمسلمون وأقارب رسول الله ﷺ من المشركين أنفسهم ممن يحمونه عصبية بني هاشم وبني المطلب . ورسول الله ﷺ صابر وهو يرى هذه المناظر المؤلمة . زوجه خديجة الطاعنة في السن عمه أبو طالب الطاعن في السن أسرته أقاربه يعانون هذه الحياة المجاهدة ، ومع ذلك ما فكر لحظة في إيقاف عملية التبليغ والجهاد بالدعوة ، وليس هناك ظاهريا بارقة أمل ، فالجزيرة العربية كلها مجمعة على الوقوف ضده مع قريش ، ومع ذلك بقي مستمرا لالقاء ولا مداخنة ولا تنازل ولا أي شيء آخر . فمن يستطيع أن يتحمل هذا لولا إيمان بالله وثقة به وصدق بوعدته ووعدته ، واتصال بالله كامل يستسلم صاحبه لأمر الله فيه . إنها صفات الأنبياء ولا يمكن أن تغفل إلا بأن صاحبها رسول الله حقا ...

و - محاولتهم قتله :

— قال ابن اسحاق :

ثم ان قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه واجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد ابن المغيرة فقالوا له : — فيما بلغني — يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذ به فلك عقله ونصره ، واتخذ ولدا فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فانما هو رجل برجل . فقال : والله لبئس ما تسوموني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا . قال : فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ابن قصي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم علي فاصنع

ما بدا لك ، أو كما قال : فحقب الأمر وحميت الحرب وتنابد القوم وبأدى بعضهم بعضا .

— وقال ابن اسحاق :

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشم آلهتنا ، وإنني أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ما أطيق حمله أو كما قال ، فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فاسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا ، فامض لما تريد .

— وقال ابن إسحاق :

وكان إسلام عمر — فيما بلغني — ان اخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلمها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه ، من بني عدي بن كعب قد أسلم ، وكان أيضا يستخفي بإسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرأها القرآن ، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه قد ذكروا أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمدا هذا الصابي ، الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتنا ، فاقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت

محمددا ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

فقال : وأي هل بيتي ؟

قال : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمددا على دينه ، فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وختته ...

— وقال ابن اسحاق : من خبر اجتماع الملاء من قریش وتشاورهم في أمر رسول الله ﷺ فقال بعضهم لبعض : ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم . فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا . قال : فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد واغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيرا والنابعة ، ومن مضى منهم مع هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يشبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغبلوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره ، فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فاذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، وإذا غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا برأي ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقته وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت ان يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه . ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأيا غير هذا .

قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه لرأيا ، ما أراكم وقعتم عليه بعد ،

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شابا جليدا نسيبا وسيطا (الشريف في قومه) فينا ، ثم نعطي كل فتي منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم (العقل : الدية) قال : فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا رأي غيره فتفرق القوم على ذلك وحسم مجمعون له .

هذه نماذج من قرارات القوم بشأن اغتيال الرسول ﷺ . وإذن الفترة التي قضاهـا رسول الله ﷺ في مكة لم تكن فترة أمن من كل الجوانب . ومع هذه التهديدات المتواصلة وهذا الجو الذي يحطم الأعصاب . نجد رسول الله ﷺ ما انقطع فترة عن القيام بعملية التبليغ والجهـر بها ، ومجابهة الناس بما يدعـو له ، إن هذا كله ليس عاديا في بيئة عربية وعلى النفسية العربية لولا أن المسألة مسألة وحي من الله وأمر .

ز — ملاحقة خطواته ومحاولة إثـاسه منهم :

أخرج ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد رضي الله عنه قال : إني لغلام شاب مع أبيي يعني ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بني فلان : إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الانداد وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به . قال : وخلفه رجل أحول وضيء له

غديرتان عليه حلة عدنية . فاذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا اليه قال ذلك الرجل : يا بني فلان : إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا عنه .

قال : فقلت لأبي : يا أبت .. من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب .

— وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال .. لقد كان رسول الله ﷺ يخرج في المواسم فيدعو القبائل ، ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتي القبائل بمجنة وعكاظ وبمى حتى يستقبل القبائل يعود اليهم سنة بعد سنة حتى أن القبائل منهم من قال : ما آن لك أن تيأس منا ؟ ..

لقد بقي مستمرا في عملية التبليغ على وتيرة واحدة وبدأب متواصل ، رغم هذه الظروف غير المواتية ، والتي تجعل الإنسان العادي ييأس أو يفتر . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فلولا أنه رسول الله حقا يقوم بهذا كله إيمانا بالله وتنفيذا لأمره وتصديقا بوعدده وخوفا من وعيده لما أمكنه الاستمرار وتجاوز شيء من هذا .

ونكتفي بهذه الأمثلة على تخطيه العقبات أمام البلاغ لننتقل إلى عرض نماذج من عمله الدائب المستمر الشامل في تبليغ دعوة الله أي إلى :

٢ - نماذج النوع الثاني :

(وهو الطرق التي سلكها لايصال دعوة الله إلى الناس)

(آ) دعوته الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم :

أخرج أحمد عن ابن عباس قال : لما أنزل الله « وأنذر عشيرتك الأقربين » أتى النبي الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه فاجتمع الناس إليه بين رجل

يحيى إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله : يا بني عبد المطلب يا بني
فهر يا بني كعب أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير
عليكم صدقتموني ؟ قالوا : نعم . قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ،
فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله « تبّت يدا
أبي لهب وتب » .

(ب) ذهابه إلى أما كن تجمع الناس وتبليغهم دعوة الله :

أخرج أحمد عن رجل من بني مالك بن كنانة قال : رأيت رسول الله
بسوق ذي المجاز يتخللها يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا »
قال وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول لا يغوينكم هذا عن دينكم فانما
يريد لتتركوا آثتكم وتتركوا اللات والعزى وما يلتفت إليه رسول الله ...

وأخرج أحمد عن ربيعة بن عباد من بني الدليل وكان جاهلياً فأسلم قال :
رأيت رسول الله في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس
قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء
الوجه أحول ذو غديرتين يقول إنه صابيء كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت
عنه فقالوا هذا عمه أبو لهب .

و أخرج البخاري في التاريخ وأبو زرعة والبغوي وابن أبي عاصم
والطبراني عن الحارث بن الحارث الغامدي قال :

قلت لأبي ونحن بمنى ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء اجتمعوا على صابيء
لهم قال فتشرفت فإذا برسول الله يدعو الناس إلى توحيد الله وهم يردون
عليه الحديث .

وأخرج الطبراني من مدرك قال : حججت مع أبي فلما نزلنا منى إذا
نحن بجماعة فقلت لأبي ما هذه الجماعة ؟ قال هذا الصابيء فإذا رسول الله
يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا .

وأخرج ابن إسحاق عن الزهري : انه عليه السلام أتى كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له مليح فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه .

وعن محمد بن عبد الرحمن بن حصين : أنه (أي رسول الله) أتى كلبا في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

وفي البداية عن عبد الله بن كعب بن مالك : أن رسول الله أتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فلم يك أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم .

وعن ابن إسحاق عن الزهري أنه (أي رسول الله) أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس : والله لو أنني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له : أرايت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : افنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك : فأبوا عليه . فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركه السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم . فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم . فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا . فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذنابها من مطلب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط ، وإنما الحق فأين رأيكم كان عنكم ؟

وأخرج الحافظ أبو نعيم عن العباس (رض) قال قال لي رسول الله ﷺ : لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجي إلى السوق غدا حتى نقرني منازل قبائل الناس وكانت مجمع العرب . قال فقلت : هذه كندة ولفها وهي أفضل من يحج البيت من اليمن وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازل بني عامر بن صعصعة ، فاختر لنفسك ؟ قال فبدأ بكندة فأتاهم فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من أهل اليمن . قال : من أي اليمن ؟ قالوا : من كندة . قال : من أي كندة ؟ قالوا : من بني عمرو بن معاوية ، قال : فهل لكم إلى خير ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : تشهدون أن لا إله إلا الله ، وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله قال عبد الله بن الأجلح : وحدثني أبي عن أشياخ قومه أن كندة قالت له : ان ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ فقال رسول الله ﷺ ، إن الملك لله يجعله حيث يشاء . فقالوا : لا حاجة لنا فيما جئتنا به --

وقال الكلبي : فقالوا : أجيئنا لتصدنا عن آلهتنا وننايذ العرب . إلحق بقومك فلا حاجة لنا بذلك . فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من بكر بن وائل . فقال : من أي بكر بن وائل ؟ قالوا : من بني قيس بن ثعلبة . قال : كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى . قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة جاورنا فارس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم . قال : فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم ، وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمده ثلاثا وثلاثين ، وتكبروه أربعا وثلاثين . قالوا : من أنت ؟ قال : أنا رسول الله . ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبي : وكان عمه أبو هب يتبعه فيقول للناس : لا تقبلوا قوله ، ثم مر أبو هب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا في الذروة منا فعن أي شأنه تسألون ؟ فأخبروه بما دعاهم إليه

وقالوا : زعم أنه « رسول الله » قال : ألا لا ترفعوا برأسه قولا فإنه مجنون يهذي من أم رأسه . قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكره .

(ج) رحلته من أجل التبليغ :

أخبر الطبراني عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفي أبو طالب خرج النبي إلى الطائف ماشيا على قدميه يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه فانصرف فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلمي ؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي . أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتي حتى ترضى ولا قوة إلا بالله .

(د) تكليفه من أسلم تبليغ من لم يسلم :

أخرج أبي عاصم عن الاحنف بن قيس قال : بينما أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان إذ أخذ رجل من بني ليث بيدي فقال ألا أبشرك ؟ قلت : بلى قال أتذكر إذ بعثني رسول الله إلى قومك فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه فقلت أنت : إنك لتدعونا إلى خير وتأمر به وإنه ليدعو إلى الخير فبلغ ذلك النبي فقال : اللهم اغفر للاحنف ...

وأخرج الدارقطني عن ابن عمر قال : دعا النبي عبد الرحمن بن عوف فقال : تجهز فاني باعثك في سرية - فذكر الحديث وفيه : فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل فلما دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانيا ، وكان رأسهم فكتب عبد الرحمن - مع رجل من جهينة يقال له رافع بن مكيث - إلى النبي يخبره فكتب إليه النبي أن تزوج ابنة الأصبغ فتزوجها وهي

تماضر التي ولدت له بعد ذلك ابا سلمة بن عبد الرحمن ..

وأخرج ابن اسحاق عن محمد بن عبد الرحمن التميمي قال : بعث رسول الله عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الإسلام وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بني بلي فبعثه رسول الله إليهم يتألفهم بذلك ...

وأخرج البيهقي عن البراء أن رسول الله بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال : البراء فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه . ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب (رض) وأمره أن يقفل خالداً إلا رجلاً كان ممن مع خالد ، فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه . قال البراء : فكنت فيمن عقب مع علي . فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم . فصلى بنا علي ثم صفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم . فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان !!! السلام على همدان .

هـ (تكليفه من تعلم أن يعلم من لم يعلم :

أخرج أبو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير (رض) : ان الأنصار لما سمعوا من رسول الله ﷺ قوله وأيقنوا واطمأنت أنفسهم إلى دعوته فصدقوه وآمنوا به — كانوا من أسباب الخير وواعدوه الموسم من العام المقبل فرجعوا إلى قومهم — بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فيدعو الناس إلى كتاب الله فإنه أدنى أن يتبع فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب ابن عمير (رض) أخا بني عبد الدار ، فنزل بني غنم على أسعد بن زرارة يحدّثهم ويقص عليهم القرآن فلم يزل مصعب عند سعد بن معاذ يدعو ويهدي الله على يديه حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا بحالة ،

وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم . ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ .

وروى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة . . . عن رسول الله ﷺ قال : (ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة) .

ثم نزل فقال قوم : من ترونه غنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعرين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب فبلغ ذلك الأشعرين فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله : ذكرت قوماً بخير وذكرنا بشر فما بالناس فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهنهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا فقالوا : يا رسول الله أنعظن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضاً فقالوا أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) .

(و) إرساله الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء :

أخرج البيهقي عن ابن إسحاق قال : بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة السلام عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيم وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني فإني

رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرأ ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى .

وأخرج البخاري عن ابن عباس حديث أبي سفيان مع هرقل وفيه نص رسالة رسول الله إليه وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ! سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين «ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق نص رسالة الرسول إلى كسرى وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ! سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فإن تسلم تسلم وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

وأخرج البيهقي نص رسالة الرسول إلى أهل نجران وهي :

باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران ! سلم انتم فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد ! فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام .

وقد أرسل الرسول عليه السلام رسائل مشابهة إلى المقوقس وإلى ملك اليمامة وإلى المنذر بن ساوي عظيم البحرين وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني وإلى

الحارث بن عبد كلال الحميري وإلى ملكي عمان إني الجلندي وغيرهم .

هذه نماذج من عملية التبليغ عند رسول الله تعطيك صورة مبسطة عن قيامه عليه السلام بتبليغ أمر الله ودينه وشريعته ، واستيفاء هذا الموضوع حقه يحتاج إلى مجلد ضخم على الأقل . إذ أن رسول الله خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعد النبوة ، لم يهدأ ولم يسترح ولم يفوت فرصة يستطيع بها أن يبلغ رسالة الله إلا وبلغ ، بالاتصال الشخصي والعرض الجماعي ، وفي السفر والحضر وب نفسه وأتباعه وبالمشافهة والخطاب ، ثم عمم الأمر على أمتة جميعاً بأن عليهم واجب البلاغ عنه . حتى لا يبقى إنسان من البشر إلا وقد بلغته دعوته ، وانظر إلى نتائج هذا كله تجد أنه عليه السلام لم يمت إلا والجزيرة العربية كلها مستجيبة لأمر الله ، وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين إلا وكان أكثر العالم المعروف وقتذاك قد بلغته الدعوة ، فمن مستجيب ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر على الكفر عناداً ، وما من إنسان يستطيع أن يتصور مثل هذا الحماس للتبليغ المنقطع النظير يمكن أن يكون إلا وليد اقتناع كامل بصدق الدعوة والداعية ، وما كان الداعية ليعطي هذا الحماس لأتباعه ، لو لم يكن هو في أعلى حالات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسؤولية أمام الله إن قصر فيه .

إن تاريخ العالم كله لا يقص علينا ، أن أحداً قد استوعبت دعوته من قبل الآخرين في حياته كما حدث لرسول الله الذي لم يمت إلا وعشرات الآلاف من أتباعه يحفظون من الكتاب المنزل عليه الكثير ، ومن أحاديثه وتعاليمه الكثير الكبير ، ثم حفظت نصوص تعاليمه حرفياً لكل الأجيال الآتية بعد . لأنها كلها مكلفة بإتباعه ومحاسبة أمام الله إن لم تفعل . إذا بلغ واحد منها دعوته . أما من لم تبلغه دعوته فقد اقتضت حكمة الله ألا يعتبر مسؤولاً ، ولكن عملياً . وذلك كله من آثار قيام الرسول بواجب التبليغ لم يبق أحد منذ زمن بعيد إلا في النادر لم تبلغه

دعوة رسول الله ، وأنت ترى الآن الدعاة إلى الله على صراط رسول الله منتشرين في العالم كله ، لقد قام رسول الله بعملية التبليغ حق القيام ، وكما رأيت فإن في كل موقف من مواقفه فيها ما يجعلك على برد اليقين ، بأن هذه المواقف ما كانت لتكون ، لولا أن رسول الله محمداً صادق في دعوى الرسالة عن الله .

فإلى الصفة الأساسية الرابعة الملازمة للتبليغ وجوهر الرسالة عن الله وهي العقل العظيم والفتانة لتري كيف أن لرسول الله الحظ الأعلى منها :

٤ - عقله العظيم وفتانته عليه السلام

١ - إن الصفة الرابعة للرسول عليهم الصلاة والسلام هي الفتانة وهي الصفة الملازمة للتبليغ . إذ الرسول معرض وهو يقوم بعملية التبليغ لمناقشات الخصوم أو لتساؤلات الاتباع أو لاعتراضات المشككين وانتقاداتهم ، فلا بد أن يكون من الذكاء ، وقوة البيان وحدة العارضة ما يستطيع به أن يبهت الآخرين فلا تقوم لهم حجة ، إذ لو قامت لهم حجة لما كان له عليهم سلطان وذلك مقتضى قوله تعالى « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة » .

وهذا لا يتم إلا بأن تكون دعوة الرسول حقاً كلها ، إذ غير الحق لا تكون حجته واضحة ، والباطل دائماً حجته داحضة ، ولا يتم كذلك إلا بعقل يستطيع إحكام الحجة في العرض . فكم حق لم يجد عقلاً فضاع . ولا يتم هذا كله إلا بفصاحة وبيان يمكن بهما عرض الحجة بالشكل الأكمل . ولا يأتي هذا إلا لأعلم الناس وأذكى الناس وأفصح الناس .

فالناس يتفاوتون علماً ويختلفون اختصاصاً . فمنهم رجل الدين . ومنهم السياسي . ومنهم الاقتصادي . ومنهم الطبيب ، ومنهم رجل الحكمة ومنهم ومنهم ... وكل واحد من هؤلاء ينبغي أن تقام عليه الحجة لو اعترض من جانب اختصاصه فما لم يكن الرسول أعلم الخلق في كل جانب من حيث صلة هذا الجانب برسالته لا يستطيع إقامة الحجة .

والناس يتفاوتون ذكاء وقوة حجة وعارضة ، والرسول مهمته أن يقيم الحجة على كل البشر فما لم يكن أذكى البشر فإنه لا يستطيع أن يفعل .

وإنسان يحتاج إلى هذا كله لا بد له من لسان مبین ، وفصاحة عظيمة ، حتى قال موسى يوم كلفه الله بالوحي : « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي » .

وباجتماع هذه الجوانب كلها تتحقق صفة الفطانة عند الرسول وتدل بذلك على صاحبها أنه رسول الله حقاً مع استكمال بقية الشروط .
فالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
والحجة الكاملة البينة الخاصة فيه .
والعرض السليم الكامل الأداء .

والزام الخصوم العجز عن أن يكون لهم موقف حق إلا بالمتابعة .
كل هذا لا يتأتى إلا لدعوة الله المحيط علماً بكل شيء ولرسوله الذي يختاره أهلاً لحمل دعوته « الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

٢ - وباستعراضنا لهذه الجوانب عند رسول الله محمد ﷺ نجد أن له من كل شيء ذروة فمن حيث أن دعوته كلها حق فذلك لا مرية فيه وتحقيق ذلك في كل بحث هذا الكتاب .

ومن حيث الفصاحة فهو أفصح العرب على الإطلاق وأبينهم لغة ونطقاً وأداء .

ومن حيث إقامة الحجة فإنك لا تجد إنساناً ، يستطيع إقامة الحجة المقنعة على كل إنسان حسب مستواه العقلي بكل بساطة ، كما كان يفعل رسول الله ﷺ وبهذا تأتى له أن يقيم الحجة على الناس بدينه كله ، عقيدة وعبادات وسلوكاً ومنهاج حياة ، هذا مع توفيق الله له وحكمته جل جلاله بأن كان القرآن الكريم

قد فصل كل شيء ، وحاج كل إنسان فحجه ، فكان القرآن مع حديث رسول الله ﷺ الصحيح كما فحصه علماء الحديث - وهما محفوظان - حجة لله على البشر في كل جيل إلى قيام الساعة .

٣ - ولتوضيح ظهور هذه الجوانب عند رسول الله ﷺ . سنختار نماذج من مناقشاته يقيم بها الحجة على آخرين ومن خطبه أو كتبه يدعو بها إلى شيء من شريعته ومن كَلِمِهِ المعلن بالحكمة في الأمر أو النهي أو الخير مما يدل على مدى ملكة الإقناع التي وهبها الله لرسوله حتى جعله أكمل الخلق في كل خلق .

١ - أخرج عبد الله بن أحمد وأبو يعلى عن سعيد بن أبي راشد قال : رأيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفناء أو قرب فقلت ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ﷺ ورسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل قال بلى ... وذكر الحديث ومن جملته :

« فانطلقت بكتابه (أي كتاب هرقل) حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين أصحابه على الماء .

فقلت : أين صاحبكم ؟

قيل ها هوذا فاقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره ثم قال : ممن أنت . قلت : أنا أحد تنوخ . فقال : هل لك في الحنفية ملة إبراهيم ؟ قلت إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم . قال : إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين . إلى أن قال : ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره فقلت : من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم ؟ قالوا معاوية فإذا في كتاب صاحبي : يدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار ؟

فقال رسول الله ﷺ سبحان الله فأين الليل إذا ذهب النهار .

قال الهيثمي : رجال أبي يعلى ثقات ورجال عبد الله بن أحمد كذلك .

أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين قال حدثني أبي عن أبيه عن جده أن قريشاً جاءت إلى الحصين — وكانت تعظمه — فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاؤا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي ﷺ فقالوا : أوسعوا للشيخ . وعمران وأصحابه متوافرون . فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك . إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصينة وخيراً ؟ فقال : يا حصين إن أبي وأباك في النار ، يا حصين كم تعبد من إله ؟ قال سبعة في الأرض وواحد في السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذي في السماء . قال : فإذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الذي في السماء . قال : فيستجيب لك وحده وتشر كهم معه ، أراضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟ قال : لا واحدة من هاتين ، قال : وعلمت أني لسم أكلم مثله .

قال : يا حصين أسلم تسلم .

قال : إن لي قوماً وعشيرة فماذا أقول ؟

قال : قل اللهم أستهديك لأرشد أمري وزدني علماً ينفعني .

فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم . فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى وقال :

بكيك من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة . فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : قوموا فشيعوه إلى منزله ، فلما خرج من سدة الباب رآته قريش فقالوا صباً وتفرقوا عنه . كذا في الإصابة ج ١ ص ٣٣٧ .

أخرج أحمد عن أبي تيممة الهجيمي عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله ﷺ أو قال : شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال : أنت رسول الله ﷺ أو قال أنت محمد ؟

فقال : نعم . قال : ما تدعو ؟ قال : أدعو الله عز وجل وحده — من إذا

كان لك ضرر فدعوته كشفه عنك ومن إذا أصابك عام فدعوته أنيب لك . ومن إذا كنت في أرض قفر فأضللت فدعوته رد عليك .

فأسلم الرجل ثم قال : أوصني يا رسول الله ، فقال : لا تسب شيئاً . أو قال أحداً . شك الحكم — قال : فما سببت بعيراً ولا شاة منذ أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخرج أحمد عن عدي بن حاتم قال : لما بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة فخرجت حتى وقعت ناحية الروم — وفي رواية حتى قدمت على قيصر . قال : فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهي لخروجه .

قال : قلت : والله لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يضرني وإن كان صادقاً علمت ، قال : فقدمت فأتيته . فلما قدمت قال الناس : عدي بن حاتم ، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال لي : يا عدي بن حاتم أسلم تسلم — ثلاثاً . قال : قلت إني على دين . قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت تعلم بديني مني ؟ قال : نعم ، ألسنت من الركوسية^(١) وأنت تأكل مرباع^(٢) قومك ؟ قلت : بلى ، قال : هذا لا يخل لك في دينك ، قال : نعم . فلم يعد أن قالها فتواضعت لها . قال : أما اني أعلم الذي يمنعك من الإسلام تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب . أتعرف الحيرة ؟

قلت : لم أرها وقد سمعت بها ،

قال : فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد . وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز ، قال : قلت كنوز ابن هرمز ؟

قال : نعم ، كسرى بن هرمز . وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد . قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تأتي من الحيرة تطوف بالبيت في غير

(١) الركوسية : دين بين النصارى والصابئين .

(٢) مرباع : ربع الغنيمة .

جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى . والذي نفسي بيده لتكونن
الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . كذا في البداية ج ٥ ص ٦٦ وآخر جمعه
البغوي أيضاً في مجمله بمعناه ، كما في الإصابة ج ، ص ٤٦٨ .

وأخرج أحمد عن عدي بن حاتم قال : جاءت خيل رسول الله ﷺ وأنا
بعقرب فأخذوا عمتي وناساً فلما أنوا بهم رسول الله ﷺ قال : فصفوا له .
قالت : يا رسول الله بان الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة
فمن عليّ من الله عليك فقال : ومن وافدك ؟

قالت : عدي بن حاتم ،

قال : الذي فر من الله ورسوله ؟

قالت : فمن عليّ ، فلما رجع ورجل إلى جنبه — نرى أنه عليّ — قال :
سليه حملاناً ، قال : فسألته فأمر لها . قال عدي : فأتني فقالت : لقد فعلت
فعلة ما كان أبوك يفعلها وقالت : إيتيه راغباً أو راهباً فقد أتاه فلان فأصاب منه
وأتاه فلان فأصاب منه ، قال : فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان — أو صبي —
فذكر قريتهم منه ، فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر . فقال له : يا عدي
ابن حاتم ؟ ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : لا إله إلا الله ، من من إله إلا الله ؟ ما
أفرك ؟ أفرك أن يقال : « الله أكبر » .

فهل شيء أكبر من الله عز وجل ؟ فأسلمت فرأيت وجهه قد استبشر .

أخرج أبو يعلى عن حرب بن سريج قال حدثني رجل من بلعدوية قال
حدثني جدي قال : انطلقت إلى المدينة فنزلت عند الوادي فإذا رجلان بينهما
عنزة واحدة وإذا المشتري يقول للبائع : أحسن مبايعتي . قال : فقالت في نفسي
هذا الهاشمي الذي قد أضل الناس ، أهو هو ؟ قال : فنظرت فإذا رجل حسن
الجسم ، عظيم الجبهة دقيق الأنف دقيق الحاجبين . وإذا من ثغرة نحره إلى سرتة
مثل الخيط الأسود شعر أسود وإذا هو بين طمرين . قال : فدنا منا فقال : السلام
عليكم ، فرددنا عليه ، فلم ألبث أن دعا المشتري فقال : يا رسول الله قل له :

يحسن مبايعتي ، فمد يده وقال أموالكم تملكون إني أرجو أن ألقى الله عز وجل يوم القيامة لا يطلبني أحد منكم بشيء ظلمته في مال ولا في دم وعرض إلا بحقه ، رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل الأخذ ، سهل العطاء ، سهل القضاء ، سهل التقاضي ثم مضى .

فقلت : والله لأقصن هذا فإنه حسن القول ، فتبعته فقلت : يا محمد فالتفت إلي بجميعه فقال : ما تشاء ؟

قلت : أنت الذي أضللت الناس وأهلكتهم وصددتهم عما كان يعبد آباؤهم .

قال : ذاك الله .

قال : ما تدعو إليه ؟

قال : أدعو عباد الله إلى الله ،

قال : فقلت ، ما تقول ؟

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وتؤمن بما أنزله علي .
وتكفر باللات ، والعزى وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة .

قال : قلت : وما الزكاة ؟

قال : يرد غنينا على فقيرنا .

قال : قلت : نعم الشيء تدعو إليه .

قال : فلقد كان وما في الأرض أحد يتنفس أبغض إلي منه فما برح حتى كان أحب إلي من ولدي ووالدي ومن الناس أجمعين .

قال : فقلت : قد عرفت ، قال قد عرفت ،

قلت : نعم ،

قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وتؤمن بما أنزل علي ،

قال : قلت نعم يا رسول الله إني أرد ماءً عليه كثير من الناس فأدعوهم إلى ما دعوتني إليه فإني أرجو أن يتبعوك ، قال : نعم فادعهم ، فأسلم أهل ذلك الماء

رجالهم ونساؤهم فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه .

وذكر البخاري وأبو داود وأتم ما ذكرنا رزين مساجلة جرت بين المسلمين وبين أبي سفيان بعد موقعة أحد وقد أصيب المسلمون فنادى أبو سفيان جماعة من المسلمين يسألهم ويقول وهذا نص الحادثة كما رووها « فأشرف أبو سفيان (أي على المكان الذي كانوا فيه) فقال : أي القوم محمد ؟ فقال : (أي الرسول و كان معهم) : لا تجيبوه . فقال : أي القوم ابن أبي قحافة ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أي القوم ابن الخطاب ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : إن هؤلاء قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا : فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه . فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله لك ما يحزنك . قال أبو سفيان أعل هبل . فقال ﷺ أجيبوه . فقالوا : مانقول ؟ قال : قولوا الله أعلا وأجل . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال ﷺ : أجيبوه . قالوا مانقول ؟ قال قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم بيوم والحرب سجال ، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني . فقال : ﷺ . أجيبوه ، قالوا ما نقول ؟ قال : قولوا لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكهم في النار . أخرجه البخاري وأبو داود إلى قوله لم تسؤني وأخرج باقيه رزين .

وعن ابن اسحاق من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : لما أصاب رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين - وقسم للمتألفين من قريش (أي حديثو العهد بالإسلام ليتمكن الإسلام في قلوبهم) وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير - وجد (أي تغيرت قلوبهم) هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم :

لقي والله رسول الله ﷺ قومه . فمشى سعد بن عبادة رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار ، قد وجدوا عليك في أنفسهم فقال : فيم ؟

قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ، ولم

يكن فيهم من ذلك شيء .

فقال رسول الله ﷺ فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي .

قال : فقال رسول الله ﷺ فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . فإذا اجتمعوا فأعلمني . فخرج سعد فصرخ فيهم ، فجمعهم في تلك الحظيرة . فجاء رجل من المهاجرين فأذن له فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم -- حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له . أتاه فقال :

يا رسول الله قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار ! ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ، وعالة (أي فقراء) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى . ثم قال رسول الله ﷺ : ألا تحببون يا معشر الأنصار ؟

قالوا : وما نقول يا رسول الله ! وبماذا نجيبك ؟ المن لله ولرسوله .

قال : والله لو شئتم لقتلتم فصدقتم وصدقتم : جئنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمناك ومخذولاً فنصرناك . فقالوا : المن لله ولرسوله . فقال رسول الله ﷺ : أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة (أي في شيء تافه) إذ اللعاعة نبت ناعم لا يعمر طويلاً) من الدنيا ؟ تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعر ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم (أي بلوها بدموعهم) وقالوا : رضينا بالله رباً ورسوله قسماً ثم انصرف ، وتفرقوا . وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق ولم يروه أحد من

أصحاب الكتب من هذا الوجه وهو صحيح .

وأخرج مالك عن عطاء بن يسار :

أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : أستاذن على أمي ؟

فقال : نعم .

فقال الرجل : إني معها في البيت

فقال : أستاذن عليها

فقال : إني خادمها ؟

فقال رسول الله : أستاذن عليها أتحب أن تراها عريانة ؟

قال : لا .

قال : فاستأذن عليها .

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إئذن لي بالزنا فاقبل القوم عليه فزجروه وقالوا من فقال : أدن فدنا منه قريباً : قال اجلس فجلس قال ﷺ : أتحبه لأملك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال ﷺ : أفتحبه لأبنتك قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم قال ﷺ : أفتحبه لأختك . قال : لا والله جعلني الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال ﷺ : أفتحبه لعمتك قال : لا والله جعلني الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم قال ﷺ : أفتحبه لخالتك قال : لا والله جعلني الله فداك فقال ولا الناس يحبونه لخالاتهم : قال : فوضع يده ﷺ عليه ثم قال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه واحصن فرجه قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

ومن نقاشه مع وفد نصارى نجران كما ترويه كتب السيرة في أمر عيسى هذا

المقطع :

قالوا : من أبوه ؟ (أي عيسى يريدون أن يقيموا الحجة بهذا السؤال على

أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك ؟

وقد رد القرآن عليهم بقوله : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) .

ورد عليهم رسول الله ﷺ بما يلي :

قال : ألسم تعلمون أن الله حي لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟

قالوا : بلى

قال : ألسم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟

قالوا : بلى

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟

قالوا : لا .

قال : ألسم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم ؟

قالوا : لا .

قال : ألسم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا

لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : ألسم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما

تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب

ويحدث الحديث ؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

ويوم الحديبية وقد حميت قريش للحرب وهو لا يريد أن يريده قال كلمة أحاطت

بجوانب الموضوع الذي يجعل قريشاً لا تريد إلا ما أراد قال :

يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب
فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام
وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على
الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة .
يعني الموت .

هذه نماذج على مناقشاته التي يقيم بها الحجة على الآخرين بالبساطة المقنعة
والفصاحة الآسرة .
وسترى نماذج على حدة ذكائه الهائل في تصريف الأمور وتديرها في الباب
الثاني من هذا الفصل .
أما هنا فنريد أن نتمم ببيان فصاحته التي لا مثيل لها وهي السمة المرافقة
التي لا بد منها في إقامة الحجة ونضرب على ذلك أمثلة من خطبه وكتبه وكلمه
الذي كان كله بليغا .

في حجة الوداع خطب رسول الله ﷺ في الناس خطبة طويلة وكان الذي
يبلغها عنه ربيعة بن أمية وهذا جزء منها ترى فيه نماذج الكلم الذي فعل فعله
في القلوب بما لم يفعله كلام آخر :
قال رسول الله لربيعة : قل يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون
أي شهر هذا ؟ فقال ربيعة . فصاح الناس : الشهر الحرام . فقال رسول الله
قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة
شهركم هذا .
ثم قال : قل يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أي بلد هذا ؟
فيقول ربيعة فيصيح الناس : البلد الحرام فيقول عليه السلام : قل لهم : إن الله
حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا :

ثم يأمره : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أي يوم هذا ؟
فيقول لهم فيصيحون : يوم الحج الأكبر . فيقول قل لهم : إن الله قد حرم
عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا .

ومن كلمة له عليه السلام : أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية
وكلمة العدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني
وأعطي من حرمني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً
ونظري عبرة ، وأمر بالمعروف .

ومن وصاياه :

« يا غلام احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . أو قال أمامك .
تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة . إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت
فاستعن بالله تعالى فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى
لك لم يقدرُوا على ذلك . ونو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى
عليك لم يقدرُوا على ذلك . جفت الأقلام وطويت الصحف فإن استطعت أن
تعمل لله تعالى بالرضا في اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره
خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر
يسراً وإن يغلب عسر يسرين . »

ومن خطبة طويلة له عليه السلام حفظ منها أبو سعيد الخدري ما يلي :
« ان الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون
ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . »
« ألا لا ينعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه . »

« ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ولا غدره أعظم من غدره إمام عامة يركز لوائه عند أسته » .

« ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا ، الا وان منهم البطيء الغضب سريع الفيء والسريع الغضب سريع الفيء ، والبطيء الغضب بطيء الفيء ، فتلك بتلك . الا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب ، الا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سيء القضاء حسن الطلب ، ومنهم حسن الطلب حسن القضاء ، فتلك بتلك . ألا وإن منهم السيء القضاء سيء الطلب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ، وشرهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وإن الغضب جمره في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحسر بشيء من ذلك فليلصق بالأرض .

— عن معاذ بن جبل رضي الله عنه :

قال (كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحو نسير . فقلت : يا رسول الله اخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار فقال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه . تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : الصوم جنة . والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين . ثم تلا : تتجافى جنوبهم عن المضاجع . إلى قوله : جزاء بما كانوا يعملون . ثم قال : ألا اخبرك برأس الأمر وعموده وذرو

سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام . وعموده الصلاة وذروة سنامه : الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملك ذلك كله : قلت بلى يا رسول الله . قال : كف عليك هذا ، وأشار إلى لسانه . قلت : يا رسول الله . وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) .

— وعن أبي ذر رضي الله عنه قال :

(قال رسول الله ﷺ : ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله : فأما الثلاثة الذين يحبهم : فرجل أتى قوما فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه ، فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه ، وقوم ساروا ايلتهم حتى إذا كان النوم أحب اليهم مما يعدل به فترلوا . فقام رجل يتملقني ويتلو آياتي ، ورجل كان في سرية فلقي العدو فانهزموا فأقبل بصدوره حتى يقتل أو يفتح له ، وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله : فالشيخ الزاني ، والفقير المختال ، والغني الظلوم) .

— وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم تعدني ، فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت ان عبدي فلانا مرض فلم تعده ؟ اما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني . قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : ان عبدي فلانا استطعمتك فلم تطعمه ، أما علمت لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم : استسقيتك فلم تسقني . قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إن عبدي فلانا استسقاك فلم تسقه ؟ اما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي) .

والسر في فصاحته ﷺ انه يقول الكلمة القصيرة فتبلغ كل مبلغ وتحيط

كل إحاطة ، وتصل إلى أدق القضايا ، ويتفاوت الناس في الأخذ منها على مقدار ما أوتوا من حكمة وعلم وذكاء وفهم . وقد عبر هو عليه السلام عن سر فصاحته فقال : أوتيت جوامع الكلم . وانظر عبارته هذه . تر معناها أنه ليعبر عن المعاني العظيمة الكثيرة الكبيرة بكلمة مختصرة سهلة ، ولكنها لا تكاد تدرك معانيها لما أحاطت به ، وهذه قضية يعرفها كل من اطلع على أحاديثه عليه السلام ، التي بلغت عشرات الآلاف ، والمحفوظة في كتب الحديث المعتمدة المنقحة الصحيحة . وخذ أي حديث من أحاديثه وأي كلمة من كلامه تجد هذا واضحا بالشكل الذي لا يلحق به إنسان الا في نواذر الحالات ، ولكن كلام رسول الله ﷺ كله من هذا النوع ومن ثم كان افصح العرب على الإطلاق .

وقد ضرب العقاد أمثلة على هذا الذي قلناه وحللها فأتى بالجيد . نجتزئ منه بمثال يقول « ومن أمثلته (أي الكلام الجامع للمعاني الكبار في الكلمات القصار عند رسول الله) علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله « كما تكونوا يول عليكم » . فأي قاعدة من القواعد الأصلية في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات ؟؟

ينطوي فيها أن الأمم مسؤولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل ، او عذر بالاكره ، لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه ، والاكره ضعفها الذي تلقى جزاءه .

وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة . فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ، ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوي فيها أن الولاية تبع تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأحرى ألا يغير الوالي قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

وينطوي فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث .
وينطوي فيها أن الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم

صلاح واستقلال وذلك هو الإبلاغ الذي ينفذ في وجهاته كل نفاذ .
ويختتم العقاد كلامه في هذا الموضوع بقوله :

وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء ، في هذا المقام . كان محمد فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الأداء ، وكان بليغاً مبلغاً على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية وكان بأسانه وفؤاده من المرسلين بل قدوة المرسلين .
وحسبك هذه الشهادة من العقاد شيخ أدباء العرب في القرن العشرين .

وبهذا نرجو أن تكون قد اتضحت لك صفة الفطانة التي لا مثيل لها عند رسول الله في بيان الحق . وإقامة الحجة فيه . ونصاعة البيان في عرضه .
وكمال الأداء في إيصاله وستتضح لك هذه الصفة أكثر في الباب الثاني ، حيث الكلام عن السياسي الأول ، والمحارب الأول ، والمعلم الأول عليه السلام .
ولعل الباب الثاني سيكون أكثره مشيراً إلى عظمة عقله وفطنته عليه السلام فلنقتصر هنا على ما قدمناه .

وبهذا نختتم الباب الأول من هذا الفصل وقد رأيت فيه كيف أن رسول الله ﷺ له من الصفات الأساسية للرسول كمالها وتمامها وأن ذلك دليل على أنه رسول الله حقاً ، خلقه الله على أكمل الأحوال ، وأرفع المقامات ووفقه لأعظم الأعمال ، مما ينوء بحمله كل الرجال مجتمعين . فسار في طريق لم تضطرب بدايته فيه ، ولم تتحول مسيرته عنه . حتى وصل إلى نهاياته على استقامة .
من أول الشوط إليها ، كل خطوة بعد التي تليها ، بناء يتكامل يوماً فيوماً حتى تم ، لا نقص فيه ولا عوج ، ولا ينقض منه شيء أبداً ، وما كان ذلك ليكون كله لولا أن الله المحيط علماً بكل شيء وراء رسوله في كل شيء . يسدده ويرعاه ويسيره حتى كان ما كان .

الباب الثاني

القدرة العلية

في الباب الأول رأينا أن لرسول الله من الصفات الأساسية للرسول الحظ الأعلى . وسرى في هذا الباب أن جوانب شخصية الرسول عليه السلام متعددة تعددا يجعله منفرداً عن الرسل بميزات ، ان شاركوه في بعضها فلم يشاركوه في الكل . فشخصية الرسول تمثلت بها كل جوانب الحياة وما كل رسول كان له مثل هذا . فالرسول عليه السلام كان أباً وما كل رسول كان أباً ، وكان زوجاً وما كل رسول تزوج ، وكان رئيس دولة ومؤسسها وما كل رسول أقام دولة . وكان القائد الأعلى لجيش الإسلام والمحارب الفذ وما كل رسول حارب . وبعث للإنسانية عامة فشرع لها بأمر الله ما يلزمها في كل جوانب حياتها العقيدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ولم يبعث رسول قط إلى الإنسانية عامة غيره وكان المستشار والقاضي والمربي والمعلم والمهذب والعايد والزاهد والصابر والرحيم ... إلى آخر صفاته عليه السلام التي استوعبت كل جوانب الحياة ، فكان بذلك بين الرسل الرسول المفرد العلم الممتاز « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » وإنما كان ذلك لأن الله جلت حكمته جعل الإسلام المنزل على محمد نظاماً شاملاً لجوانب حياة البشر كلها ، وجعل حياة رسوله نموذجاً لدينه كله في كل جوانبه ، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين ، مرة بالبيان النظري ومرة بالبيان العملي ،

وشيء آخر هو أن البشر فيهم الأب والإبن والزوج . وفيهم السياسي والاقتصادي ورجل الشورى ، وفيهم المحارب والمسلم ، وفيهم المبتلى والمعافى وفيهم الراعي والرعية وفيهم العامل والتاجر ، فالحياة البشرية متعددة الجوانب ، وكل إنسان فيها يعيش حياة كاملة تختلف في بعض جوانبها أو تتفق مع الآخرين ، وقد فرض الله على البشر على اختلاف مستوياتهم وتعدد مواقف حياتهم ، أن يكون الرسول لهم القدوة في كل شيء ، فما لم تكن شخصية الرسول متعددة الجوانب والمواقف هذا التعدد ، لا يكون قدوة لكل البشر في كل شيء .

وقد يعجب إنسان أن تكون حياة رسول الله من الخصب بحيث تستوعب كل جوانب حياة البشر . فتكون قدوة لهم في هذا كله ، ولكنه الواقع الذي تشهد له كل الدراسات النظرية والعلمية :

فمثلاً من الناحية النظرية أدرس مواقف الصبر عنده فأنك تجدها قد استوعبت كل موقف يحتاج الناس به إلى الصبر . لقد أقام الله رسوله مقام المخرج من وطنه ، ومقام من مات له ولد وأولاد وأولاد أولاد ، ومن ماتت له زوجة وعم وأبناء عم . بعضهم قتل . ومقام من فشل في المعركة ومن أودى واستهزى به ومقام من شمت فيه . ومن أتهم بعرض أحب الخلق إليه ومقام من مرض وجرح . ومقام من جاع وعطش وخاف وغير ذلك من المقامات التي يعتبرها الناس مصائب بحيث لا تصيب الإنسان مصيبة إلا ويرى رسول الله قد أصيب بمثلها . وكان له موقف مثالي منها ، فيقف مثله إن كان مؤمناً . ومن الناحية العملية ، فإن تاريخ الأمة الإسلامية ما خلا في عصر من عصوره ، من ملايين من أفراد هذه الأمة ، مختلفي المدارك ، مختلفي المستويات . مختلفي الاختصاصات مختلفي المشارب . منهم الغني ، والفقر والقائد ، والرئيس والعالم والعابد وغيرهم وغيرهم ، كل منهم متمسك بحبل الاقتداء برسول الله في الصغيرة والكبيرة . حتى إنك لتجد النماذج المتباينة من هؤلاء وكل منهم يقيم الدليل على أن سلوكه هو سلوك رسول الله فيما يسير عليه ، وكل ذلك في الواقع ناتج عن الخصب في حياة الرسول التي استوعبت أحوال البشر جميعاً .

والرسول عليه السلام في كل موقف من هذه المواقف ، وفي كل حال من الأحوال ، وفي كل جانب من الجوانب ، كان المثل الأعلى للبشر والقُدوة العليا والوحيدة لهم . إذ اليه يرجع الكمال في كل شيء ، ومنه يعرف الكمال في كل شيء ، وهذا هو الجانب الذي سنعرض له في هذا الباب ليتضح لنا أنه لا كمال لأي إنسان مهما كان في أي حالة . إلا باتباعه والافتداء به والتأسي فيه ، وإن الله لم يعط من الكمال لإنسان ما أعطاه محمداً ، ولم يجتمع في إنسان من الكمالات ما اجتمع في شخصه العظيم ، وذلك آية الله على أن هذا الإنسان رسوله إذ ما كان هذا ليجتمع لإنسان منبت عن الله وكمالاته ، وإحاطة علمه وتوفيقه ، وطبعاً نحن لا نستطيع وخاصة في مثل هذا الباب القصير المخصص لهذا البحث . أن نحيط بجوانب شخصية الرسول عليه السلام مع الإشارة إلى الكمال عنده في كل شيء . فذلك شيء يستنفد جهد الباحثين الكثر ولا يحاط به . وإنما سنكتب هنا أربع فقرات فقط وباختصار . حول أربعة جوانب من حياته عليه السلام نرى فيها ما قدمناه واضحاً وهو مقصود هذا الباب .

هذه الفقرات هي :

الفقرة الأولى : الأخلاقي الأول

الفقرة الثانية : رجل الأسرة الأول أباً وزوجاً

الفقرة الثالثة : المعلم والمربي الأول

الفقرة الرابعة : رجل الدولة الأول سياسياً وعسكرياً .

واخترنا هذه الجوانب لأن المعروف عند الناس . أن كمال الإنسان في جانب من هذه الجوانب يكون على حساب تفريطه في بقية الجوانب ، وكلامنا في غير المقتدين بالرسول من اتباعهم ، فاجتماع الكمال لرسول الله في هذه الجوانب كلها دليل على صحة ما قلناه ولنبدأ باستعراض الفقرة الأولى :

الاخلاقي الاول

« وانك لعلی خلق عظیم »

إن أبرز سمة في شخصية الرسول ﷺ المتعددة الجوانب أخلاقيته التي لا مثيل لها فالو أنك جمعت كل خلق عظيم في العالم . وكل تصرف أخلاقي سليم تصرفه في يوم من الأيام انسان . فان ما تجده في حياة رسول الله ﷺ يربو على هذا كله مجتمعا . مع انعدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته عليه السلام . مما لا تستطيع معه أن تجد في حياته كلها تصرفا يمكن أن ترى أعظم منه في باب الأخلاق عند غيره ﷺ . وكان أصحابه ﷺ يعرفون منه هذا ، ويتصرفون على أساسه معه . فكثيرا ما كانوا يوقفون ناسا مواقف من الأنبياء السابقون فيها سننا فكان يفعل ما فعلوا . ويعرف الصحابة ماذا سيفعل . إذ أنهم يعرفون عنه أنه لا يرضى أن يكون أحد أرقى منه تصرفا أو مسلكا . في الطريق إلى فتح مكة لقي الرسول ﷺ ابا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي امية وهما ابن عمه وابن عمته وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة . فأعرض عنهما فأشار علي بن أبي طالب على ابن عمه بما يلي قال له : إئته من قبل وجهه وقل له ما قال إخوة يوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » فانه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جوابا ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله ﷺ « لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

فانظر ذلك الذي لا يرضى أن يسبقه أحد في موقف من مواقف مكارم الأخلاق . إن اخلاق الرسول ﷺ هي ميزة شخصيته الكبرى ، حتى أنه ليحدد مهمة رسالته بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والواقع أنك لا تستطيع أن تأخذ صورة كاملة عن أخلاق الرسول ﷺ . إلا إذا فهمت القرآن والسنة ، وكل ما له علاقة بسيرة الرسول ﷺ . إذ أخلاقه كما وصفته سيدتنا عائشة رضي الله عنها هي القرآن . « كان خلقه القرآن » .

وقد رأيت بشكل عملي في بحث الأمانة من الباب الأول كيف أن كل آية من القرآن كان ﷺ المظهر العملي لما إذ استعرضنا هناك عددا من الآيات والأمثلة التطبيقية على ذلك فيه :

إلا أننا نريد بهذا البحث أن نأتيك ببعض أمهات الأخلاق ومظهرها عند رسول الله ﷺ بالشكل الذي لا يرقى إليه أحد سابقا أو لاحقا .
ونختار من هذه الأخلاق أخلاق الصبر والرحمة والحلم والكرم والتواضع .
فهذه من أمهات الأخلاق التي تحمد إذا كانت في محلها ، وسنرى أن رسول الله ﷺ يضع كل شيء في محله فإذا كان العفو غير محمود فلا عفو . وإذا كانت الرحمة غير محمودة فلا رحمة . وهكذا ، فرسول الله ﷺ هو الميزان الذي توزن بتصرفاته أخلاق البشر ويتحدد بهذه التصرفات حدود كل خلق فلا يطغى خلق على خلق .

أولا : نماذج من صبره :

١ - مر معك في مبحث التبليغ صور من صبره ﷺ على الاضطهاد والتعذيب ، والإيذاء والتجويع والسخرية والردود القبيحة عليه والإهانات المتوالية ، وكل هذا تحمله بصبر . فإذا ما علمنا أن هذه الفترة استغرقت ثلاثة عشر عاما ، أدركنا مقدار الصبر الذي تمتع به رسول الله ﷺ . وليس هذا فحسب بل كل ما أصيب به هو أصيب به أتباعه والأذى الذي لحق به لحق بأقاربه وهو الشريف ، وكل هذا يجرح نفس الإنسان ، ويحطم أعصابه ، ومع ذلك فما أبه صلى الله عليه وسلم لهذا كله ، بل تحمله وتحمل معه الإتهامات الباطلة بالجنون والكذب والسحر ... و ..

والذي جرب هذه القضايا كلها يعلم كم تحتاج إلى طاقة من الصبر لا تنفذ .
فإذا ما علمنا أن رسول الله ﷺ تحمل هذا كله ، وهو يقف من الناس موقف الهجوم وموقف الدعوة إلى ما عنده . نعلم أن المسألة هنا أكبر من الصبر ذاته .

٢ - فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر يمتحن فيه الصبر وهو موطن القتال ،

رأينا كذلك عجباً . ولعل أبرز مواقفه الصابرة في الحرب والتي تتحطم فيها أقوى الأعصاب موقفاه يوم أحد ويوم الخندق ، يوم الهزيمة الذي بقي فيه ثابتاً ، ويوم الحصار الذي أخذ بالأنفاس وبقي فيه كله أمل ، وهاك وصفا مختصرا لموقفه الصابر في اليومين .

— روى مسلم ان رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش .

« واستطاع المشركون أن يخلصوا قريبا من النبي فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه وربعاعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفجر منه الدم وشاع أن محمدا قتل فتنفر المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون ما يفعلون » .

« وكان رسول الله ﷺ ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبي وقاص ويقول إرم فذاك أبي وأمي وكان أبو طلحة الأنصاري راميا ماهرا في إصابة الهدف قاتل دون رسول الله ﷺ فكان اذا رمى رفع سول الله شخصه ينظر أين يقع سهمه .

في هذا اليوم الشديد إذ فر المسلمون ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا هذا العدد القليل ، ومع ذلك بقي صابرا يدير المعركة التي طرفاها ثلاثة آلاف مقابل أفراد . ولم يهزم ولكنه أصر مع من معه على الاستبسال . حتى رأى المشركون أن خسارتهم أكبر من ربحهم فتركوهم .

فأي صبر هذا الصبر ؟

ولا ننسى أن نذكر أن الشائعة بقتل محمد ﷺ كانت قد راجت والرسول ﷺ نفسه ، منع من عرفه من تكذيبها . حتى يشبط قريشا عن المضي في المعركة . فاذن هو صبر في أخرج المواقف لا يخرج صاحبه عن كامل التدبير .

— ويوم الخندق وقد حوصرت المدينة هذا الحصار الطويل الصعب الذي لم يعرف المسلمون فيه نوما ولا راحة ، والأحزاب تمطرهم بوابل من الحجرات

على الأمكنة الضعيفة وتحركات المسلمين من مكان إلى مكان خشية المباغثة وقد طالت الفترة وتعب المسلمون ، وكانوا كما وصفهم الله « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » في هذا الوضع المخيف يأتي الخبر الصاعق أن قريظة نقضت عهدها وقررت القتال وأصبح المسلمون جميعاً معرضين لقتل الأنفس وسبي الذرية فأى صبر يحتاجه القائد في تلك اللحظات في ذلك الموقف الذي يحطم الأعصاب .

لقد تقنع رسول الله ﷺ بثوبه واضطجع ومكث طويلاً حتى إذا هضم المسلمون خطورة موقفهم قام يبث الأمل ويشد العزائم ويرفع المعنويات وهو يقول :

« أبشروا بفتح الله ونصره » إن خطورة الموقف الشديد لم تؤثر ذرة على أعصاب القائد العظيم بل هو الصبر الذي يربو على الصبر .

٣- فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر من المواطن التي يمتحن فيها الصبر ، وهو موطن موت الأولاد والأقارب والأصحاب وقلب رسول الله ﷺ . القلب الرحيم ، ومع ذلك فإنه الصبر الذي يفيض العبرة بلا شكوى ولا ضجر ، وهذه أمثلة من مواقفه في هذه المواطن :

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك (رض) قال : رأيت إبراهيم وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ فدمعت عيننا رسول الله ﷺ فقال رسول الله : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون .

وأخرج ابن سعد أيضاً عن مكحول قال :

دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف (رض) وإبراهيم يجود بنفسه فلما مات دمعت عيننا رسول الله ﷺ فقال له عبد الرحمن أي رسول الله هذا الذي تنهى الناس عنه متى يرك المسلمون تبكي يبكون قال :

فلما شريت عنه عبرته قال : إنما هذا رحم وإن من لا يرحم لا يرحم إنما
نهي الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه .

ثم قال : لولا أنه وعد جامع وسبيل مثاء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا
عليه وجداً غير هذا وإنا عليه لمحزونون . تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول
ما يسخط الرب وفضل رضاعه في الجنة » .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال :

لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه لا تدري ما صنع فلقبت عليا
والزبير فقال علي للزبير أذكر لأمك وقال الزبير لعلي : لا أذكر أنت لعمتك
قالت : ما فعل حمزة ؟ فأريها أنها لا يدريان فجاءت النبي ﷺ فقال :
إني أخاف على عقلها فوضع يده على صدرها ودعا فاسترجعت وبكت ثم
جاء فقام عليه وقد مثل به فقال لولا جزع النساء لتركته حتى يحصل من حواصل
الطير وبطن السباع ثم أمر بالقتل فجعل يصلي عليهم فيضع تسعة وحمزة
فيكبر عليهم تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم
سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع
تكبيرات حتى فرغ منهم » .

وأخرج الطيالسي وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو عوانة
وابن حبان عن أسامة بن زيد (رض) .

قال : كنا عند النبي ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن
صبيا لها في الموت . فقال للرسول : ارجع اليها فأخبرها أن الله ما أخذ وله ما
أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فعاد الرسول فقال :
لأنها قد أقسمت لتأتينها فقام النبي ﷺ وقام معه سعد بن عباد ومعاذ بن جبل
وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم فرفع إلى رسول الله
الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شن ففاضت عيناه فقال له سعد : ما هذا
يا رسول الله؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من
عباده الرحماء » .

٤ - فاذا ما انتقلنا إلى موطن آخر من المواطن التي يمتحن بها الصبر وهو الصبر على المرض والجوع والفقر . نجد دائماً القمة التي لا يرقى إليها الراقون .

أخرج أحمد والطبراني وهذه رواية الطبراني :
أن فاطمة ناولت النبي ﷺ كسرة من خبز الشعير ، فقال : ما هذه ؟
قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال لها :
هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن بجير قال :
أصاب النبي ﷺ جوع يوماً فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ثم قال
ألا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا رب مكرم
لنفسه وهو لها مهين ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم .

وأخرج مسلم والترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال :
« ألسم في طعام وشراب ما شتم ؟ لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم
وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه (الدقل : اردأ التمر) » وفي رواية لمسلم عن
النعمان رضي الله عنه قال : ذكر عمر رضي الله عنه ، ما أصاب الناس من
الدنيا - فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدقل
ما يملأ بطنه .

وأخرج أبو نعيم في الحلية والخطيب وابن عساكر ، وابن النجار عن
أبي هريرة رضي الله عنه قال :

دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالساً فقلت يا رسول الله أراك تصلي
جالساً فما أصابك ؟

قال : الجوع يا أبا هريرة . فبكيت . فقال : لا تبك يا أبا هريرة ، فإن
شدة الحساب يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا .

وأخرج الطبراني وابن حبان في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال : خرج أبو بكر رضي الله عنه بالهاجرة إلى المسجد ، فسمع عمر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر ما أخرجك هذه الساعة ؟

قال ما أخرجني الا ما أجد من حاق الجوع (أي شدة الجوع) قال : وأنا - والله - ما أخرجني غيره . فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ قالا : والله ما أخرجنا إلا ما نجد في بطوننا من حاق الجوع قال : وأنا - والذي نفسي بيده - ما أخرجني غيره . فقوموا فانطلقوا .

وأخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا عن أبي سعيد رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك^(١) عليه قطيفة فوضع يده فوق القطيفة فقال : ما أشد حماك يا رسول الله . قال : إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر . ثم قال : يا رسول الله : من أشد الناس بلاء ؟

قال : الأنبياء ؟

قال : ثم من .

قال : العلماء .

قال : ثم من ؟

قال الصالحون .

وأخرج البيهقي عن أبي عبيدة بن حذيفة رضي الله عنه عن عمته فاطمة رضي الله عنهما قالت :

أتينا رسول الله ﷺ في نساء نعوذه وقد حُمَّ فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحمى فقلت : يا رسول الله ، لو دعوت الله أن يكشف عنك ، فقال : إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .

وأنت ترى من هذه الأمثلة أنه ما من موطن من مواطن امتحان الصبر إلا

(١) موعوك : محوم .

وقد امتحن فيه صبر رسول الله ﷺ . وفي كل مرة نجد عنده الصبر الذي لا يخالطه هلع ، إنها أخلاق النبوة في أعلى كمالات البشر .

ثانيا : نماذج من رحمته :

١ - والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر . تقسو قلوبهم وتجف دموعهم ، ونادرا ما تجد الموغل في ذلك متصفا بصفة الرحمة ، ولكن رسول الله ﷺ ومن اقتدى به ليسوا من هذا الطراز ، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجدت ، ولكنها صفات لا تطفى على خلق الرحمة أبدا ، بل كما ان هذه الصفات في كمالها فكذلك خلق الرحمة عنده ﷺ في كماله ، وقد رأيت في فقرة سابقة كيف تفيض عينه ﷺ في كثير من المواقف رحمة وشفقة ، وهو الصابر الذي ما عرف أكثر صبرا منه ، والمقاتل الذي ما عرف أكثر حنكة منه ، يفيض قلبه بالرحمة فيبكي وتدمع عيناه ، وقد يسمع صوت بكائه ؛ إنها نفس تجيش جيشانا ببهار الرحمة .

٢ - وهناك مواطن يفقد فيها الرحماء رحمتهم ولكن رسول الله ﷺ لا تفارقه رحمته ، يؤذى ويضرب ويضطهد فيقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ويوم فتح مكة وقد فعلت به ما فعلت ، كان موقفه غير المتوقع كما قص عمر قال : لما كان يوم الفتح ورسول الله ﷺ بمكة أرسل إلى صفوان بن أمية وإلى سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام قال عمر : فقلت :

لقد أمكن الله منهم لأعرفنهم بما صنعوا حتى قال رسول الله ﷺ مثلي ومثلكم كما قال يوسف لآخوته : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) . قال : عمر فافتضحت حياء من رسول الله ﷺ كراهية أن يكون بدر مني وقد قال لهم رسول الله ﷺ ما قال :

إن المواطن التي تغيب عادة فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقام أو

الإنتصار تبقى صفة الرحمة عند رسول الله ﷺ في محلها لا تطفئ على غيرها ولا يطفئ غيرها عليها .

— وكانت رحمته تسع الناس جميعا ويحس بها المستضعفون قبل الأقوياء ، يقول عبد الله بن عمرو : دخل النبي ﷺ المسجد فجلس إلى الفقراء وبشرهم بالجنة وبدا على وجوههم البشر فحزنت لأنني لم أكن منهم » .

وجاء في صحيح البخاري : « أن النبي ﷺ ذكر ذات يوم رجلا أسود فقال ما فعل ذلك الإنسان ؟ قالوا مات يا رسول الله ، قال : أفلا آذنتموني ؟ فقالوا : إنه كذا وكذا قصته فحقرها من شأنه ، قال دلوني على قبره فأتني قبره فصلى عليه » .

وقال معاوية بن سويد : كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا خادم إلا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : اعتقوها فقليل ليس لهم خادم غيرها فقال فليستخدموها فاذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها . وأخرج الشيخان عن أنس (رض) أن نبي الله ﷺ قال : إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي مما أعلم من وجد أمه من بكائه » .

وبلغت رحمته الحيوان فكان أرحم الخلق به .

قال عبد الرحمن بن عبد الله : كنا مع رسول الله في سفر فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) فلما جاء الرسول ﷺ قال : من فجع هذه بولدها ردوا ولدها اليها » .

ونهى أن يتخذ الحيوان هدفا يرمى بالنبال ليتعلم فيه الرمي ، وأمر من يريد الذبح أن يحذ شفرته ويريح ذبيحته وألا يذبح الحيوان بمرأى من الحيوان ، إن رحمته بلغت كل شيء .

— ولكنها الرحمة التي لا تتجاوز حدها :

لما أسر أبا عزة الشاعر أول مرة استعطفه حتى أطلق سراحه على شرط ألا يقف بعد اليوم ضده ، وتدور الأيام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله ﷺ فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله ﷺ يقول : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ويأمر بقتله . وهذا الذي سنه رسول الله ﷺ في هذه الحالة هو الذي أخذ به القانون الدولي في القرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذي يطلق سراحه بشرط عدم الدخول في المعركة ضد آسريه مرة ثانية إذا أسر بعدها يقتل .

إنها الرحمة التي تفيض حتى تعم الخلق ، ولكنها لا تتجاوز محلها فتطغى على صفات الكمال الأخرى .

إنها الرحمة التي تفيض حتى تكاد تقتل صاحبها أسي لما يرى انصراف الخلق عن طريق الجنة إلى طريق النار . حتى يعاتب الله عز وجل صاحبها : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

إنها رحمة النبوة وإنها صفاتها .

* * * * *

ثالثا : نماذج من حلمه

١- وله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الحلم - كما له من كل خلق - كماله . يغضب للحق اذا انتهكت حرماته وإذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتى يهدم الباطل وينتهي ، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب أو مسيء إلى رسول الله ﷺ نفسه يمكن إصلاحه ، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن وتجد حلمه دائماً عجيباً . يفوق الحد الذي يتصوره الإنسان خاصة وأن حلمه مع القدرة على البطش والقتل والإرهاب . إذ لا يشك أحد أن رسول الله ﷺ لو أمر بقتل إنسان لتبادر المئات إلى تنفيذ أمره . بل إن بعضهم لا يحتاجون إلى الأمر بقدر ما يحتاجون إلى الإذن . فلو أذن رسول الله ﷺ لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن

بنهوا كلامهم . ولكن الرسول الحليم ﷺ كان يتحمل ويحلم حتى إنك لتراه الحلم مجسما .

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما اذا أتاه ذو الخويصرة رجل من بني تميم فقال : يا رسول الله : اعدل ، فقال رسول الله ﷺ ويملك من يعدل إن لم أعدل ! لقد خبت وخسرت ! إذا لم أعدل فمن يعدل ، فقال عمر ابن الخطاب (رض) يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه ،

فقال رسول الله ﷺ دعه ... »

ويوم حنين اذ قسم رسول الله ﷺ ما قسم قال رجل : كما يروي البخاري — : والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت (أي عبد الله) ، والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال : من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله رحم الله موسى قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر . وروى أحمد عن عائشة قالت :

ما ضرب رسول الله ﷺ بيد مخادما له قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم . ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه حتى تنتهك حرمة الله فيكون هو ينتقم لله .

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجاء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك قالت أردت لأقتلك فقال : ما كان الله ليلسطك علي أو قال على ذلك قالوا : ألا تقتلها :

قال : لا ... »

وأخرج ابن جرير عن أنس (رض) قال : دخل رسول الله ﷺ يوما المسجد وعليه برد نجراني غليظ الصنعة فأتاه أعرابي من خلفه فأخذ بجانب رداءه حتى أثرت الصنعة في صفيح عنق رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أعطنا

من مال الله الذي عندك فالتفت رسول الله ﷺ فتبسم فقال : مروا له .
وأخرج عن أبي هريرة قال : كنا نقعد مع رسول الله ﷺ بالغدوات
في المسجد فإذا قام إلى بيته لم نزل قياماً حتى يدخل بيته فقام يوماً فلما بلغ وسط
المجلس أدركه أعرابي فقال :

يا محمد احملني على بعيرين فانك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك
وجذب بردائه حين أدركه فاحمرت رقبته فقال رسول الله ﷺ : لا واستغفر
الله لا أحملك حتى تقيدني قالها ثلاث مرات ثم دعا رجلاً فقال له : احمله على
بعيرين . على بعير شعير وعلى بعير تمر . ورواه أحمد .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال :
كانت امرأة ترافث الرجال (أي تكلمهم كلاماً بذيئاً) وكانت بذيئة
فمرت بالنبي ﷺ وهويأكل ثريداً على طربال فقالت : انظروا إليه يجلس كما
يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد .

فقال النبي : وأي عبد أعبد مني ؟
قالت : ويأكل ولا يطعمني .
قال : فكلي .
قالت : ناولني بيدك ، فناولها .
فقالت : اطعمني مما في فيك ، فأعطاهما فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث
أحدًا حتى ماتت .

وأخرج أبو نعيم عن عائشة قالت :
كان رسول الله ﷺ مع أصحابه فصنعت له طعاماً وصنعت له حفصة
طعاماً فسبقني حفصة فقلت للجارية : انطلقني فاكفني قصعتها فأهوت أن
تضعها بين يدي النبي فكفأتها فانكفأت القصعة فانتشر الطعام فجمعها النبي
وما فيها من الطعام على الأرض فأكلوا . ثم بعثت بقصعتي فدفعها النبي إلى

حفصة فقال : خذوا ظرفا مكان ظرفكم واكلوا ما فيها فما رأيت في وجهه رسول الله ﷺ .

وحلمه ﷺ أوسع من أن يحاط بجوانبه ، ولولا هذا الحلم ما استطاع أن يسوس شعبا كالعرب يأنف أن يطيع أو ينصاع أو يجرح ، وصدق الله العظيم « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » .

* * * * *

رابعا : نماذج من كرمه

إن الكرم في الإسلام طريق من طرق الجنة ، وإن البخل طريق النار . ولذلك فقد كان كرم رسول الله ﷺ لا يجارى . ولا يبارى . ان الله قد جعل خمس الغنائم اليه وكانت حصته عليه السلام من هذا الخمس الخمس . وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ولو أراد رسول الله ﷺ أن يجمع مالا لكان أكثر الخلق مالا . إن خمس غنائم حنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمان مائة من الجمال وثمانية آلاف أوقية من الفضة وألف ومائتان من السبي . هذا الخمس الذي لرسول الله ﷺ وقرباه منه خمسه فكم نتصور غنى الرسول ﷺ لو أراد أن يجمع مالا من غزواته كلها من خير الغنية وقريظة وبني النضير

فاذا ما علمنا مقدار حق رسول الله ﷺ المعطى له من هذه الأموال فقط مثل هذا واذا عرفنا أنه كان بالإمكان استثماره وتنميته ثم علمنا بعد ذلك أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي وأنه أمر أن يوزع ميراثه إن كان على المسلمين ، وأنه ليس لأقاربه من ميراثه شيء وأنه ما كان يلبس إلا الخشن ولا ينام إلا على القليل ، وأنه يجوع الأيام وأنه كان ينحس إذا بقي في بيته مال فلم يوزعه على الناس ، وكل ذلك قد مر منه أمثلة معك . أدركت أي كرم كان عنده ﷺ وأي نفس طاهرة هذه النفس وأدركت أنها النبوة . وأن غير

النبوة لا تجود بهذا الجود وترضى مع القدرة بهذه الحياة، الا اذا كانت نفساً متأسية برسول الله ﷺ . وقد شهد على ذلك أقوى الناس شركاً وعناداً وبغضاً له ﷺ فأسلموا نتيجة ذلك ولعل في ما ذكرناه غنية عن ضرب الأمثلة ولكن بالمزيد خيراً :

— أخرج الشيخان عن ابن عباس قال :

كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقى جبريل عليه السلام . وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن قال : فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

وأخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله (رض) قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا ..

وأخرج الطبراني عن الربيع بنت معوذ بن عفراء (رض) قالت : بعثني معوذ بن عفراء بصاع من رطب عليه آخر من قثاء زغب إلى رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ يحب القثاء وكانت حلية قد قدمت من البحرين فملاً يده منها فأعطانيها ،

وفي رواية : فأعطاني ملء كفي حلياً أو ذهباً ورواه احمد بن حنبل وزاد : فقال : تحلي بهذا .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أم سنبلة (رض) انها أتت النبي ﷺ فأبى أزواجه أن يقبلنها : فقلن إنا لا نأخذ فأمرهن النبي ﷺ فأخذنها ثم أقطعها وادياً .. »

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببردة فقالت يا رسول الله جئتك أكسوك هذه فأخذها رسول الله ﷺ وكان محتاجاً إليها فلبسها فرآها عليه رجل من أصحابه ، فقال يا رسول الله ما أحسن هذه اكسنيها فقال نعم . فلما قام رسول الله ﷺ لأمه أصحابه وقالوا ما أحسنت حين رأيت رسول الله ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألتها إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه . قال والله ما حملني على ذلك الا رجوت بركتها حتى لبسها رسول الله ﷺ لعلي أكفن فيها .

وأخرج أحمد عن أنس أن رسول الله لم يسأل شيئا على الإسلام إلا أعطاه قال فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة قال فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء ما يخشى الفاقة .

وزاد في رواية : فان كان الرجل ليحجى إلى رسول الله ما يريد إلا الدنيا فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها . وأخرج ابن عساكر في قصة إسلام صفوان بن أمية عن عبد الله بن الزبير ما يلي :

وأخرج رسول الله قبل هوازن وأخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحه فأعار سلاحه مائة درع بأداتها . فقال صفوان طوعا أو كرها .

فقال رسول الله ﷺ : عارية رادة فأعاره . فأمر رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنينا والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة فبينما رسول الله يسير في الغنائم ينظر إليها - ومعه صفوان بن أمية فجعل صفوان بن أمية ينظر إلى شعب ملاء نعما وشاء ورعاء فأدام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرمقه فقال : أبا وهب يعجبك هذا الشعب .

قال : نعم .

قال : هولك وما فيه .

فقال صفوان عند ذلك : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأسلم مكانه .

هذه نماذج من الكرم تضيء بجانبها كل قصص الكرم المعروفة المشهورة عند الناس . كرم يجعل صاحبه يعيش حياة الجهد والمشقة والفاقة ، حياة لا يطيقها أحد غيره هو وعباله ، مع هذا الملك العريض الواسع ، والسلطان الكبير والواردات الكثيرة ، وزيادة على ذلك انه لو أراد من أموال المسلمين شيئا لخاصة نفسه لكان المسلمون في ذلك كراما . وله الحق في ذلك أليس هو مدبر شؤونهم ومعلمهم ، ولكن هذا كله لم يحدث ، إنه كرم في النفس يمنع صاحبه

عن التطلع إلى أموال الآخرين ، وكرم في النفس لا يقوم معه من ملك صاحبه شي . إنها أخلاق النبوة العربية الهاشمية المصطفاة سليمة ابراهيم عليه السلام .

خامسا : نماذج من « تواضعه وتياسره »

ننقل هنا ما كتبه صاحب كتاب بطل الابطال تحت هذا العنوان مكتفين به في هذا الباب مع حذف بعض جمل المقال يقول :

صفة بينة لبطل الابطال ﷺ كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة في طبعه الكريم تلك هي ؛ : التياسر والتواضع فبهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الإنسان يؤتاها من صميم نفسه ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة ، كان محمد التياسر نفسه يتمثل في الرجل الكاهل : وينبعث من أعماق قلبه ، فيبدد ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يخدع به الناس من قول أو فعل ، كان محمد قريباً سهلاً هيناً يلقي أبعد الناس وأقربهم وأصحابه وأعداءه وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافرا فكانت أعماله تصدر طبيعية كل منها يدل على خلقه كما تدل الصورة على صاحبها واسمعوا الى عدي بن حاتم ..

يقول وقد كان يظن أنه سيلقى ملكا في المدينة :

دخلت على محمد وهو في المسجد فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟

فقلت : عدي بن حاتم ،

فقام وانطلق بي إلى بيته فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف طويلا تكلمه في حاجتها قال فقلت والله ما هذا بملك . قال ثم مضى بي رسول الله حتى إذا دخل بي إلى بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفا فقذفها إلي فقال اجلس على هذه قال : قلت بل أنت فاجلس عليها فقال بل انت : فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض ، قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك .. هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها يأتيه عدي وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى لجيوشه يأتيه مغلوبا فيجلسه على وسادة ويجلس هو على الأرض ...

ثم انظروا اليه وقد مات ابنه ابراهيم ، فكسفت الشمس فقال الناس :
كسفت الشمس لموت ابراهيم . فيقوم في المسجد : إن الشمس والقمر من آيات
الله لا تنكسفان لموت احد ولا حياته ...
هذه هي النفس البريئة التي تعشق الحق للحق . وتتعالى في تواضع عن استغلال
وهم من الأوهام .

* * * * *

انظروا كذلك اليه كيف يستأذن على أحد أصحابه وكيف ينصرف ؟

يقول قيس بن سعد :

زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد أبي
رداً خفياً فقلت لأبي : ألا تأذن لرسول الله فقال : زده حتى يكثر علينا من
السلام فقال ﷺ : السلام عليكم ورحمة الله ثم رجع فاتبعه سعد فقال :
يا رسول الله : إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام
فانصرف معه النبي ، وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة
بزعفران فاشتمل بها ثم رفع يديه وهو يقول اللهم اجعل صلواتك ورحمتك
على آل سعد .

فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً فقال سعد يا قيس اصحب رسول
الله فصحبته فقال اركب معي فأبيت فقال : إما أن تركب وإما أن تنصرف .

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة تمر في غير
حفل ولا ظهور . يذهب اليه ماشياً ، ويعود على حمار يريد أن يردف عليه
رفيقه . تلك السجية الظاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعاً وطاعته قرينة .
فإن يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء واستدامة
الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثال في
تاريخ الدعوة الإسلامية (بل في كل تاريخ) ولم تكن دعوته قيساً الى الركوب
معه على الحمار أمراً غريباً ، بل كانت هذه عادته يردف على حماره وبغلته

ونافته ويعاقب مع رفاقه (المعاقبة أن يركب واحد مرة ويركب الثاني أخرى)
قال ابن عباس : ان النبي ﷺ لما قدم مكة استقبله أغيلمة بني عبدالمطلب فحمل
واحدا بين يديه وآخر خلفه . وقال معاذ : كنت رادف رسول الله ﷺ على حمار
يقال له عفير ، وجاء اليه رجل وهو يمشي فقال : اركب وتأخر على جماره
فقال محمد : أنت أحق بصدر دابتك مني إلا أن تجعله لي : فقال الرجل : فإني
جعلته لك . ويقول جابر : كان رسول الله ﷺ يتخلف في السير ، فيزجي الضعيف
(أى يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف ، ويدعو لهم .

كان مرة في سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاما فقسم العمل
بينهم ، فقام يجمع الحطب فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى ، لأن الله يبغض الرجل
يتعالى على رفاقه . ولما وقف عليه أعرابي يرتجف خشية ، ذكره أنه ابن امرأة
من قریش كانت تأكل القديد وخرج على جماعة من أصحابه يتوكل على عصا ،
فقاموا له فقال : لاتقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضا ...

وكان محمد يكره الإطراء والألقاب : إنطلق اليه وفد بني عامر ، فلما
كانوا عنده قالوا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله ، فقالوا : وافضلنا فضلا :
وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا قولكم ، ولا يستجربنكم الشيطان .

كان في تياسره جم التواضع ، وافر الادب يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف
بكله إلى محدثه صغيرا كان أو كبيرا أو يكون آخر من يسحب يده اذا صافح .
واذا تصدق وضع الصدقة في يد المسكين ، واذا أقبل جلس حيث ينتهي المجلس
بأصحابه . لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ،
فكان يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته ويقول : أنا أولى بحملها .. ولم يستكبر
عن عمل الأجير والفاعل سواء كان في بناء مسجد المدينة أو في الخندق وهو
أمير الجيش يدفع الأحزاب .

وكان محمد كذلك متواضعا في ملبسه وسكنه . يلبس كعامة من حوله
ويسكن ، وقد واثته الدولة والسلطان في صف من حجرات واطئة مبنية باللبن ،

بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ملبس بالطين ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر . وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ويخسف نعله بيده ، ويخدم نفسه ويعقل بعيره ، ويأكل مع الخادم ويقضي حاجة الضعيف والبائس .

كل هذا التواضع والتياسر الصادق من نفسه الطاهرة ، والذي هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيئته ولا محبته ، وقد قيل في وصفه : من رآه بداهة هابه ومن عاشره أحبه . فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم وحب ووقار كامل ، لم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب ، وكثيراً ما بين لأصحابه كيف يتصرفون في حضرته وفي خطابه .

يقول .. ولیم مویر ... في وصف تواضعه وتياسره : « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته في معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع والشفقة والصبر والايثار والحدود صفات ملازمة لشخصه وجالبة لمحبة جميع من حوله فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنًا ، ولا هدية مهما صغرت وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه بإقباله وإن كان حقيراً . وكان اذا لقي من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره . وكان مع المصاب والحزين شريكاً شديد العطف حسن المواساة وكان في أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الإشتغال والتفكير في راحة من حوله وهناءتهم . »

ولسنا في تاريخ محمد بحاجة إلى أحد ، فإن مما اختص به من بين رسل العالم وإبطاله وضوح حياته وجلاءها من جميع نواحيها . وانما سقنا عبارة «موير» هنا لشعورنا أنها صادرة عن إعجاب صادق ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها ، لكان اليوم حياً بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التي طبعها على الوجوه بعمله وقوله لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يغطيها الطلاء ولا يحجبها رياء ولا ترى إلا على حالة واحدة في الليل والنهار وفي السر والعلانية وفي الشدة والرخاء وفي الضعف والقوة ، في السوق وهو في شبابه

وفي الشيخوخة وهو على عرش النبوة والملك .

وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها ، هي النفس التي اتصلت بالسماء وعاشت على الأرض دانية إلى الناس محبة اليهم في كل اطوار حياته . كان بطل الأبطال ﷺ المثل الأعلى الذي نحن اليوم أحوج ما نكون إليه في نطاق الأخوة الإسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه أو حسب أو نسب وإنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي والناس من آدم وآدم من تراب .

وأخيراً وبعد أن ضربنا لك أمثلة على خمس من أمهات أخلاق رسول الله ﷺ وضح بما لا يقبل الشك أن العالم لم يعرف ارتفاعاً في الأخلاق في كلياتها وجزئياتها وابعادها . بشمولها كله كما عرفه في رسول الله ﷺ وكما شهد بذلك القرآن العظيم . وأن منتهى آمال الأخلاقيين أن يقلدوه بخلق واحد من أخلاقه وهم لا يرتقون بهذا الخلق إلا إلى بعض ما هو عنده ﷺ . وإن الناس جميعاً بكل ما أوتوا من أخلاق لو جمعت أخلاقهم الحميدة فإنهم لا يبلغون أن يحيطوا إلا بالأقل مما كان (عليه السلام) . هذا مع أن الناس لا تخلص أخلاقيتهم مما يعابون عليه بحق . أما رسول الله ﷺ فكان الأخلاق كلها محضاً . ليس فيها ما يخالط مما يلام عليه الإنسان ، إلا إذا كان اللائم أعمى البصيرة ، يرى الخير شراً والشر خيراً ، أو حاسداً أو متكبراً أعماه الحسد والكيد عن رؤية الحقيقة التي لا تغيب عن أحد . وإن أحداً عرف الرسول ﷺ في زمانه من عدو أو صديق إلا وأسلم في ضميره أن الخلق المحمدي لا يرقى إليه مطعن ، وقد مر معك كثير من شهادة الأعداء وهم أعداء بذلك . وقدما قال أحد آباء زوجاته المشركين وقد بلغت خطبته لبنته ، « هو الفحل لا يجده أنفه » . وقال عكرمة بن أبي جهل بعد حربه الطويل لرسول الله هو وأبوه في لحظة اسلامه :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله وأنت أبر

الناس وأصدق الناس وأوفى الناس ، قال عكرمة : أقول ذلك وإنني لمطاطيء
رأسي استحياء منه ...»

* * * * *

وبعد فإلى الفقرة الثانية :

٢ - رجل الاسرة الاول : ابا وزوجا

١ - التعريف بأزواجه عليه السلام

قال ابن هشام : وكن تسعاً : عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة وسودة بنت زمعة بن قيس ، وزينب بنت جحش بن رثاب ، وميمونة بنت الحارث ابن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وصفية بنت حيي بن أخطب فيما حدثني غير واحد من أهل العلم .

وكان جميع من تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة . خديجة بنت خويلد وهي أول من تزوج . زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد ويقال أخوها عمرو بن خويلد وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم حليف بني عبد الدار فولدت له هند بن أبي هالة وزينب بنت أبي هالة وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية . وتزوج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق بمكة وهي بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ولم يتزوج رسول الله ﷺ بغيرها . زوجه إياها أبوها أبو بكر وأصدقها رسول الله ﷺ أربع مائة درهم . وتزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة .. زوجه إياها سليط بن عمرو ويقال : أبو حاطب ابن عمرو .. وأصدقها رسول الله ﷺ أربع مائة درهم وكانت قبله عند السكران بن عمرو ..

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رثاب الأسدية زوجه إياها أخوها

أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند زيد ابن حارثة مولى رسول الله ففيها أنزل الله تبارك وتعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) وتزوج رسول الله أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند وزوجه إياها سلمة بن أبي سلمة إبنها وأصدقها رسول الله فراشاً حشوه ليف وقدحاً وصفحة ومجشة (أي رحي) وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله فولدت له سلمة وعمر وزينب وزقية .

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب وزوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي .

وتزوج رسول الله أم حبيبة واسمها رملة بنت أبي سفيان بن حرب وزوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة وأصدقها النجاشي عن رسول الله أربع مائة دينار وهو الذي كان خطبها على رسول الله وكانت قبله عند عبيدة الله بن جحش الأسدي .

وتزوج رسول الله جويرة بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية كانت في سبايا بني المصطلق من خزاعة ف وقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري فكاتبها على نفسها فأنت رسول الله تستعينه في كتابتها فقال هل لك في خير من ذلك . قالت وما هو قال أقضي عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم فتزوجها ..

وتزوج رسول الله صفية بنت حيي بن أخطب سباها من خيبر فاصطفاهما لنفسه وأولم رسول الله وليمة ما فيها شحم ولا لحم كان سويقاً وتراً وكانت قبله عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق .

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث بن حزن .. وزوجه إياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها العباس عن رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى .. ويقال أنها التي وهبت نفسها للنبي وذلك أن خطبة

النبي انتهت إليها وهي على بعيرها فقالت البعير وما عليه الله ولرسوله فأنزل الله تبارك وتعالى « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها »... وتزوج رسول الله زينب بنت خزيمة بنت الحارث ... وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم زوجها إياها قبيصة بن عمرو الهلالي وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها .

فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسول الله إحدى عشرة فمات قبله منهن اثنتان خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة . وتوفي عن تسع قد ذكرناهن في أول هذا الحديث .

واثنتان لم يدخل بهما أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها فوجد بها بياضاً فمتعها وردها إلى أهلها . وعمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بكفر فلما قدمت على رسول الله استعازت من رسول الله فقال رسول الله : منيع عائذ الله ، فردها إلى أهلها ويقال أن التي استعازت من رسول الله كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان ويقال أن رسول الله دعاها فقالت : إنا قوم نوثى ولا نأثى فردها رسول الله إلى أهلها .

القرشيات من أزواج النبي ست : خديجة .. وعائشة .. وحفصة .. وأم حبيبة وأم سلمة .. وسودة بنت زمعة .

والعربيات غيرهن ست : زينب بنت جحش .. بن أسد بن خزيمة ، وميمونة بنت الحارث بن هلال بن عامر ... بن صعصعة ... بن قيس بن عيلان ، وزينب بنت خزيمة ... بن هلال بن عامر بن صعصعة ... ، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ، ثم المصطلقية ، وأسماء بنت النعمان الكندية ، وعمرة بنت يزيد الكلابية .

ومن غير العربيات : صفية بنت حيي بن أخطب من بني النضير .

* * *

ويقول الكافرون : إن هذا يخدش نبوة محمد ﷺ أن يكون له كل هذا العدد من الزوجات :

ونقول : إن الذين يقولون هذا الكلام أحد ثلاثة : إما إنسان له دين غير الإسلام والذي له دين . إما أن يكون دينه يقول بتعدد الزوجات أو لا . أو إنسان لا يؤمن بدين .

أما الإنسان الذي لا يؤمن بدين فهذا عملياً يستعمل آلاف النساء استعمال الزوجات ، ولا يرى في ذلك بأساً ولا يتحرج أن يضاجع أي امرأة ولو كانت أخته ؛ ولو كانت زوجة صاحبه ، وما أكثر ما سمعنا بأمثال هذا من هؤلاء . فلا محل لكلام هؤلاء ولا يناقشون أصلاً ، لأنه ليس لديهم مقاييس يمكن أن تكون معقولة يناقشهم الإنسان عليها .

وأما الذين لهم دين يقول بالتعدد المطلق فهؤلاء كذلك لا نقاش معهم إذ ما أبيع لهم كيف يحرمونه على غيرهم .

وأما الذين لهم دين يقول بعدم جواز التعدد كالنصارى الحاليين فإننا نقول لهم : أما أن عدم التعدد هو شريعة الله فهذا غير صحيح بدليل تاريخ الكنيسة عندكم وأما أن زواج الرسول ﷺ بهذا العدد من النساء يتنافى مع جلال النبوة . فإن الكتب التي بين أيديكم وتؤمنون بها وهي كتب العهد القديم ، تذكر أن من الأنبياء الذين تؤمنون بنبوتهم من تزوج بنساء أكثر بكثير من نساء سيدنا محمد عليه السلام . وقد ذكرنا أمثلة من هذا في مبحث الشهادات فلماذا تتناقضون ؟

غير محمد ﷺ من الأنبياء إذا تزوج أكثر منه فذلك لا يتنافى مع جلال النبوة أما هو فلا ؟

إن هذا عمنى عن الحقيقة وتجاهل لها ، فإن فرط الرجولة ليس عيباً في الرجل بل كمال فيه إذا بقيت ضمن الإطار الذي حدده الله .

إن الأنبياء منفذون لأوامر الله لا يخرجون عنها ، فإذا ما صحت نبوة نبي

وتصرف ضمن أوامر الله فلا حرج عليه وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش : « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

— ٣ —

إن ظاهرة الرسالة ظاهرة نادرة في التاريخ البشري وظهورها بمحمد ﷺ هو الظهور الأخير لذلك فقد خص الله رسوله ﷺ ببعض الأحكام وكل ما خص به ﷺ كان فيه نوع من التكليف أكبر ، ونوع من العبء أكبر ، وحتى هذه القضية قضية تعدد زوجاته ، كان غرمها أكبر من غنمها ، وعبؤها أكبر من سهولتها ، لما يترتب على ذلك من القيام بحقوق هذا العدد الكثير . وسياستهن وتدير أمورهن من جهد ، مع كثرة أعباء السيد الرسول ﷺ الأخرى من جهاد وتعليم وتدير ...

ولو تأمل الإنسان هذا الموضوع بعمق لوجد أنه دليل على النبوة والرسالة مستقل وذلك لما فيه من الحكم الكثيرة والمصالح المتعددة :

فلقد أحل الله لرسوله ﷺ أن يتزوج ما شاء بقوله :

« يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » .

ثم أخيراً أنزل :

« يا أيها النبي لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ... »

إذن بعد أن تزوج ما تزوج منع من الزواج فلم يتزوج بعد وجعل الله زوجاته أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد أن يتزوج منهن بعده ﷺ فما الحكمة في ذلك كله ؟

١ - إن الرسول ﷺ تزوج الكبيرة والصغيرة والوسط ، والمرأة في كل طور من أطوارها لها مشاكلها . وسيرة الرسول ﷺ العملية وأجوبته الدائمة بما يتفق مع كل طور ، ونقل هذا كله إلى الأمة الإسلامية مما تقتضيه مهمة الرسالة التي جعلها الله عز وجل مبينة لكل شيء مما يلزم الإنسان .

٢ - إن المرأة في الإسلام مكلفة كالرجل ، ولها وضعها الخاص الذي تختلف فيه عن الرجل . ووجود هذا العدد من النساء يساعد على نقل كل ما له علاقة في المرأة إلى الأمة الإسلامية . بحيث يكون أمهات المؤمنين أسوة النساء في العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربهن .

٣ - زواج الرسول ﷺ من هؤلاء النسوة الطاهرات وفيهن القرشية وغير القرشية وفيهن ذات الأصل اليهودي ، وفيهن من كان أبواها مهاجرين ، وفيهن من كان أبواها كافرين وقت زواجه منها ، ومنهن الصغيرة جداً ، ومنهن الكبيرة جداً حتى لا يرى المسلم حرجاً في الزواج من أي امرأة أحلها الله له ما دامت متوفرة فيها شروط الحل . وحتى لا يرى المسلم حرجاً في التعدد وهو كما سنرى في بعض الأحوال ضرورة لا بد منها .

٤ - والرسول ﷺ الذي افترض الله على المسلمين محبته ، قد استل به هذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لولا هذه الصلات من القرابة .

٥ - إن صلة الوصل في الغالب فيما له علاقة بالنساء كانت زوجات رسول الله ﷺ وكثرة زوجاته يجعل دائرة اتصال المسلمات به ﷺ أكثر ، وإيصال الأحكام إلى النساء متيسراً وكل واحدة منهن يألفها بعض النساء بجامع القرابة أو السن ، ولولا ذلك ما استطاعت امرأة واحدة أن تستوعب كل شئون النساء ولولا ذلك ما رأينا آلاف الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ من طرق زوجاته يتحدثن فيها عن آلاف الأمور كانت تبقى غامضة أو غير معروفة .

٦ - والإسلام قد أتى بمفاهيم جديدة ومثل كاملة مما له علاقة في المرأة وكان لا بد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النساء لضمان استبقائهن

واستمرارها وتأكيدها وهي قلب لمفاهيم سائدة ، وأوضاع فاسدة ، فكان هذا العدد من نساء النبي ﷺ يحقق هذه الحكمة :

٧ - ثم كان هذا الزواج حلاً لا بد منه في بعض الحالات .

فأم سلمة المخزومية بنت سيد مخزوم المهاجرة إلى الحبشة وإلى المدينة والتي استشهد زوجها ، وليس لها أحد وهي بنت زاد الراكب أبي أمية المخزومي وقد خطبها أبو بكر وعمر فرفضت . فهل تبقى وحدها أرملة وهي التي تحملت من أجل الإسلام ما تحملت ، إنه ليس هناك حل أبر وأكرم من ضم رسول الله ﷺ لها إلى نسائه وقد رضيت .

ورملة بنت أبي سفيان زعيم قريش بل العرب كلها ضد رسول الله ﷺ والتي أسلمت وهاجرت أباه وقومها وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها ثم تنصر زوجها وارتد ومات كافراً ، هذه تترك لمن ؟ أليست مكافأته في مكانتها أن تكون زوجة رسول الله ﷺ وكم سيكون لهذا أثره في نفس العدو الأكبر أبيها .

وزينب بنت جحش التي زوجها رسول الله ﷺ من متبناه زيد ولم تستقم حياتهما وأراد الله أن يهدم قاعدة التبني عند العرب التي لا تقوم على أساس معقول فهدمها بشكل جذري يوم أمر رسول الله ﷺ أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد .

وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها ، وقومها من أعز بيوت العرب عرضاً ، وقد أسر رجال قومها ، وسبي نساؤهم ، فتزوجها رسول الله ﷺ فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ وأفرجوا وأعتقوا كل من له علاقة بها .

وصفية بنت حيي كان أبوها ملك اليهود تقريباً وزوجها كذلك من ساداتهم وقد هلك أبوها وأخوها وزوجها وكان من سنته ﷺ الرحمة بعزيز قوم ذل فضمها إلى نسائه رحمة بها ، واستل ما بفؤادها من حقد كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة ، وبزواجه بعائشة وحفصة وثق الصلة أكثر بينه وبين أعظم رجلين بعده من أمته وهكذا ..

٨ - وفتح بهذا الزواج ﷺ لزعماء أمته أفقاً جديداً لا ينبغي أن يغيب عنهم

أثناء العمل المتواصل . وهو تقوية الصلات مع الآخرين بواسطة الزواج . وتوهين
حقن المغلوبين بهذه الوساطة ، وقد رأينا المسلمين استفادوا من هذا الجانب
استفادة كبيرة .

٩ - ثم هو بهذا الزواج وبسلوكه العملي العادل يبين الطريق الصحيح
للسلوك الذي ينبغي أن يسلكه من تعددت زوجاته ، بحيث لا تختل قيم
الحياة ، ولا تشعر المرأة بعذاب الظلم ، ويعرف النساء على حقوقهن وحدود
هذه الحقوق .

وبظهور هذه الحكم وواقعيتها التي ذكرناها والحكم التي لم نذكرها نرى
أن هذا الزواج أدل على النبوة .

وسنرى هذا أوضح عندما ندرس سيرته معهن ﷺ

٤ -

رأينا أن كل امرأة تزوجها رسول الله ﷺ كان في زواجها مصلحة
وحكمة وخلق عظيم وإنسانية عالية ، تلمح بها تصرفات النبوة ومثاليتهما
وأخلاقيتهما ، وسنرى في هذه الفقرة ونحن نستعرض الخطوط العريضة لسيرته
معهن ﷺ . أن كل خط من هذه الخطوط دليل على النبوة وأرقى أمثلة الأسوة

١ - أول هذه الخطوط العدل في السكن والنفقة والكسوة والمبيت والزيارات
والوقت . كان بينهن الحميلة جداً والكبيرة والشابة والعادية الجمال ، وما كان
يصرفه شيء من الميزات عن العدل ؛ لكل واحدة منهن ليلة ، وإذا زار إحداهن
زار بعد ذلك جميعهن وحتى وهو في مرضه الأخير وهو أحوج إلى الاستقرار
في بيت واحد لم يرض أن يستقر في بيت عائشة إلا بعد أن أذن له الجميع بذلك .
ومع هذه الدقة في العدل كان يستغفر الله من عدم عدله في المحبة . إذ لا سلطان
له على قلبه فيها ، بل السلطان لله فكان يقول :

« اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك » .

وكان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأياها خرج سهمها خرج بها رسول الله

معه . قالت أم سلمة « لما تزوجني رسول الله ﷺ أقام عندي ثلاثاً وقال : إنه ليس بك هوان على أهلك . إن شئت سبعت لك وإن سبعت لك سبعت لنسائي » .
وعن أنس ، من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعة ثم قسم وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً ثم قسم .

٢ - وثاني هذه الخطوط : التكافؤ في الإنسانية . فمن سنن الإسلام أن المرأة كالرجل في الإنسانية إلا أن زوجها رئيسها « ولهن مثل الذي عليهن — بالمعروف وللرجال عليهن درجة » وهذا شيء غير مألوف لا عند العرب ولا في زمان نزول الإسلام ولكنه دين الله .

ومن أمثلة هذا التكافؤ في حياة الرسول ﷺ العملية ، أنه كان ينزل على مشورة بعض نسائه وأنه كان يسمح لهن بمناقشته ، وإذا تزوج امرأة فبرضاها . يوم الحديبية أمر المسلمين بأن يخلقوا وينحروا بعد الصلح ليتحللوا . فبقوا واجمين فدخل على زوجته أم سلمة وهو متأثر فسألته : فأخبرها فقالت : يا رسول الله أتحب ذلك ؟

أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، فلما رأى المسلمون ما صنع النبي ﷺ زاح عنهم الدهول فقاموا عجولين ينحرون هديهم ويخلق بعضهم بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل الآخر ..

وقال عمر : فتغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت : ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل قال فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ قالت : نعم . قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت نعم . « قلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر » .

وقال أنس في الحديث عن صفية : « فكان ﷺ يحوي لها وراءها بعباءة ثم يجلس عند بغيره فيضع ركبته فتضع صفية (رض) رجلها على ركبته حتى تركب » .

فإذا ما عرفت أنه في عصر الفروسية في أوروبا الذي يعتبر العصر الذهبي للمرأة ما كانت تجرؤ امرأة على أن تقدم مشورة لزوجها . أدركت أن تصرف محمد رسول الله ﷺ ليس وليد بيئته ولا زمانه وإنما هو تصرف الأنبياء .

ينقل العقاد هذه الحادثة ويعلق عليها من كتاب لغربي يتحدث عن المرأة في عصر الفروسية قال :

يروى (أي صاحب الكتاب) فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت إلى قرينها الملك يبين تسأله معونة أهل اللورين ، فأصغى إليها الملك ثم استشاط غضباً ولطمها على أنفها بجمع يده . فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول « شكراً لك . إن أرضاك هذا فأعطني من يدك لكمة أخرى حين تشاء » .

ولم تكن هذه حادثة مفردة ، لأن الكلمات على هذا النحو كثيرة ماتتكررت كأنها صيغة محفوظة ، وكأنما كانت اللكمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة » .

ولكن المظهر الأعظم من مظاهر هذا التكافؤ . أن رسول الله ﷺ ما كان يستنكف داخل بيته أن يقوم بحاجته ، وأن يخدم نفسه ، بل إنه كان يقوم أحياناً بحاجة أهله ، وكان يقول :

«خدمتك زوجتك صدقة» ، وإذن فقيام المرأة بشأن البيت ليس عاراً يترفع عنه الرجل ، بل هو كمال يتناول إليه الرجل ولا يأنف ، وكيف يأنف المسلم وقد فعله رسول الله ﷺ .

٣ - والمرأة تحب من زوجها أن يكون جميلاً متجملاً ، وأن يقضي حقها الجنسي ، وأن يكون لطيفاً معها مؤنساً لها ، وهذا كله خط آخر من خطوط معاملة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأزواجه .

فقد كان أجمل الناس وكان مع هذا الجمال أنيقاً ، لا يطبق ما يتنافى مع هذه الأناقة مع بساطة المظهر وكان يقول : اغسوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت

نساؤهم. ويقول « فإذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها » وكان يفعل هذا كله وأكثر منه فقد ورد في وصفه إذا خلا مع أهله :

« كان ألين الناس ضحاكاً بساماً »

« كان أفكه الناس مع نسائه »

« كان رسول الله ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشر . قيل لأنس وكان يطيقه ؟ »

قال : كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين في الجماع .
وكان من آداب الإسلام أنه إذا كان للرجل زوجة أن يعفها . أي أن يجامعها حتى لا تشعر بحاجة إلى الرجال .
وجعل رسول الله ﷺ مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته إذ أنها الضعيفة تحت يده ، الدائمة العشرة له ، فكان من كلامه « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » وما ضرب امرأة قط وكان يؤنب من يضرب .
« أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره » .

٤ - والخط العريض الرابع في معاملته لزوجاته حسن سياستهن وتأديبهن :
كن يغرن وكان يتحمل هذه الغيرة إلا أن تخرج عن الخط السوي فيؤدب :
تقول عائشة (رض) : ما رأيت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً وهو في بيتي ، فأخذني أفكل - أي قشعريرة - فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال إناء مثل إناء وطعام مثل طعام .

وكان يداري قلوبهن حتى تصفو . تقول صفية : وما كان أبغض إلي من رسول الله ﷺ قتل أبي وزوجي فما زال يعتذر إلي وقال : يا صفية : إن أباك ألب علي العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسي .

وكن يأخذن حربتهن في الكلام فيسمع ويرد ويؤدب :
كان رسول الله ﷺ يحفظ لخديجة ذكراها بشكل منقطع النظير فهو آية
الوفاء في دنيا المروءة وكان من وفائه لها أنه يبر كل امرأة كانت لها صلة
بخديجة وأنه كان يذكرها بكل خير حتى أن عائشة لم تغر من امرأة كما غارت من
خديجة وهي متوفاة قالت له مرة :
خديجة خديجة لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة . فتركها فترة ثم عاد
وأما أم رومان عندها فقالت له أمها : يا رسول الله مالك ولعائشة : إنها حديثه
السن وأنت أحق من يتجاوز عنها فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو
يقول لها :

ألسن القائلة كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة ؟
وقالت له مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدين قد بدلك الله خيراً منها
فأسكتها قائلاً :

« والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بمالها
حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » .

وقالت : دخل علي يوماً رسول الله ﷺ فقلت : أين كنت منذ اليوم ؟ قال
ياحميراء كنت عند أم سلمة . قلت ما تشبع من أم سلمة فتبسم ثم قلت يا رسول
الله ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت
أيهما كنت ترعى ؟ قال : التي لم ترع قلت فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل
امرأة من نسائك كانت عند رجل غيري فتبسم عليه السلام .

وكن يمزحن فيشار كهن سرورهن .

أخرج أبو يعلى عن عائشة (رض) قالت : أتيت النبي ﷺ بحريرة قد
طبختها له فقلت لسودة (رض) والنبي ﷺ بيني وبينها : كلي فأبت فقلت
لتأكلين أو لألطنن وجهك فأبت فوضعت يدي في الحرية فطليت وجهها
فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها : الطخي وجهها فضحك النبي ﷺ
لها .

وفي رواية فخفض لها ركبته لتستقيد مني فتناولت من الصفحة شيئاً
فمسحت به وجهي ورسول الله ﷺ يضحك .

هـ - والخط العريض الخامس أنه صلى الله عليه وآله وسلم رفعهن إلى أخلاق
النبوة ولم يستطعن أن يحدن به عن طريقه ، وأعظم حادث يصور لنا هذا الوضع هو
حادث تخييرهن إذ طلبن أن يوسع عليهن في المعيشة والنفقة ، وكانت سنة رسول
الله ﷺ الإعراض عن الدنيا وطلب الآخرة ، فكانت النتيجة أن خيرهن بين
البقاء عنده ، والرضى على هذه الحياة الهادفة إلى اليوم الآخر . أو الطلاق ،
وأمرهن بيدهن ، وهذا غاية العدل وغاية الخزم .

وهذه هي القصة كما يرويها بعض الصحابة :

أخرج أحمد عن جابر (رض) قال :

- أقبل أبو بكر (رض) يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس
والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر (رض) فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن
لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت
فقال عمر لأكلمن النبي لعله يضحك فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد
امرأة عمر سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها فضحك النبي حتى بدت نواجذه
وقال : هن حولي يسألني النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر
إلى حفصة كلاهما يقولان :

تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لا
نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال وأنزل الله عز وجل الخيار
فبدأ بعائشة فقال : « إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري
أبويك قالت وما هو ؟ قال فتلا عليها « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتم
تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً وإن كنتم
تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .
قالت : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا

تذكر لامرأة من نساك ما اخترت فقال ﷺ إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها .

وروى أحمد من حديث طويل عن ابن عباس عن عمر قال :

فقلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نساؤهم فتغضبت علي امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت :

ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر ، أفأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي قد هلكت . فتبسم رسول الله فقلت يا رسول الله فدخلت على حفصة فقلت : لا يغرك إن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟

قال : نعم

فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهبة (جلوداً) ثلاثة فقلت : أدع يا رسول الله أن يوسع علي أمتك فقد وسع علي فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا .

فقلت : استغفر لي يا رسول الله .

وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل .

وفي كل ما نقلناه لك من هذه الخطوط تجد الزوج المثالي والقدوة العليا في كل أمر . ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذه الفقرة أن نذكر أن الرسول ﷺ الذي كان عنده هذا العدد من النساء ، والذي كان يقوم بواجبه تجاههن ، والذي كان يعطينهن من ذاته ما رأينا . هو الذي كان يقوم بالأعباء الضخمة التي لم يتحمل

مثلها رجل غيره . من عبادة إلى سياسة إلى قتال إلى تدبير أمر ، ومن عادة الناس أن يشغلهم شيء من هذا عن أهليهم ، ولكنه الكمال عند رسول الله ﷺ حيث تقوم الواجبات كلها ومع الواجبات غيرها ولا يؤثر القيام بإحداها على غيره وذلك من دلائل النبوة والرسالة .

وأخيراً :

يقول العقاد : قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات للدليل على فسرط المبول الجنسية .

قلنا : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء .
ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ، ويشعر بمتعتها : هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين ، والتقاء الذكر والأنثى ، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى .

أرأيت إلى السمك وهو يعبر الماء المالح في موسمه المعلوم فيطوي ألوفاً مسن الفراسخ ليصل إلى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟ أرأيت إلى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته إلى وطنه ؟ أرأيت إلى الزهر وهو يفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه ؟

أرأيت إلى سنة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هي سنتها إن لم تكن هي سنة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء ؟

فحب المرأة لا معابة فيه .

هذا هو سواء الفطرة لا مراء .

ولنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططاً في طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطبائع .

فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟ .

مَن من بناء التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية ، والدول الإسلامية ؟ ومن ذا الذي يقول أن هذا عمل رجل مشغول ؟
عمَّ شغلته المرأة ؟

ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد في مسعاه ؟ .

فإن كانت عظمة الرجل قد أتاح له أن يعطي الدعوة حقها ويعطي المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب . ورسالة محمد إذن هي الرسالة التي يتلقاها أناس خلقوا للحياة ، ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها ، فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة ، فيما يخاطب به عامة الناس في عامة العصور . وأعجب شيء أن يقال عن النبي أنه استسلم للذات الحسنة وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن في الطلاق لأنهم طابن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها .

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات .

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسنة ؟ أما كان عليه يسيراً أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهم ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال أنه كان يفرط في ميله إلى النساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سنته أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟ لم يكلفه شيئاً من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نر هنا رجلاً تغلبه لذات الحسنة كما يزعم المشهرون . بل رأينا رجلاً يغلب تلك الملذات في طعامه ومعيشته وفي ميله إلى

نسائه . فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد .

وهكذا نبحت عن الرجل الذي توهمه المشهرون من مؤرخي أوروبا فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم راهم .
نرى رجلاً كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه ؟
ونرى رجلاً تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحلين بها لعينيه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه .
ونرى رجلاً أثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التي كانت في وسعه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه .
ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاماً مضحكاً مستغرباً لأفلحوا فيما قالوه ... أقبح فلاح .

ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولاً قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخطب الذريع . فمحمد كان معروف الشاب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتي من قریش وأهل مكة .

كان معروفاً من صباه إلى كهولته ، فلم يعرف أنه استسلم للذات الحس في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما كان يلهو الفتیان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح ... بل عرف بالطهر والامانة واشتهر بالجد والرصانة ... وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شائنيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذي كان من شأنه مع النساء كبت وكبت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبت الشهوات ... كلام لم يقل أحد

هذا قط من شائنيه وهم عديد لا يحصى ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل .

إلا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التي سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ، ولم يذكروا إلا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته ، ليفتروا على النبي ما طاب لهم أن يفتروه وذاك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات .

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق في غير مشقة عندهم ولا معابة .

ونسوا أنه بقي إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف في طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات .

ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في نحو الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين .

ونسوا أنه اختار أحسابا في حاجة إلى التألف أو الرعاية ولم يختار جمالا مطلوبا للمتاع .

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه ... ولو شاء لما كلفه إرضاءهن غير القليل بالقياس إلى ما في يديه .

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه السلام فلماذا نسوه ؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة وقد

كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها : لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها .

— ٥ —

وبعد فهل رأيت زوجا مثل محمد ﷺ بين الأزواج : إنك لن ترى ، وكذلك لن ترى مثله أباً بين الآباء :

أخرج مسلم عن أنس بن مالك (رض) قال : ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ : قال : كان إبراهيم (أي ابنه الصغير) مسترضعاً له في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه (أي البيت) ليدخن وكان ظهره قيناً فيأخذه فيقبله ثم يرجع .

وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب (رض) قال : رأيت الحسن والحسين (رض) على عاتقي النبي ﷺ فقلت نعم الفرس تحتكما . فقال النبي ﷺ ونعم الفارسان هما .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس (رض) قال : خرج النبي ﷺ حاملاً الحسن (رض) على عاتقه فقال له رجل : يا غلام نعم المركب ركبت . فقال النبي ﷺ ونعم الراكب هو .

وأخرج الطبراني عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ يصلي فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على ظهره فكان إذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه أو أمسكهما قال : نعم المطية مطيتكما .

وأخرج الطبراني عن جابر قال دخلت على النبي ﷺ وهو يمشي على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين (رضي الله عنهما) وهو يقول : « نعم الحمل جملكما ونعم العدلان أنتما » .

وأخرج الطبراني عن جابر (رض) قال : كنا مع رسول الله ﷺ فدُعينا إلى طعام فاذا الحسين (رض) يلعب في الطريق مع صبيان فأسرع

النبي ﷺ أمام القوم ثم بسط يده فجعل حسين يفر ههنا وههنا فيضاحكه رسول الله ﷺ حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبله ثم قال : حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه . الحسن والحسين سبطان من الأسباط .

أرأيت رسول الله ﷺ في جلاله العظيم كيف يعطي الأولاد حقهم وليس أولاده فقط بل كل الأولاد .

أخرج أحمد عن عبد الله بن الحارث (رض) قال : كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثير بن العباس (رض) ثم يقول : من سبق إلي فله كذا وكذا قال : فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزم .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر (رض) قال : كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته وإنه جاء من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة الحسن أو الحسين (رض) فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة .

وأخرج ابن عساكر أيضاً عن عبد الله بن جعفر قال : مرني رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الصبيان فحملني أنا وغلاما من العباس (رض) على الدابة فكنا ثلاثة .

وأخرج ابن عساكر أيضاً : عنه قال : لو رأيتني وقثما وعبد الله ابني عباس (رض) ونحن صبيان نلعب إذ مر رسول الله ﷺ على دابة فقال : ارفعوا هذا إلي فجعلني أمامه وقال : ارفعوا هذا إلي فجعله وراءه وكان عبيد الله أحب إلي عباس من قثم فما استحيا من عمه أن حمل قثما وتركه قال : ثم مسح على رأسي ثلاثا كلما مسح قال : اللهم اخلف جعفرا في ولده .

ولا تحسب أن هذا الإكرام للصبيان فقط بل للبنات والصبيان :

وأخرج البخاري عن أبي قتادة قال خرج علينا النبي ﷺ وأمامه بنت أبي العاص (رض) (أي بنت بنته) على عاتقه فصلى فإذا ركع وضع وإذا

رفع رفعها .

أخرج الطبراني عن السائب بن يزيد (رض) أن النبي ﷺ قبل حسنا (رض) فقال له الأقرع بن حابس لقد ولد لي عشر ما قبلت واحداً منهم فقال النبي ﷺ لا يرحم الله من لا يرحم الناس .

وأخرج أبو يعلى عن أنس (رض) قال كان رسول الله ﷺ يسجد فيجيء الحسن والحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال : يا نبي الله أطلت السجود فيقول : ارتحلني ابني فكرهت أن أعجله .

والشعب الذي كان يثد البنات ويرى أن موت البنات من المكرمات ، ولا يرى أحدهم البنت شيئاً ، ويستقبل ولادتها هذا الاستقبال السيء الذي وصفه القرآن « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » . هذا الشعب هو الذي كان منه رسول الله ﷺ وكان يعامل بناته بما يلي . فهل تراها بعد ما تقرأها اخلاقاً وليدة بينتها ، أو أنها النبوة والتربية الإلهية لصاحبها ، وحاشا أن تكون إلا الثانية .

أخرج البخاري عن عائشة (رض) قالت : ما رأيت أحداً من الناس كان أشبه بالنبي ﷺ كلاماً ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة (رض) قالت : وكان النبي ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه وكانت إذا أتاها النبي ﷺ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته . وإنها دخلت على النبي ﷺ في مرضه الذي قبض فيه فرحبت وقبلها وأسر إليها فبككت ثم أسر إليها فضحكت « ولما سألتها عائشة عما أسر لها رفضت أن تجيبها حتى إذا قبض ﷺ قالت فاطمة « أسر إلي فقال : إني ميت فبكيت ثم أسر إلي فقال : إنك أول أهلي بي لحوقاً فسررت بذلك وأعجبني » . وماتت فاطمة بعد ستة أشهر من رسول الله ﷺ .

وأخرج الترمذي عن جميع بن عمير التيمي قال : « دخلت مع عمتي على عائشة (رض) فسئلت أي النساء كان أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت فاطمة . فقيل من الرجال ؟ قالت : زوجها إن كان ما علمت صواما قواما » .

وعن المسور بن مخرمة (رض) قال : « خطب علي بنت أبي جهل وعنده فاطمة فسمعت بذلك فأتت النبي ﷺ فقالت يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل فقام النبي ﷺ فتشهد وقال أما بعد فأني أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني وإن فاطمة بضعة مني يربني ما يربها والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبدا قال فترك علي الخطبة .

وفي رواية أخرى قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن الا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فانما هي بضعة مني يربني ما يربها ويؤذيني ما آذاها » أخرج الحمسة إلا النسائي .

أرأيت برا أبلغ بالبنات من هذا البر وما ذكرناه نموذج وإلا فأني بنت من بناته الأربع كانت تلاقي من العطف والبر ما تلاقيه فاطمة (رض) . لأنها كمال الأبوة في أكمل نبي .

* * * * *

ولكن الشيء الأدل في هذا الباب على أخلاق النبوة مع هذه المحبة أنه ما كان ليرضى لبنته أن تعيش إلا كما يعيش أكثر الناس فقرا . ذلك طابع الحياة التي يريد لها رسول الله ﷺ لنفسه ولأهله ، حتى لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، وحتى تتمحص أنفسهم لله واليوم الآخر وتأمل هذه الأمثلة وتذكر أن أحب الخلق إليه بشهادة عائشة هي فاطمة :

« أخرج البيهقي في الدلائل عن علي قال :

خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لي : هل علم فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ ؟ قلت لا : قالت قد خطبت فما أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك فقلت : وعندي شيء أتزوج به ؟ فقالت إن جئت رسول الله ﷺ زوجك قال : فوالله ما زالت ترجيني حتى دخله رسول الله ﷺ فلما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن جلالة وهيبه فقال رسول الله ﷺ ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت ف

لعلك جئت تخطب فاطمة

فقلت : نعم

فقال : وهل عندك من شيء تستحلها به

فقلت : لا والله يا رسول الله

فقال : ما فعلت درع سلحتكها ؟ فوالذي نفس علي بيده إنها ما قيمتها أربعة دراهم ، فقلت : عندي فقال : قد زوجتكها فابعث فاستحلها بها فان كانت لصدّاق فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

وأخرج النسائي عن ثوبان :

.... فانتزعت فاطمة سلسلة في عنقها من ذهب فقالت : هذه إلي أبو حسن فدخل صلى الله عليه وسلم والسلسلة في يدها فقال : يا ف أيسرك أن تقول الناس : ابنة رسول الله ﷺ في يدها سلسلة من نار ؟ فلم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فأعتقته رسول الله ﷺ بذلك فقال : الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار .

وأخرج البخاري ومسلم : قال علي لابن أعبد ألا أحدثك غني وعن قلت بلى قال : أنها جرت بالرحى حتى أثمر في يدها واستقت بالقربة حو في نحرها وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها (وأوقدت القدر حتى ثيابها) فأتى النبي ﷺ خدّم فقلت لو أتيت أباك فسألته خادماً فأتته عنده حدثاً فرجعت فأتاها من الغد ~~فكان~~ ما كان حاجتك ؟ وسكنت

أنا أحدثك يا رسول الله جرت بالرحى حتى أثرت في يدها وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها فلما ان جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ما هي فيه فقال : اتقي الله يا فاطمة وأدي فريضة ربك واعلمي عمل أهلك وإذا أخذت مضجعتك فسبحي ثلاثاً وثلاثين واحمدي ثلاثاً وثلاثين وكبري أربعاً وثلاثين فتلك مائة فهي خير لك من خادم فقالت : رضيت عن الله وعن رسوله ولم يخدمها .

* * * * *

ان كمال محمد ﷺ كزوج وكماله كأب . كماله في عدله وفي رحمته وفي لطفه وفي أنسه ، وفي رعايته وفي حسن سياسته وفي استقامته ، وفي حمل أزواجه وأولاده على طريقه . كل هذا شاهد صدق ودليل حق على أنه المثل الأعلى للإنسان في كل جانب من جوانب حياته ، وانه القدوة العليا لكل إنسان في أي جزء من أجزاء تصرفاته .
وإلى الفقرة الثالثة :

٣ - المعلم والمربي الاول :

- ١ -

لقد حدد رسول الله ﷺ مهمته الأساسية بقوله : « إنما بعثت معلماً » والقرآن الكريم ذكر هذه المهمة الأساسية لرسول الله ﷺ بصراحة فقال : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوه عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول التعليم والتربية. تعليم الكتاب والحكمة وتربية الأنفس عليهما ، وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله ﷺ مستغرقاً بهذا الجانب اذ أنه هو الجانب الذي ينبع عنه كل خير ولا يستقيم أي جانب من جوانب الحياة سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو عسكرياً أو أخلاقياً إلا به ولا يؤتى الإنسان ولا تؤتى أمة ولا تؤتى الإنسانية إلا من

التفريط في العلم الصحيح والانحراف عنه . إما إلى الجهل أو إلى ما يضر علمه ولا ينفع .

فالامة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها ، وبلا تربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه . تصبح أمة فوضوية تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة . ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر وعادات وتصورات تختلف فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد .

والظاهرة التي نجدها في تاريخ محمد ﷺ ان السيد الرسول بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية . بحيث ينبت الفرد فيها عن صلته بأي عالم غير عالم هذه الأمة ، من حيث العقيدة والسلوك فصهر أفراد هذه الأمة انصهارا تاما . ثم أطلق هذه الأمة في اتجاه وحيد حدد فيه لكل فرد مهمته ، ورباه على ادائها ، وحدد للجميع المهمة الكبرى ، ورسم لهم الطريق ، موضحا لهم كل شيء في كل جانب ، وقادهم في هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضيا إلى ربه ، فانطلقوا بعده لا يغيروا ولا بدلوأ فكان ما كان ولا زال . مما نشاهده من آثار المسلم العظيم الذي كلما تعثر أخذت بيده تعاليم محمد وتربيته فأنقذته وقذفت به إلى الأمام .

— ٢ —

وبعد فإننا نقول : إن كمال المرء يظهر :

١ — بمقدار ما يستطيع أن ينقل نفس الإنسان وعقله من حالة دنيا إلى حالة أعلى وكلما رقي بالإنسان أكثر كلما دل ذلك على كماله أكثر .

٢ — في سعة دائرة البشر الذين استطاع أن ينقلهم إلى كمالهم الإنساني ، فكلما كانت الدائرة أوسع كلما كان أدل على الكمال .

٣ — ثم في صلاحية هذه التعاليم والتربية ، وحاجة الناس جميعا لها ، واستمرار ايتاء هذه التعاليم آثارها على مدى العصور . بحيث لا يستغني البشر

عنها ، وبشهادة العدو والصدیق والمؤمن والكافر ما بلغ أحد في تاريخ البشرية ما بلغه محمد ﷺ في هذه الجوانب كلها حتى قال موير : « لم يكن الإصلاح أعسر ولا أبعد منا لا منه وقت ظهور محمد ولا نعلم نجاحا وإصلاحا تم كالذي تركه عند وفاته ». وقالت دائرة المعارف البريطانية « لقد صادف محمد النجاح الذي لم ينل مثله نبي ولا مصلح ديني في زمن من الأزمنة ». ويقول بوزورث اسمث : « إن محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق » .

ويقول هيل :

« ان جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا في تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والانبياء قد أثروا تأثيرا عميقا في حضارة عصرهم وأقوامهم ولكننا لا نعرف في تاريخ البشر أن دينا انتشر بهذه السرعة ، وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الإسلام ولا نعرف في التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد . لقد أخرج أمة إلى الوجود ومكن لعبادة الله في الأرض وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأصل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضى » .

هذه شهادة الدارسين ممن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وقد أعماهم حقد صليبي موروث فشهدوا ولم يؤمنوا . وما اغنانا عن شهادتهم وشهادة الواقع أماننا على كل جانب من هذه الجوانب المذكورة آنفا وهاك آثار تربيته :

أصحاب الرسول ﷺ الذين شرفوا برؤيته والإيمان به عشرات الألوف . من هذه الألوف من رافقه كل فترة البعثة ، ومنهم من رآه مرة فسمع منه حديثا . وإذا أنت أجريت مقارنة بين حياة هؤلاء قبل تلمذتهم على محمد ﷺ وبين حياتهم بعده ، بين واقعهم قبل ذلك وبين واقعهم بعده ، بين أعمالهم وتصرفاتهم قبل وبين أعمالهم وتصرفاتهم بعد . بين أهدافهم الأولى وأهدافهم الثانية . بين تصوراتهم عن الله والكون والإنسان أولا وبين تصوراتهم ثانيا ؛

إنك تخرج نتيجة المقارنة وأنت ترى النقلة البعيدة الكبيرة الواسعة التي نقل رسول الله ﷺ هؤلاء من طور إلى طور ، من حضيض إلى سمو لا يسمو آخر .

خذ مثلاً شخصية عمر بن الخطاب في الجاهلية تجده رجلاً قبلياً والطبيعة والعاطفة والتصور ، محدود الإدراك ، همه في الحياة : السكر والبطالة مع أصدقائه . ولولا رسول الله ﷺ لعاش عمر ومات عمر وما أبع به أحد ولكنه ما أن يشرب كأس الإسلام من يد رسول الله حتى يصبح المشرع العبقري الفذ ، ورجل الدولة العظيم الكبير ، ورمز العدل الذي لا يلامه مع الحزم والرحمة ، وسعة الأفق وصدق الإدراك وحسن الفراسة عمر الذي أصبح ملء الدنيا سمعها وبصرها . ما كان ليكون شيئاً لو تربي في حجر رسول الله فأخذ منه العلم والحكمة والتربية .

عبد الله بن مسعود راعي الإبل المحقر المهان في قريش ، الذي ما يعرفه إلا سيده ومن يستخدمه ، هذا الرجل النحيل القصير الحميش الساذج ماذا يصبح بعد أن ربه يد النبوة ، يصبح الرجل الذي يعتبر مؤسس مدرسة في الفقه الإسلامي والتي ينتسب إليها أبو حنيفة النعمان ، يصبح الذي يقول فيه عمر لأهل الكوفة : لقد آثرتكم بعبد الله على نفسي .

إنك عندما تدرس شخصية الإنسان قبل اتصالها برسول الله وبعد اتصالها تجد أن كل شيء فيها قد تغير وتجد كل طاقاتها وملكاتهما قد انطلقت في الاتجاه الصحيح . الطاقات الجسمانية . والطاقات العقلية . والطاقات النفسية . والطاقات الروحية . والطاقات الوجدانية ، والمعنوية والأخلاقية . هذه الطاقات انطلقت في إطارها الصحيح وطريقها المستقيم . بحيث لا يستطيع إنسان أن إن طاقة ما معطلة عند أصحابه أو أنها تعمل عملاً غير صالح .

طاقة العمل : « إن الله يحب العبد المحترف »

طاقة المشاركة في العمل العام :

« اذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وتبعتم اذناب البقر وتركتم جهادكم سخط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تعودوا إلى دينكم » .

الطاقة الجنسية : « تزوجوا الولود الودود » .

الطاقة الجسمية : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. »

ملكة حسن الهندام : « فأصلحوا رجالكم واحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في أعين الناس فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش » .

طاقة الفكر والعلم : « طالب العلم فريضة » « تفكر ساعة خير من عبادة ... »

إنك لا تجد طاقة من طاقات الانسان إلا وقد أطلقها رسول الله ﷺ في طريقها الصحيح ، فأصبحت ترى من أصحابه العجب ، في تكامل شخصياتهم عبادة زهادا شجعانا محاربين عادلين رحماء إداريين سياسيين حكماء مربين . كل واحد منهم أمة ، وما أسهل عليه أن يقود أمة ، ولا أدل على ذلك أنه نذر واحد منهم لم يصبح أميراً بعد ذلك ولم يفشل واحد منهم في ما ولي من قيادات .

وإذا أردت أن ترى مقدار ما رفع رسول الله النفس البشرية فاقراً هذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة :

أخرج النسائي عن عائشة رضي الله عنها أن فتاة قالت يعني للنبي ﷺ إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة فأرسل النبي ﷺ إلى أبيها فجاء فجعل الأمر إليها فقالت : يا رسول الله إني قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء .

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعرف حقها ، وتريد أن تُعرَفَ الأخريات عليه . وأصبحت تستطيع أن تشكو إذا هضم حقها ،

وتجد من يسمع لها ويعطيها إياه. متى كان ذلك لولا تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة ؟

وأخرج الحمسة إلا مسلما قصة الحب العجيبة تلك التي كانت بين العبد مغيث والعبدة بريرة التي أصبحت بعد ذلك حرة وانفصم ما بينهما من نكاح وكانت لا تحبه وكان مولعا بها يقول ابن عباس :
ان زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كأني أنظر إليه خلفها يطوف ودموعه تسيل على لحيته فقال رسول الله ﷺ للعباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا ؟ فقال لها رسول الله لو راجعته ؟ فقالت يا رسول الله تأمرني قال : لا إنما أشفع قالت : لا حاجة لي فيه .
أهناك أبلغ في التربية من هذا الذي وصلت إليه هذه الأمة حتى نساؤها الإمام . أن أصبح كل فرد فيها يعرف حقه وواجبه ويبادل فيه ويقف عنده .

أخرج الروياني وابن جرير وابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال :

كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تباعون رسول الله ﷺ ؟ فرددها ثلاث مرات . فقدمنا فباعنا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله ! قد بايعناك فعلى أي شيء نبايعك ؟

فقال : على ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس ، وأسر كلمة خفية أن لا تسألوا الناس شيئا . قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يناوله إياه .

وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من يبايع ؟ فقال ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ : بايعنا يا رسول الله ! قال : على أن لا تسأل أحدا شيئا .

فقال ثوبان : فما له يا رسول الله

قال : الجنة .

فبايعه ثوبان .

قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة في أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب فرما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناول له فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه .

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أعطى النبي صلى الله عليه وسلم حكيم بن حزام رضي الله عنه يوم حنين عطاء فاستقله فزاده فقال : يا رسول الله ! أي عطيتك خير ؟ قال : الأولى . فقال النبي ﷺ : يا حكيم ابن حزام ! إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس وحسن أكلة بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس وسوء أكلة لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، قال : ومنك يا رسول الله ؟ قال : ومني ! قال : فوالذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً أبداً .

قال : فلم يقبل ديوانا ولا عطاء حتى مات .

قال : وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : اللهم إني أشهدك على حكيم بن حزام أنني أدعوه لحقه من هذا المال وهو يأبى ، فقال : إني والله ما أرزأك ولا غيرك شيئاً كذا في الكنز ج ٣ ص ٣٢٢ .

أرأيت هذه النقلة العظيمة من حالة إلى حالة أخرى : عزة نفس لا مثيل لها وماذا في طياتها من أبلغ ما تصل إليه التربية الإستقلالية التي لا يكون معها معنى من معاني الإتكال على الغير .

أخرج مالك عن عطاء بن يسار قال : أتى رجل النبي ﷺ نائراً الرأس واللحية فأشار إليه ﷺ كأنه يأمره بإصلاح شعره ففعل ثم رجع فقال ﷺ :

أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان .

وأخرج مالك والنسائي عن أبي قتادة قال :

قلت يا رسول الله : إن لي جمعة أفأرجلها .

قال نعم وأكرمها

فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين من أجل قوله ﷺ نعم وأكرمها .

أرأيت هذه التربية التي لا تدع جانباً من الجوانب إلا وتستوعبه دق أو

كبر مما له علاقة بظاهر الإنسان وباطنه .

قال أبو داود :

وغير رسول الله ﷺ اسم العاصي وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب

وحباب وشهاب فسماه هشاماً وسمى حرباً سلماً وسمى المضطجع المنبعث

وأرضاً تسمى عفرة سماها خضرة وشعب الضلالة سماها شعب الهدى وبني

الزنية سماهم بني الرشدة وسمى بني مغوية بني رشد .

أرأيت هذه اللفتات الجمالية التي يربى كل شيء في الأمة بها على نسق

منسجم مع الدعوة والرسالة وهذه التربية التي وصلت إلى الأسماء .

وروى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة ... عن رسول

الله ﷺ قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم

ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله

ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم

من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أولاً عاجلهم العقوبة .

ثم نزل فقال قوم :

من تروونه غنى هؤلاء؟ قال : الأشعرين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من

أهل المياه والأعراب ، فبلغ ذلك الأشعرين فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا :

يا رسول الله : ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا .

فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا فقالوا : يا رسول الله : أنعظن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظن غيرنا ؟

فقال ذلك أيضا . فقالوا أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) .

أرأيت أبلغ من هذه التربية التي تفرض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يتعلم حتى تترقى الأمة كلها وهل رأيت نصا قبل هذا النص في العالم يفرض التعليم ويجعله الزاميا اجباريا . ولعلك ستدهش في الرسالة الثالثة عندما سترى مزيدا عن النظام التعليمي في الإسلام . عن كماله واستيعابه لكل حاجات الإنسان الروحية والمادية .

وأخرج الشيخان عن أنس قال : بينا نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه مه .. فقال رسول الله ﷺ : لا تزرموه (أي لا تقطعوا عليه بوله) دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له :

ان هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر إنما هي لذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن وأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه (أي صبه) .

ضربنا هذا المثال لنعرف مقدار الوعي الحضاري عند العرب ، اذ ما من إنسان في العالم يبول في معبده ، ولكن العربي فعلها وكان موقف الرسول ﷺ

منها موقف المربي الذي مهمته أن يجبر النقص إلى الكمال ، وكان من آثار ذلك ما عبر عنه أحد قواد الفرس : اذ رأى المسلمين يصلون صفا واحدا منتظما فقال :

أكل عمر كبدي اذ علم هؤلاء مكارم الأخلاق. وما كان عمر هو الذي علمهم مع فضله ولكن الذي علمهم وعلم عمر هو رسول الله ﷺ .

ولم تكن دائرة تربية الرسول ﷺ محدودة بل شملت كل الجزيرة العربية ، بترتيب وسائل هذه التربية ، فكان لا يكتفي من القبيلة باسلامها حتى يأتيه وفد ، وكان يبقى الوفد عنده في المدينة أياما تمتد كثيرا أحيانا . وخلال هذه الإقامة كان يصوغهم صياغة جديدة . سواء بتوجيهاته أو بالاقتداء به . او بأمر أصحابه أن يعلموهم . حتى إذا ما أذن لهم بالرحيل أمر عليهم رجلا منهم وأمرهم أن يقوموا بعملية التربية والتعليم نيابة عنه ، وكان زيادة على ذلك يرسل أصحابه آحادا أو جماعات ممن فقهوا وربوا تربية عالية إلى كل مكان ، ليتقوما بدور المربي . فكان من آثار ذلك أنه خلال سنوات معدودة لا تتجاوز عشرة . أصبحت الجزيرة العربية — وما أوسعها حتى لتكاد تكون قارة — واعية لدين الله ، مرباة مهذبة إلى حد كبير ، تغيرت مفاهيمها إلى أعلى ما يبلغ إنسان من تصورات ، بعد أن كانت في أدنى دركات الانحطاط الفكري حتى ليعبد أحدهم تمرات صباحا ويأكلهن مساء .

وكان القرآن حفظا وفهما وتطبيقا وسلوكا هو أداة هذه التربية العظيمة . وسترى في بحث المعجزة القرآنية كيف أن هذا القرآن أحاط بكل شيء . وفتح آفاق النفوس والعقول على كل مشهد . فلم يعد به خافيا على أحد ما ينبغي أن يأخذ وأن يدع ، ولم يبق معه سؤال بلا جواب ، ولم تبق حجة لمنحرف إلا وقد دحضت فيه ، ولا شبهة على الإسلام وأهله إلا كشفت به ، ولا جانب

من جوانب الحياة إلا وقد عرف الحق فيه منه .

والرسول ﷺ كان همه أن يستوعب الناس هذا القرآن حفظا وفهما وتطبيقا . اذ على قدر ما يستوعبه أفراد الأمة على قدر ما ترتفع أنفسها، ويسمو تفكيرها ، وتتفتح آفاق الحياة أمامها ، ولذلك جعل مقياس الخيرية القرآن فقال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

وكان يختار للإمرة أكثر الناس أخذاً للقرآن حفظا وفهما وتطبيقا . وربى أصحابه على ذلك ، فكانت سياسة الخلفاء الراشدين بعده منصبة على أن يبلغ الناس بالقرآن غاية الجهد فيه ، والحرص عليه ، حتى قال عمر بلحيش من جيوشه وقد أرسله : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله امضوا وأنا شريككم » .

ولم تمض فترة إلا وأصبح القرآن على كل لسان ، وأصبح كثير من الناس وقد حفظوه كله ، فارتقت بذلك مدارك المسلمين كلها ارتقاء لا مثيل له سواء في ذلك جوانب العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الإدارة أو الأخلاق أو التشريع أو الحرب أو السلم أو العلم أو العمل . فترة بسيطة من الزمان وإذا بالأمة الأمية لا يغلبها غالب فكرياً أو حربياً أو حضارة وكل ذلك أثر من آثار رسول الله ﷺ ولا يمكن أن ينسب لسواه ، وحدث بذلك مرة واحدة في تاريخ البشر أن الإنسانية رأت أمة : ألحق عندها يحكم القوة ، والزهد عندها ترافقه الشجاعة ، والعبادة عندها ترافقها الحكمة ، أمة ما رأت مثلها الدنيا لذلك فإنها ما كادت تتعرف عليها حتى دخلت في دينها .

أو ليس عجيباً أن البلاد التي فتحها هؤلاء الذين رباهم رسول الله ﷺ قد دخل أهلها في الإسلام طوعاً لا كرها وأخلصوا للدين الحديد حتى فدوه بالآرواح والأموال والأولاد مع أن الإسلام أعطاهم حرية البقاء على دينهم الأول كل ذلك إنما كان كأثر من الإعجاب برجال لهم دين ليس مثله بين

الأديان ولا يوجد مثلهم بين الرجال .

وسنروي الآن حادثات ثلاثا يعرف بها مقدار النضج الفكري الذي وصل اليه أصحاب رسول الله ﷺ بحيث جابهوا به كل الثقافات الأخرى غالبين ، وهو جانب من جوانب التربية المحمدية لهذه الأمة : أول هذه الحوادث مقطع من مناقشة حاطب بن أبي بلتعة - رسول رسول الله إلى المقوقس - مع المقوقس وثانيها خطاب العلاء الحضرمي للمنذر بن ساوى أمير البحرين التي كانت تشمل في الماضي الكويت الحالية وقطر والبحرين والاحساء باسمائها الجديدة وثالثها مناقشة المغيرة بن شعبة لكسرى ورستم وهذه هي مرتبة :

١ - قال المقوقس لحاطب : ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم .»

٢ - وقال العلاء الحضرمي لأمير البحرين :

« يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شردين ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما ينتزه عن أكله ، ويعبدون في الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة ... ولست بعديم عقل ولا رأي فانظر :

هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا الا تصدقه ، ولمن لا يخون الا تأمنه ، ولمن لا يخلف الا تثق به ، هذا هو النبي الأمي الذي لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو ليت زاده في عفوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر .»

وقد أسلم المنذر .

٣ - ولما أرسل سعد بن أبي وقاص إلى كسرى وفداً يدعو به إلى الإسلام
كان من قصتهم :

أنهم استأذنوا على كسرى فأذن لهم وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم
وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال في أرجلهم وخيولهم
الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ،
كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها ، ولما استأذنوا
على الملك يزدجرد أذن لهم وأجلسهم بين يديه ، وكان متكبراً قليل الأدب -
ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما اسمها عن الارية والنعال والسياط .

ثم كلما قالوا له شيئاً من ذلك تفاعل فرد الله فأله على رأسه . ثم قال لهم :
ما الذي أقدمكم هذه البلاد ؟ أظنتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا ؟
فقال له النعمان بن مقرن رضي الله عنه :

إن الله رحمتنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا
الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدع إلى ذلك
قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه في دينه إلا
الخواص ، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكث . ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من
العرب ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين مكره عليه فاغتبط ،
وطائع إياه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من
العداوة والضيق ، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف
فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين الإسلام . حسن الحسن وقبح القبيح كله .
فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة
(المقاتلة) وإن أجبتكم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن
تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم . وإن اتيتمونا بالجزية قبلنا
ومنعناكم والا قاتلناكم .

قال فتكلم يزدجرد فقال :

إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم لا تغزواكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عددكم أكثر فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فأسكت القوم .

فقام المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فقال :

أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب وجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك . فجأوبني ، فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك ، انك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع . كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وأن يبغى بعضنا على بعض ، وإن كان أحداً ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك . فبعث الله رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته خير بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو نفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد ، أول ترب كان له الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً إلا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله .

فقال لنا : إن ربكم يقول : أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذا لم يكن

شيء ، و كل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء وإليّ يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدرتكم ، فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي أنجيكم بها بعد الموت من عذابي ، ولأحللكم داري دار السلام . فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق . وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية تم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه .

فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجو بنفسك . فقال يزدجرد: استقبلني بمثل هذا ؟ فقال : ما استقبلت إلا من كلمني . ولو كلمني غيرك لم استقبلك به .

عرضنا هنا جانبا من جوانب تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة ، وسيمر معك جانب آخر في فصل الثمرات ، وسيأتيك في المبحث الثالث (عن الإسلام) الجوانب التفصيلية لمنهاج التربية والتعليم الذي شرعه رسول الله ﷺ للإنسانية ، وسترى أنه ما ترك شاردة ولا واردة مما يحتاجه البشر في أمر دين أو دنيا إلا وقد أحاط به ذلك المنهاج العظيم ، الذي جعل الأمة الإسلامية عندما كانت واعية له أرفع أمة في ميزان الحضارة ، ورفعت به أمم الغرب فكان من آثاره ما هم عليه الآن ، وتخلت عنه الأمة الإسلامية فوصلت إلى ما هي عليه الآن . ونظن أننا بما ذكرنا حتى الآن كفاية للإقناع بأن العالم ما شهد ولن يشهد مربيا كمحمد ﷺ . فعل ما فعل بامكانياته المحدودة ماديا ، وبشعب أمة عمليا ، وخذ التاريخ كله وسله هل استطاع مرب أو زعيم أن ينقل أمة بهذه الفترة المحدودة ، والامكانيات غير المتوفرة من الناحية النفسية والأخلاقية والفكرية والحضارية والعسكرية والسياسية ، إلى معشار معشار ما نقل اليه رسول الله ﷺ أمة في سنوات معدودات ؟ اللهم لا .

ونريد أخيراً أن نقرر حقيقة هي : لئن شارك غير محمد ﷺ محمداً ﷺ في بعض جوانب ربى عليها رسول الله ﷺ البشر . فإن رسول الله ﷺ وحده هو الذي وضع النفس البشرية على الطريق الصحيح ، أما غيره فلئن أصلح جانباً فعلى حساب جوانب ويبقى ما أصلحه من النفس البشرية ذرة من جبل . أما رسول الله ﷺ فقد أصلح النفس البشرية كلها حتى أعماق أعماقها وبهذا نقول :

إنه في الأصل لا يوجد مرب غير محمد ﷺ . فقولنا إنه المربي الأول وقادة المربين لا يعني أننا أعطينا لغير من سلك طريقته صفة التربية حاشا ، وإنما هو لتقريب الأمور كي تتضح الحقائق وهذا بيان ما قلناه :

إن النفس البشرية كثيرة التعقيد كثيرة الشهوات فبني تحب المال والتملك وتود الحصول عليه من أقرب الطرق ، وتحب المتعة من تمتعها بالجمال إلى الحمرة إلى ما يلد. وقد تصل الأمور ببعض الناس أنهم يتمتعون بمرأى الدماء . وما يتمتع هذه النفس تود الوصول إليه مهما كان نوعه ، وبأي طريق ، والنفس تحب السيطرة وتحب التحكم بالآخرين ، والرأس عليهم والارتفاع عن غيرها ، وليس عند النفس مانع من استغلال الآخرين وبخسهم حقهم . والنفس لا تألف النظام بل الفوضى ، والانفلات من كل تكليف ومن كل قيد .

والنفس حريصة على الحياة ، وتكره الموت حتى ولو كان الموت شيئاً ضرورياً ، ككونه لحرب عادلة . والنفس بشكل عام تود أن يؤدي لها حقها وتود أن تتهرب من واجبها .

وهذا الذي أجمالناه بعض ما في النفس :

وأن تعطي أنفس البشر كلها شهواتها فذلك مستحيل . إذ كل إنسان يحب الرئاسة. فهل يمكن أن يكون الناس كلهم رؤساء ؟ وأجمل امرأة في العالم يتمناها زوجة كل إنسان فهل يمكن أن تكون زوجة لكل البشر ؟ .

لذلك فالبشر كلهم مجمعون على أنه لا بد من وضع حدود وقيود للنفس البشرية . تتمثل هذه الحدود والقيود بالآداب والأخلاق والعادات والقوانين ، وتربية الناس على ذلك .

والذي نراه ان بعض المربين ينجحون في جانب ، ويفشلون في جوانب ، فنجد زعيما نجح في تربية قومه على التضحية ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على النظام ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على اداء الواجب ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على العمل ، ولكنك في المقابل تجد أنه نسي بقية جوانب النفس البشرية ، فلم يفعل لها شيئا . هذه ناحية ، وناحية أخرى فإن هؤلاء نجحوا في هذا الجزء ، ولكن قد يكون هذا الشيء الذي نجحوا فيه غير موضوع في محله ، فالذي نجح في تعويد شعبه على الطاعة قد تكون طاعته فيما لا ينبغي ، والذي نجح في حمل قومه على التضحية قد يجعلهم يضحون فيما لا يستحق التضحية ، ولكن الظاهرة التي نراها في تربية رسول الله ﷺ انه ربي كل جوانب النفس البشرية وهذبها وجعلها على الصراط الصحيح . فما ترى جانبا مضيعا ، وما ترى تهديبا في غير محله ، ولا ترى بعد ذلك للنفس المسلمة تصرفا كان ينبغي ألا يكون .

رباها على التضحية في محلها ، وعلى الفداء في محله ، وعلى النظام حيث يحسن النظام . وعلى الطاعة حيث تجمل الطاعة ، وعلى تحقيق المتعة حيث تكرم المتعة ، وعلى التملك حيث يعدل التملك ، وعلى العبادة لله ، وحسن المعاملة للناس ، كل ذلك وأمثاله وأمثاله دون أن يطغى جانب على جانب ، أو ينسى جانب على حساب جانب ، أو تستعمل النفس فيما يقبح أن تكون فيه ، أو تنتقد عليه . وفي المبحث الثالث / الإسلام / بيان هذا بما لا لبس فيه .

فمحمد وحده ﷺ هو مربى النفس البشرية ، وغيره لا يجوز أن يعطى هذه الصفة إلا بالقدر الذي يتأسى فيه برسول الله ﷺ .

ولإلى الفقرة الرابعة :

٤ - رجل الدولة الاول : سياسيا وعسكريا

دمجنا العمل السياسي والعمل العسكري في هذه الفقرة على اعتبار أن العمل العسكري أثر عن العمل السياسي ومرتبط به ارتباطا كاملا لا ينفصل عنه ، وقد يكون ذروته في بعض الحالات التي تكون فيها الحرب لا بد منها ، ثم إن الإمكانيات السياسية في إدارة الحروب لا تنفصل عن الإمكانيات العسكرية في الإدارة السياسية ، والرسول عليه السلام ، كان قائد المسلمين سياسيا وعسكريا ، وهو الذي سار بهم من نصر إلى نصر. حتى جعل مفاتيح العالم في أيديهم مرات عديدة ولا زال باستطاعة المسلمين أن يسترجعوها اذا تلمذوا مرة أخرى تلمذة كاملة على يديه عليه السلام .

على أنه وإن ارتبط العمل السياسي بالعمل العسكري. فان لكل مجال كلام ينفرد فيه . لذلك فاننا سنقسم الكلام في هذه الفقرة إلى قسمين. الأول في الكلام عن الرسول عليه السلام سياسيا . والثاني عسكريا ، لنرى كيف أن الرسول عليه السلام في كل كان في القمة التي لا يرقى إليها أحد ، وهو الأمي الذي لا يعرف قراءة ولا كتابة ، مما يدل على أن المسألة هنا ربانية المبدأ والطريق والنهاية .

القسم الأول : الرسول عليه السلام

القيادة السياسية العليا

إن نجاح القيادة السياسية يتوقف على ما يلي :

(١) — على استيعاب هذه القيادة لدعوتها ، وثقتها بها وبأحقيتها ، وثقتها بانتصارها . وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو إليه ، بحيث تكون مواقفها كلها منسجمة مع هذه الدعوة ، وبحيث تكون هذه المواقف كلها لصالح الدعوة ، حتى لا يكون بيد أعداء الدعوة سلاحا فعلا من هذه المواقف ضد الدعوة نفسها .

(٢) — وعلى قدرة القيادة على الإستمرار بالدعوة تبليغا واقناعا .

(٣) — وعلى قدرة القيادة في استيعاب المستجيبين للدعوة تربية وتنظيمها وتسييرها .

(٤) — وعلى وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها

(٥) — وعلى قدرة القيادة أن تعرف إمكانية الأتباع ، وأن تستطيع الإستفادة من كل إمكانياتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة . بحيث يأخذ كل منهم محله الصحيح .

(٦) — وعلى قدرة القيادة أن تحل المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد .

(٧) — وعلى أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة لكل الواقع . فتضرب ضرباتها السياسية بشكل محكم .

(٨) - وعلى قدرة هذه القيادة أن تصل إلى النصر والاستفادة منه، وتطبيق مبادئ دعوتها تطبيقاً صحيحاً .

(٩) - وعلى قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها إحكاماً يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد .

وما عرف التاريخ إنساناً كمل في هذه الجوانب كلها إلى أعلى درجات الكمال غير محمد صلى الله عليه وسلم . مع ملاحظة أن كمالاته هنا جانب من جوانب كمالاته المتعددة التي لا يحيط بها غير خالقها ، وإن كمالاته ونجاحه واستقامة خطواته وانتصاراته وتوفيق الله إياه كل ذلك دليل أنه رسول الله الذي رباه ، فأحسن تربيته وأحاطه برعايته. ولنبدأ الآن باستعراض هذه الجوانب التسع في سيرة رسول الله العملية لنرى برهان كل وكماله فيه مع ملاحظة أن خطتنا في هذه الأبحاث الاختصار والإشارة لا التفصيل :

١ - استيعابه عليه السلام لدعوته نظرياً وعملياً ووثقته بها وبانتصارها .

إذا كان هناك إنسان استوعب جوانب دعوته كل الاستيعاب، ووثق بها وبمبصرها كل الثقة ، وعرف مضمونها كل المعرفة وعرف بداياتها ونهاياتها وأولها وآخرها ومقدماتها ونتائجها ، ولم يتزحزح عن جزء منها . بل الخطوة الثانية تأتي مكتملة للخطوة الأولى وممهدة للخطوة التالية : فذلك هو محمد رسول الله ﷺ فالرسول عليه السلام كان واضحاً تماماً لديه أن منطلق دعوته هو أن الحاكم الحقيقي للبشر لا يجوز أن يكون غير الله . وأن خضوع البشر لغير سلطان الله وحاكميته شرك ، وأن التغيير الأساسي الذي ينبغي أن يتم في العالم هو نقل البشر من خضوع بعضهم لحاكمية بعض ، إلى خضوع الكل لله الواحد الأحد ، وأن الأمة التي تحمل هذه القضية بكل متطلباتها ، هي التي سيكون بيدها مفاتيح الحياة البشرية ، ولها قياداتها ومن هذه البداية ، وانسجاماً معها ،

يقوم كل شيء في حياة البشرية ثانياً ، وحياة الأمة التي تحملها أولاً ولننظر
وضوح هذه الجوانب عنده ﷺ في بداية الأمر ونهايته :

روى ابن اسحاق عن ابن عباس قال : لما مشوا إلى أبي طالب وكلموه
— وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمّية
ابن خلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشrafهم — فقالوا يا أبا طالب
إنك منا حيث قد علمت. وقد حضر ك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي
بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه
وليدعنا وديننا ولندعه ودينه. فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال : يا ابن أخي
هؤلاء أشraf قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك قال : فقال
رسول الله ﷺ كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.
فقال أبو جهل نعم وأبيك وعشر كلمات قال تقولون: لا إله إلا الله وتخلعون
ما تعبدون من دونه فصفقوا بأيديهم ..

وروى ابن إسحاق عن الزهري في قصة عرض الرسول ﷺ دعوته
على بني عامر بن صعصعة ما يلي : ثم قال له : (أي بحيرة بن فراس) :
أرأيت إن نحن تابعتك على أمرك ثم أظهر لك الله على من يخالفك أكون لنا الأمر
من بعدك ؟ قال (أي رسول الله) الأمر لله يضعه حيث يشاء فقال له : أفنهدف
نحورنا للعرب دونك فإذا أظهر لك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك
فأبوا عليه .

قال عدي بن حاتم :

بينما أنا عند رسول الله إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة.. ثم أتاه آخر فشكا إليه
قطع السبيل فقال يا عدي هل رأيت الحيرة قلت لم أرها وقد أنبت عنها فقال :
إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف
أحداً إلا الله ... ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن
هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز ، قال عدي فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة

حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن
هرمز ... »

وقد طالب المشركون رسول الله ﷺ أكثر من مرة أن يطرد المستضعفين
من المسلمين حتى يجلسوا إليه وفي كل مرة كان ينتزل قرآن ويكون موقف
رسول الله ﷺ الرفض ومن هذه ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود قال :
مر الملاء (أي السادة) من قريش على رسول الله وعنده صهيب وبلال
وخباب وعمار رضي الله عنهم ونحوهم وناس من ضعفاء المسلمين فقالوا
(أي الملاء مخاطبين رسول الله) أَرْضَيْتَ بِهِؤْلَاءَ مِنْ قَوْمِكَ ؟ أَفَنَحْنُ نَكُونُ تَبَعًا
لَهُؤْلَاءَ ؟ أَهَؤْلَاءَ الَّذِينَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؟ أَطَرَدُهُمْ عَنْكَ فَاعْلَمْكَ إِنْ طَرَدْتَهُمْ اتَّبَعْنَاكَ
قال فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

« وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا
شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ. وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ
مِنَ الظَّالِمِينَ » .. وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ .

من هذه الأمثلة ترى بشكل واضح استيعاب رسول الله ﷺ لدعوته
وثقته بها وبانتصارها ، وانسجام مواقفه معها ، ووضوح طريقه أمامه ،
ومعرفته بنهايات ما يريد منها . فلم تضطرب بدايات مواقفه أبداً مع نهاياتها ،
بل كل خطوة تأتي تكون مكملة لما قبلها . وكل تشريع جديد يأتي متممًا لما
قبله ، حتى كملت شريعة الله ، وتم دينه وهذا كله ما كان ليتم لولا أن محمداً
رسول الله .

وهذا أول ما يلزم العمل السياسي العام . تجده كأكمل ما يكون عند رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

ويكتفيك لتعرف معنى هذا الذي قدمناه . أن تعلم أن الناس يعتبرون العمل

السياسي الإسلامي عملا مثاليا لا يستطيعه أي انسان ، فاذا ما عرفنا بعد ذلك ان الرسول عليه السلام استطاع أن يقود الناس بهذا الاسلام . فلا نجد موقفا من مواقفه تناقض مع نصوص ومبادئ دعوته ، وعلمت أنه ما من زعيم سياسي ، الا ويضطر للتناقض ، إما لاحقا مع سابق ، أو دعوى مع عمل ، أو داخليا مع خارجي ، أدركت مدى الكمال في القيادة المحمدية ، وخاصة إذا عرفت أنه لم يستطع أن يرتفع من حكام الأمة الإسلامية إلى القيادة بالإسلام الكامل بحق إلا أفراد منهم الخلفاء الراشدون الأربعة والثالث ثير عليه وقتل ظلما ، والرابع خرج عليه وانتصر بعد ذلك خصمه السياسي . أما رسول الله ﷺ فقد ساس الناس بالإسلام ولم ينزل بالإسلام إلى مستوى الناس بل رفع الناس إلى مستواه . على وتيرة واحدة ، ونسق واحد ، في الفكر والعمل ، من بداية الدعوة حتى انتقاله ﷺ إلى العالم الآخر .

٢ - استطاعته عليه السلام الاستمرار بدعوته تبليغا واقناعا

إن هناك شيئين أساسيين في العادة . يجب أن يتفطن لهما قادة الحركات السياسية الفكرية الجديدة :

أ - الحرص على استمرار عملية التبليغ والإقناع .

ب - البصر الحكيم في الموقف الذي يتخذ من الخصم .

إن أي دعوة من الدعوات إذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليغ والإقناع تجمد ، ثم تنحصر ثم تموت ، وأي دعوة من الدعوات لا تتخذ الموقف المناسب من الخصم ، تضرب ضربة ساحقة ثم تزول ، ولنضرب على هذا مثلا:

إن الهنود عندما أرادوا تحرير بلادهم من الإنكليز . اختاروا لنفسهم طريق اللاعنف في العمل. ومعناه عندهم أن لا يجابه الإنسان القوة الظالمة بالعنف بل يتحمل ظلمها بصبر حتى تتغير هي عواطفها، وترتدع عن غيها، وفائدة هذا

الطريق أنه يكسب صاحبه عطف الناس وعطف الرأي العام خاصة عندما يكون على حق ، وقد نجح الهنود أخيرا في تحرير بلادهم ولم يكلفهم هذا الطريق ضحايا كثيرة. ولو أنهم سلكوا غير هذا الطريق لما استطاعوا وقتذاك أن يصمدوا أمام قوة بريطانيا فيكونون قد خسروا كثيرا وفشلوا أخيرا .

وأنت عندما تدرس هذين الجانبين في العمل عند رسول الله ﷺ تجد أن رسول الله ﷺ قد نجح فيهما نجاحا منقطع النظير ، ورغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه كما رأينا في الفصل السابق ، ورغم العداء العنيف الذي ووجه به ، ورغم كل شيء فإن عملية التبليغ لم تنقطع لحظة من اللحظات ، ولعل أهم نقطة تلمحها بعد التوحيد أثناء عرض الرسول ﷺ دعوته على القبائل ، هو الحاحه على قضية حماية الدعوة ، واستمرارها وتأديتها ، ولقد تجاوز الرسول ﷺ ثلاثة عشر عاما من المجابهة للمشركين ، دون انقطاع عن العمل ، مما يدل على مقدار نجاحه في هذا الموضوع .

وأما بالنسبة للأمر الثاني فأنت تلاحظ حكمة مواقفه تجاه العدو فهو في مكة : يصبر ويأمر أتباعه بالصبر ، ولو فعل غير هذا لخسر أتباعه قتلا . ولشغل بذلك في قضايا الثأر . ولما أمكنه أن يتابع عملية التبليغ ، وكسب بهذه الخطة كثيرا من القلوب .

فاذا ما انتقل إلى المدينة رأيت تجدد مواقفه على حسب الظروف الجديدة من معاهدة ، إلى سلام ، إلى حرب ، إلى ضربة هنا ووثبة هناك ، ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتا على عملية تبليغ الحق وإقناع الناس بها ، على كل مستوى وبكل وسيلة ملائمة .

وإذا أردت أن تقدر مقدار النجاح المحرز في هذا الطريق فانظر هذه المقارنة :

ان الحركة الشيوعية رغم وسائل القرن التاسع عشر في الدعاية وتفرغ أتباعها فانها لم تستطع أن تحقق نصرا وتعمم إلا بعد سبعين عاما من أول بيان أصدره زعيمها .

ولكن الذي حدث بالنسبة للدعوة الإسلامية أن رسول الله ﷺ عممها خلال ثلاث وعشرين عاما التعميم الذي يرافقه الإقناع. ولهذا فاننا نقول مطمئنين : إنه لم توجأ حركة سياسية تقوم على أساس عقيدي نجحت كما نجحت دعوة رسول الله ﷺ وبفترة قصيرة وهذا كذلك يدلنا على أن الأمر أكبر من أن يكون بدون توفيق الهي لهذا الرسول الأعظم الفذ على مدى التاريخ بين الرجال .

٣ - قدرته عليه السلام على استيعاب أتباعه تربية وتنظيما وتسييرا ورعاية .

ان الدعوة العقيدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها من نواح ثلاث :

١ - ألا تقدر هذه الدعوة على أن تربي أتباعها تربية نموذجية ، بحيث يعطي أتباعها صورة حسنة عنها ، مما يؤدي إلى نفور الناس منها كأثر عن نفورهم من أصحابها . فيكون بذلك التابع حجة على الدعوة بدلا من أن يكون حجة لها ، وهذا يؤلب الرأي العام ضدها تأليبا خطيرا ويعطي الرأي العام حجة تلو حجة عليها . وعلى العكس من ذلك إذا ما ربي أفرادها تربية نموذجية حية فإن الناس يؤمنون بها قبل إيمانهم بدعوتهم ، ويحبونهم قبل أن يعرفوا ما يدينون به ، وكم رجال ضربوا دعوتهم بسلوكهم مع أنهم يحملون دعوة عظيمة .

٢ - أن يدخل الدعوة ناس ولا تستطيع هذه الدعوة أن تسخر طاقاتهم في سبيلها . فأمثال هؤلاء يكونون في وضع مشلول ، فلا هم ضد الدعوة ولا هم يقدمون شيئا لها ، وفي هذه الحالة تكون قيادة الدعوة وحدها متحملة كل مسؤولياتها ، والدعوة إذا كانت على امتداد دائم فان هذه القيادة ستصبح في وضع لا يسمح لها أن تقوم بكل واجباتها ، وتكون المسألة هكذا . داعية واحد ،

ومدعوون كثيرون ، أما في الحالة الأخرى فأنت تجد العكس ، عندما تستطيع قيادة الدعوة أن تسخر طاقات الأتباع لصالح الدعوة ، فان المسؤولية يتحملها مجموع الأفراد ، فيكون كل فرد داعية نائباً مناب القائد ، وكل فرد يؤدي دوره. وفي النهاية فمهما توسعت دائرة الدعوة تبقى القيادة على قوة في تحملها.

٣ - وعندما لا يحس الأتباع بالرعاية الدائمة : والملاحظة التامة ، وعندما لا يوضعون فيما يحسن وضعهم به ، أو عندما يحسون بأنهم منسيون ، أو عندما لا يعرف الإنسان محله ومهمته المكلف بها كل هذا يؤثر على نفسية الأتباع بالدعوة ويولد عندهم فتورا عنها .

هذه النواحي الثلاث لا بد من تلافيها لأي دعوة تقوم على أساس مبدأ معين وعدم تلافيها يعطل سير الدعوة ويقتلها .

وأنت عندما ترى حياة رسول الله ﷺ . وقيادته لأتباعه في هذه الجوانب تجد تجنبه هذه الجوانب ، ووجود عكسها بشكل لا مثيل له . بحيث لا تستغرب بعد كيف انتصرت هذه الدعوة ، وهذه الجماعة ، وكيف توسعت على مر الأيام .

ففي الجانب الأول رأيت البحث السابق عن تربية الرسول ﷺ وكيف أن الأمة الإسلامية كلها قد وسعت تربية : وكيف ارتفع الأفراد من طور إلى طور بحيث أصبحوا نماذج يقتدى بها .

وفي الجانب الثاني ترى الحركية الدائمة التي كان يجعل أصحابه دائماً يعيشونها . فإذا أسلم رجل رباه التربية الإسلامية ثم كلفه أن يقوم بأعباء الدعوة في جهة من جهاتها ، أو يقوم بجزء من أعبائها ، وفي الجانب الثالث ترى دقة الرسول في الرعاية والعناية والسهر على شؤون الأتباع بشكل عجيب ، ولعل هذا الجانب هو الأحق بالتمثيل هنا لأن الجانبين الآخرين ممثل لهما في غير هذا المقام !! .

أخرج ابن إسحاق عن أم سلمة أنها قالت : لما ضاقت مكة ، وأوذني

أصحاب رسول الله وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره ، ومما ينال أصحابه . فقال لهم رسول الله : « إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده ، حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه » وقد وجههم مرتين إلى الحبشة . مرة في السنة الخامسة ، ومرة في السنة السابعة ، حيث كان المسلمون مقدمين على أعظم مراحل الإضطهاد . مرحلة المقاطعة الشاملة .

وعندما قرر الرسول الهجرة إلى المدينة ، وجه أتباعه كلهم قبله ، وبقي في مكة حتى إذا لم يبق إلا من له عذر خرج مهاجراً ، وأخرج أحمد عن شداد ابن عبد الله قال قال أبو أمامة : يا عمرو بن عبسة بأي شيء تدعي أنك ربع الإسلام قال : اني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيئاً ثم سمعت عن رجل يخبر أخبار مكة ويحدث أحاديث . فركبت راحلتي حتى قدمت مكة ، فإذا أنا برسول الله مستخف وإذا قومه عليه جراء فتلطفت له فدخلت عليه فقلت ما أنت ؟

قال : أنا نبي الله فقلت وما نبي الله .

قال : رسول الله . قال قلت الله أرسلك . قال : نعم . قلت : بأي شيء أرسلك قال : بان يوحد الله و لا يشرك به شيء وكسر الأوثان وصلة الرحم . فقلت من معك على هذا قال : حر وعبد/أو عبد وحر/وإذا معه أبو بكر بن قحافة وبلال مولى أبي بكر . قلت إني متبعك قال : إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ولكن ارجع إلى أهلك . فاذا سمعت بي قد ظهرت فالحق بي قال فرجعت إلى أهلي وقد أسلمت . فخرج رسول الله مهاجراً إلى المدينة فجعلت أنخبر الأخبار حتى جاء ركبته من يثرب . فقلت ما هذا المكّي الذي أتاكم؟ قالوا أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك . وحيل بينهم وبينه ، وتركنا الناس سراعا . قال عمرو ابن عبسة فركبت راحلتي حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه فقلت يا رسول

الله أنعرفني ؟ قال : نعم . ألسنت أنت الذي أتيتني بمكة قال قلت بلى ..

هذه أمثلة ثلاثة تدلك على مبلغ دقة الرسول في توجيه أصحابه بالشكل الذي يحمون فيه ويأمنون ، وكيف أنه لا ينسى احدا منهم ، بل يستوعبهم جميعا برعايته ، وكيف يعدهم للحظة المناسبة ، وكيف يسير كل واحد منهم بحكمة تناسب وضعه ، ولا نتقل بك من هذا البحث حتى نضرب لك أمثلة ثلاثة أخرى على سهره على حاجات أتباعه الشخصية وتأمينها لهم :

— أخرج أحمد عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول والله إن كنت لاعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحاجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه . فمر أبو بكر فسأله عن آية من كتاب الله ما سأله الا ليستتبعني فلم يفعل ، فمر عمر فسأله عن آية من كتاب الله ما سأله الا ليستتبعني فلم يفعل ، فمر أبو القاسم فعرف ما في وجهي وما في نفسي فقال أبا هريرة ، قلت له لبيك يا رسول الله فقال :

الحق واستأذنت فأذن لي فوجدت لبنا في قدح قال : من أين لكم هذا اللبن فقالوا أهدها لنا فلان — أو آل فلان — قال : أبا هر قلت لبيك يا رسول الله قال : انطلق إلى اهل الصفة فادعهم لي قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل ولا مال إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث اليهم منها وإذا جاءت الصدقة أرسل بها اليهم ولم يصب منها قال : وأحزني ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى به بقية يومي وليلتي وقلت : أنا الرسول فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم وقلت ما يبقى لي من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال أبا هر خذ فأعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت إلى رسول الله فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فضلة ثم رفع رأسه ونظر إلي وتبسم وقال أبا هر قلت لبيك رسول الله قال بقيت أنا

وأنت فقلت صدقت يا رسول الله قال : فاقعد فأشرب قال : فقعدت فشربت ثم قال لي إشرب فشربت فما زال يقول لي إشرب فأشرب حتى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجد له في مسلكتي قال : ناولني القدح فرددت إليه القدح فشرب من الفضلة .

وأخرجه البخاري كذلك .

وأخرج أحمد عن ربيعة الأسلمي قال :

كنت أخدم النبي فقال لي يا ربيعة ألا تزوج قلت لا والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج وما عندي ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلني عنك شيء فأعرض عني ، ثم قال لي الثانية يا ربيعة ألا تزوج ؟ فقلت ما أريد أن أتزوج ما عندي ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلني عنك شيء فأعرض عني ، ثم رجعت إلى نفسي فقلت والله لرسول الله أعلم مني بما يصلحني في الدنيا والآخرة والله لئن قال لي ألا تزوج لأقولن نعم يا رسول الله مرني بما شئت . فقال لي يا ربيعة ألا تزوج فقلت : بلى مرني بما شئت .

قال : انطلق إلى آل فلان حي من الأنصار كان فيهم تراخ عن رسول الله ﷺ فقال لهم : إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني فلانة لامرأة منهم ، فذهبت إليهم فقلت لهم : إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني ، فقالوا : مرحباً برسول الله وبرسول رسول الله ﷺ : والله لا يرجع رسول رسول الله ﷺ إلا بحاجته .

فزوجوني والطفوني وما سألوني البينة . فرجعت إلى رسول الله ﷺ حزينا . فقلت : يا رسول الله ! أتيت قوما كراما فزوجوني والطفوني وما سألوني البينة وليست عندي صداق .

فقال رسول الله ﷺ : يا بريدة الأسلمي اجمعوا له وزن نواة من ذهب . قال : فجمعوا لي وزن نواة من ذهب فأخذت ما جمعوا لي فأتيت النبي ﷺ قال اذهب بهذا إليهم فقل لهم : هذا صداقها . فأتيتهم فقلت : هذا صداقها ،

فقبلوه ورضوه وقالوا : كثير طيب ، قال : ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ حزينا فقال : يا ربعة مالك حزين ؟ فقلت : يا رسول الله ما رأيت قوما أكرم منهم ورضوا بما آتيتهم وأحسنوا وقالوا : كثير طيب وليس عندي ما أولم . فقال : يا بريدة اجمعوا له شاة . قال : فجمعوا لي كبشا عظيما سمينا ، فقال رسول الله ﷺ : اذهب إلى عائشة رضي الله عنها فقل لها : فلتبعث بالمكتل الذي فيه الطعام . قال : فأتيته فقلت لها ما أمرني به رسول الله ﷺ فقالت : هذا المكتل فيه سبع أصع شعير لا والله لا والله : إن أصبح لنا طعام غيره خذه . قال : فأخذته فأتيته به النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما قالت عائشة ، قال : اذهب بهذا اليهم فقل لهم : ليصبح هذا عندكم خبزا وهذا طبيخا ، فقالوا : أما الخبز فسنكفيكموه وأما الكبش فاكفونا انتم ، فأخذنا الكبش أنا وأناس من أسلم فذبحناه وسلخناه وطبخناه فأصبح عندنا خبز ولحم فأولمت ودعوت النبي ﷺ .

— وأخرج أحمد عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ان جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي :

لا تدخلن عليكم جليبيبا ، ان دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن .

قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيتم لم يزوجهما حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار : زوجني ابنتك ! قال : نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين ! قال : إني لست أريدها لنفسي ، قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : بجليبيب ، قال : أشاور أمها ، فقال : ان رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ، قالت : نعم ونعمة عين ، قال : انه ليس يخطبها لنفسه انما يخطبها بجليبيب ، قالت : بجليبيب ، أنه بجليبيب أنه ، لا لعمر الله لا نزوجه ! فلما أن أراد ليقوم ليأتي النبي ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية : من خطبني اليكم ؟ فأخبرتها أمها . فقالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ! ادفعوني اليه فانه لن يضيعني ! فانطلق أبوها إلى

رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : شأنك بها ، فزوجها جليبيبا ، قال : فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له ، قال : فلما أفاء الله عز وجل عليه قال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : لا . قال : لكني افقد جليبيبا ، قال : فاطلبوه . فوجدوه إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه فقالوا يا رسول الله ها هوذا إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه ، فأتاه النبي ﷺ فقال : قتل سبعة ثم قتالوه . هذا مني وأنا منه — مرتين أو ثلاثا . ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له ، ماله سرير إلا ساعد النبي ﷺ ثم وضعه في قبره ، لم يذكر أنه غسله ، قال ثابت فما كان في الأنصار أيم أنفق منها .

ولعل في هذه الأمثلة كفاية على إبراز مقدار رعايته لأتباعه واستيعابهم في كل الجوانب .

٤ - الثقة التي كان يتمتع بها عليه السلام عند أتباعه :

للثقة بين الناس وقائدهم أهمية عظيمة جدا عند أصحاب الفكر السياسي لذلك ترى في أنظمة الحكم الديمقراطية ، أن الحكومة تبقى حاکمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التي تعرفها ببعض الوسائل ، وقديما قال كونفوشيوس حكيم الصين : ان الحكومة ينبغي ان توفر لشعبها الثقة بها والحماية له ، بواسطة القوة والطعام والشراب وما يلزم . قالوا فان لم تستطع أن تؤمن هذه الأشياء الثلاثة قال تتخلى عن تأمين الطعام والشراب ، قالوا فان لم تستطع تأمين الإثنين الأخيرتين قال : تتخلى عن تأمين القوة والحماية ولا تفرط في الثقة .

وهذا شيء معقول إذ ما دام الناس واثقين بحكومتهم ومتعاونين معها ، فإنهم يستطيعون بالتالي أن يسدوا النواقص ، أما إذا فقدت الثقة ، تلاشى كل شيء ، وفقدت الأمة قوتها وحمايتها وهذا شيء مجرب تاريخيا . ان فقدان الثقة يشل العمل السياسي ويميت حركة الأمة ويضعف روحها المعنوية، ويضرب اقتصادها وبالتالي يهوي بها .

لذلك كان من أهم عوامل نجاح القائد السياسي للأمة ثقة الأمة به ومحبتها له ،
فإن هذا إذا وجد يعوض كل النواقص وكل الفراغات ، فإذا ما وضح هذا
بشكل عام نقول :

إن تاريخ العالم كله لا يعرف مثلاً واحداً يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع
الرسول ﷺ به .

إن ثقة الناس بالقائد الرسول ، كانت ثقة متناهية ، يكفي لإدراكها أن ترى
بعضاً من مواقف الصحابة في أدق وأصعب وأحرج الأحوال :

في يوم العقبة حيث تم اللقاء بين الرسول ﷺ والوفد الثاني للأنصار كان
من أمرهم :

قال العباس بن عباد :

يا معشر الخزرج هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم

قال : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون
أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ؟ فمن الآن فهو والله
إن فعاتم خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافوه بما دعوتموه إليه على
نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا :
فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ... »

وقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله وإن بيننا وبين الناس حبلاً (أي أحلافاً
وعهوداً) فلعلنا نقطعها ثم ترجع إلى قومك وقد قطعنا الحبال وحاربنا الناس
فضحك رسول الله ﷺ من قوله وقال : الدم الدم الهدم الهدم وفي رواية : بل
الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .
ثم أقبل أبو الهيثم على قومه فقال يا قوم هذا رسول الله ﷺ اشهد أنه
لصادق وأنه اليوم في حرم الله وأمنه وبين ظهري قومه وعشيرته فاعلموا أنه إن
تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحدة فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في
سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم فإنه رسول الله حقاً وإن

خفتم خذلانا فمن الآن. فقالوا عند ذلك . قبلنا عن الله وعن رسوله . ما أعطيانا وقد أعطينا من أنفسنا الذي سألتنا يا رسول الله فدخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه فقال أبو الهيثم : أنا أول من بايع .

وأخرج أحمد من حديثبيعة العقبة :

فقلنا (أي الأنصار) يا رسول الله علام نبايعك ؟

قال تباعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة. فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة رضي الله عنه وهو من أصغرهم فقال رويدا يا أهل يثرب فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وإن إخراجهم اليوم مناواة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف فيما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله. وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله قالوا :

أعطنا يا سعد فوالله لاندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا .

من هذه النصوص يشعر الإنسان بمقدار الثقة التي كانت تملأ قلوب هذا الرعيل الأول مع معرفتهم بما سترتب على هذه البيعة من آثار خيفة .

ومن مواقف مقدمات معركة بدر :

قال رسول الله ﷺ مخاطبا أصحابه :

ما ترون في قتال القوم ؟

فقام المقداد بن عمرو فقال :

إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى عليه السلام

إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ..

ثم تكلم آخرون ثم قال سعد بن عبادة :

إيانا يريد رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار
لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها الى برك الغماد لفعلنا .

وقال سعد بن معاذ :

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله

قال : أجل

قال : قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك
على ذلك عهدونا وموآثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يا رسول الله لما
أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه
معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في
الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك ما تقر به عينك فسر على بركة الله .

هذه المواقف ، وكل حياة الرسول ﷺ مع أصحابه مواقف من هذا النوع
تدلك على مقدار الثقة المتناهية التي كانت لرسول الله في قلوب أصحابه .

والحقيقة أن شخصية الرسول ﷺ كانت من الأسر والقوة والنفاذ ، بحيث
لا يملك من يخالطها إلا أن يذوب فيها ، إلا إذا كانت شخصيته معقدة ، ولعل في
قصة مولاه زيد بن حارثة ما يؤكد هذا المعنى . إذ يأتي أبو زيد وأعمامه
ليشروه ويرجعوا به الى أهله حرأ ولكن زيدا يختار صحبة محمد مع العبودية
والغربة . على فراقه ، مع الحرية ولقاء الأهل ، وهذه ظاهرة عجيبة أن يصارح
زيد أهله بهذا . وهو ليس صغير السن بل كان وقتذاك ناضج الفكر ، فكافأه
محمد (كان ذلك قبل النبوة) أن حرره وتبناه .

ويكفي ما ذكرناه في هذا الباب . فالسيرة وحياة الصحابة كلها شواهد على
أن الثقة التي تمتع بها رسول الله ﷺ بين اتباعه لم يعرف العالم لها مثيلا .

٥ - استطاعة القائد الاستفادة من كل امكانيات الاتباع العقلية والجسمية أثناء الحركة ، مع المعرفة الدقيقة بامكانية كل منهم ووضعه في محله :

إن عبقرية القيادة لا تظهر بشيء ظهورها بمعرفة الرجال ، ووضع كل في محله . واستنفاذ عقول الاتباع بالشورى ، واستخلاص الرأي الصحيح ، وفي كل من هذين كان الرسول ﷺ الأسوة العليا للبشر .

إن الشورى في فن السياسة عملية تستجمع فيها طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأي الصالح ، ويتحمل فيها كل فرد مسؤولية القرار النهائي ، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة . فيندفع نحو المراتب بقوة ، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة . ويبقى الإنسان فيها على صلة بمشاكل أمته وجماعته ، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شورى بين المسلمين ، حتى يتحمل كل فرد من المسلمين المسؤولية كاملة ولا يبقى مسلم مهملاً .

والظاهرة التي نراها في حياة الرسول ﷺ كقائد . حبه للشورى ، وحرصه عليها ، ومحاولته توسيع دائرتها ، واستخلاصه الرأي الأخير في النهاية :

قبيل غزوة بدر استشار الناس فأشار المهاجرون ، فلم يكتف ، ثم استشار الناس فأشار الخزرج والأوس ثم اتخذ قراره الأخير في الحرب حتى يمحو أي تردد عن أي نفس .

ولما عسكر المسلمون يوم بدر في أدنى ماء جاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال : أرايت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، إمض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتعسكر فيه ثم تغور ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملأه

ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي ونفذ ﷺ ما أشار به .

وقبيل يوم أحد استشار الناس وأخذ برأي الأكثرية .
ويوم الأحزاب أخذ برأي سلمان الفارسي ويوم الحديبية أشارت عليه أم سلمة زوجته فأخذ برأيها .

إنها القيادة التي لا تستكبر أن تنزل على رأي مسلم كائنا من كان . ما دام الرأي سليما صحيحا ، والقيادة الصالحة هي التي تعمم الشورى حتى لا يبقى أحد عنده رأى إلا قاله ، وخاصة فيما يكون فيه غرم ، بعد غزوة حنين جاءت هوازن مسلمة وسألوا رسول الله ﷺ أن يرد عايهم سبيهم وثروتهم فقال لهم إن معي من ترون وإن أحب الحديث إلي أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأننى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن اخوانكم هؤلاء قد جاؤا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفي الله علينا فليفعل فقال الناس :

قد طيبنا ذلك يا رسول الله فقال لهم : إنا لاندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم ثم عادوا الى رسول الله ﷺ يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا .

إنها الشورى التي يأخذ فيها كل إنسان حقه ولقد علم المسلمون من نبيهم هذا فأحسنوا القيام به حتى أن كان عمر بن الخطاب ليستشير المرأة فرما أبصر في قولها الشيء يستحسنه فيأخذ به .

وأما معرفة الرجال ووضع كل في محله المناسب له وتكليفه بالمهمة التي

يصلح لها فكذلك لا يلحق برسول الله ﷺ أحد فيها .

إن أبا بكر وعمر كانا في زمن رسول الله ﷺ يلقبهما الصحابة بالوزيرين له وكان يسمر معهما في قضايا المسلمين ولما مرض ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس وهذا الذي جعل المسلمين يختارونه بعد خليفة ثم كان عمر الخليفة الثاني والناس يعرفون ماذا فعل أبو بكر وعمر يوم حكما الناس فهل يشك أحد أن تركيز الرسول ﷺ على هاتين الشخصيتين كان في محله وأنهما من الكفاءة في المحل الأعلى وأن رأي رسول الله ﷺ فيهما في محله وهذان مثالان فقط والا فما اختار رسول الله ﷺ رجلا إلا ورأيت الحكمة في هذا الاختيار .

يقول عمرو بن العاص في قصة إسلامه وخالد بن الوليد :

فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه في أمر حزه منذ أسلمنا » وما أحد إلا ويعرف كفاءة هذين الرجلين من آثارهما بعد .

عندهما أتى وفد بني تميم إلى رسول الله ﷺ قالوا :

يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا

قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل فقام عطارد بن حاجب فقال فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس الخزرجي أن يرد عليه فرد ثم قام شاعر بني تميم فقال فأمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت أن يرد فغلب خطيب رسول الله ﷺ خطيبهم وشاعر رسول الله ﷺ شاعرهم .

لكل مقام رجال وكان رسول الله ﷺ أكثر الخلق فراسة في اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب .

ولعل في قضية نعيم بن مسعود بالدلالة على ما قلناه :

كان نعيم بن مسعود حسن الصلة بكل القبائل المعادية للمسلمين يوم الأحزاب سواء في ذلك يهود بني قريظة أو قومه أو قريش ... وفي أحلك اللحظات أيام الأحزاب أسلم نعيم وقد أصبح المسلمون بين بني قريظة في الداخل والمشركين بعد الخندق وإذا أتى المسلمون من قبل قريظة لم يعد يصالح

خط دفاع المسلمين واضطروا للدخول في معركة مفتوحة ليست متكافئة ولذلك فإن الرسول ﷺ وقد أسلم نعيم يكلفه ألا يعلن إسلامه وأن يقوم بعملية تخلص صف العدو .

يقول عليه السلام لنعيم :

إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة ورجع نعيم وكان من أمره ما سنقصه عليك مما يشهد أن اختيار رسول الله ﷺ كان موفقا غاية التوفيق :

خرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديما في الجاهلية فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم .

فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم . فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم لا تقدرّون على أن تحولوا منه إلى غيره . وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه . وقد ظاهروهم عليه . وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره . فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم . ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنجزوه . فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشا : فقال لأبي سفيان ومن معه : قد عرفتم ودي لكم وفراقى محمداً وإنه قد بلغني أمر رأيت علي حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عني . فقالوا : نفعل .

قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد . وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ؟ ثم نكون لك على من بقي منهم حتى نستأصلهم . فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعثت

إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي . ولا أراكم تتهموني . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم .

قال : فاكموا عني ،

قالوا : نفعل

ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ،

وحذرهم ما حذرهم ..

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله ورسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام فقد هلك الحف والحافر . فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم . ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا . حتى نناجز محمداً . فانا نخشى أن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا . ولا طاقة لنا بذلك منه ،

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان :

والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فارسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا . فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا . فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، وهكذا أفلح المسلمون في فصم عرى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم .

٦ - قدرته الكاملة عليه السلام على حل المشاكل الطارئة :

إن الدعوات والتنظيمات السياسية التي تقوم على أساسها ، كثيراً ما تضرب بسبب مشكلة طارئة لا تستطيع القيادة أن تحلها حلاً موفقاً ، مما يؤدي إلى انقسام أصحابها أو ضربها والقضاء عليها ، وكلما كانت القيادة أقدر على حل المشاكل كلما كان ذلك أضمن لنجاح الدعوة .

وقد يحدث أن بعض القيادات تحل المشاكل حلاً غير مشروع فتستعمل القوة مع أتباعها ، فتبيد المعارضين أو تسجنهم أو ... كما نرى كثيراً من هذا في عصرنا الحاضر . إلا أن الظاهرة التي لا مثيل لها في تاريخ القيادات العالمية أنك تجد قدرة لا مثيل لها على حل المشاكل بكل بساطة عند رسول الله ﷺ هذا مع سلوك الطريق الألف مع الأتباع . والذي عرف العرب عن كذب يدرك أي قيادة هذه قيادة رسول الله ﷺ التي استطاعت أن تشق الطريق بأقل قدر ممكن من المتاعب .

إنه لا توجد أمة في العالم أكثر مشكلات من الأمة العربية . إذ العوامل النفسية التي تثير المشاكل كثيرة جداً . فكلمة قد تثير حرباً . وجرح كرامة قد يؤدي إلى ويلات ونظام للثارات ، وشعور بالولاء ، وعواطف متاجعة ، وعصبية عارمة وجرأة نادرة وقسوة وصلابة وعدم انضباط ... وكل واحدة من هذه تحتاج إلى قيادة تتمتع بكفاءة منقطعة النظير و كان رسول الله ﷺ القائد الفذ الذي استطاع أن يدير أمر هذا الشعب القوي المراس ويحل كل مشكلته بكل بساطة وهذه أمثلة على حلوله السريعة للمشاكل :

١ - حله لمشكلة وضع الحجر الأسود قبل النبوة حين هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها وهذه رواية ابن إسحاق للحادث :

قال ابن إسحاق :

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن ، فاختلفوا فيه ، كل قبيلة تريد أن

ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تجاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم انهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا . فزعم (إذ يروى أن المشير على قريش مهشم بن المغيرة ، ويكنى أبا حذيفة) بعض أهل الرواية :

ان أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذ أسن قريشاً كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ، ففعلوا .

فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا . هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ هلم إلي ثوباً ، فأتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوا جميعاً ، ففعلوا . حتى إذ بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

٢ - نموذج من حلوله السريعة لمشاكل المنافقين :

في مرجع رسول الله ﷺ يوم غزوة بني المصطلق نزل المسلمون على ماء فحدثت حادثة أراد عبد الله بن أبي أن يستغلها ليهدم وحدة صف المسلمين وهو قديماً رأس قومه فلنر ما هية الحادثة وكيف حلها رسول الله ﷺ :

يقول ابن هشام فبينما رسول الله ﷺ على ذلك الماء وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسان بن وبر الجهني على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول - وعنده رهط من قومه - فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - فقال : أوفعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا : والله ما أعدنا

وجلا بيب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لنرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

(جلابيب قريش : لقد كان المشركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين) .

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه ، فآخبره الخبر وعنده ضمير بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله .

فقال رسول الله ﷺ : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه : لا ولكن أذن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل أفيها . فارتحل الناس .

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله : ما قلت ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفاً عظيماً .

فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدّثاً على ابن أبي بن سلول ودفعاً عنه .

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال :

يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعه منكراً ما كنت تروح في مثليها ، فقال له رسول الله ﷺ : أو ما بلغك ما قال صاحبكم : قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي بن سلول . قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ قال : فانت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز ؟ ثم قال : يا رسول الله

أرقق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبته ملكاً .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ لميشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبي .

ثم راح رسول الله ﷺ بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له بقعاء ...

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذي أوفى الله بأذنه . وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فاقتله ، فاقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري .

٣ - حله لمشاكل الهجرة

ولما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة كانت هناك مشاكل تحتاج إلى حل سريع :

- أ - قضية انسجام الناس بعضهم مع بعض وهم من قبائل شتى .
- ب - إيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس في المدينة وليسوا كلهم مسلمين فممنهم اليهود ومنهم المنافقون ومنهم المسلمون .
- ج - حل المشكلة الاقتصادية إذ المهاجرون تركوا أولادهم ومساكنهم ، ومشكلة المهاجرين دائماً مشكلة صعبة حتى بالنسبة للدول الحديثة ، ثم كان اليهود هم المسيطرين على السوق التجارية . إذ السوق الوحيدة فيها لهم ولنرى كيف حلت هذه المشاكل كلها بسهولة .

وقد حلت المشكلة الأولى والثالثة مع بعضهما على الشكل التالي :

ما كادت الأمور تستقر بالمدينة حتى أنشأ الرسول ﷺ للمسلمين سوقاً ليستغنوا عن سوق اليهود ، وشرع بأمر الله سنة الإخاء فكل مهاجري جعل له أنخاً أنصارياً ، وجعل هذه الأخوة أعمق من أخوة النسب فكانوا يتوارثون بها وحض الناس على الكرم والسخاء والإيثار ، وصادف ذلك نفوساً ما عرف التاريخ أشرف منها ، ولا أرقى بعد الرسل : فكان من آثار ذلك الشيء العجيب .

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف قال :

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد : أيها الناس فقدموا لأنفسكم . تعلمن والله ليضعن أحدكم ثم يدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه - ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه - ألم يأتك رسولي فبلغك وآيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت نفسك ؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم ، من استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكل كلمة

طيبة ، فإن بها تجزي الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم وعلى رسول الله .

وروى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالا فاقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها قال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك أيسن سوقكم فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن .. ومن خبر الأنصار يوم هاجر إليهم الناس أنهم كانوا يختصمون على المهاجر كلهم يريد أن يضمه إلى نفسه حتى أنه لم ينزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة . بهذه الروح التي بثها رسول الله ﷺ في أتباعه حلت مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء على الحل .

أما المشكلة الثانية وهي إيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس إذ المجتمع المدني كان مؤلفاً من الأوس والخزرج وبينهما عدااء قديم ، واليهود وكانوا منقسمين على بعضهم ، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، وهم حريصون على أن يبقى النزاع بين الأوس والخزرج . ثم أتى المهاجرون وهم كذلك من عشائر كثيرة فكان من أمر رسول الله ﷺ أن كتب أول وثيقة سياسية في الإسلام بين هذه الأطراف كلها تمثل الدستور الذي يتعايش به هؤلاء جميعاً وقد رضوا جميعاً به :

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادّاع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ ، بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون

من قريش على ربعتهم يتعاقلون (الرابعة : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها) بينهم . وهم يفدون عانيهم (العاني : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف من ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى (المعائل : الديات ، الواحدة : معقلة) كل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم ، أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يحجّر عليهم أديانهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وأنت سلم المؤمنين واحدة ، لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وأن المؤمنين بين بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط (أي قتله بلا جناية منه توجب القتل) مؤمناً قتلاً عن بينة ، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول . وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله

وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﷺ ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه (أي يهلك نفسه) وأهل بيته .

وإن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف ، وإن لليهود بني الحارث مثل ما لليهود بني عوف ، وإن لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف ، وإن لليهود بني جشم مثل ما لليهود بني عوف ، وإن لليهود بني الأوس مثل ما لليهود بني عوف ، وإن لليهود بني ثعلبة مثل ما لليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما لليهود بني عوف ، وإن البردودون الأثم ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبردون الأثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وأن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

قال ابن إسحاق : وإن البردون الأثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وابره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو آثم . وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤ - حله لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة :

أثناء غزوة الأحزاب أعلن بنو قريظة نقضهم للعهد مع رسول الله ﷺ وقرروا الحرب وكان قصة ذلك كما يلي :

كان من جملة الرجال الذين ألبوا العرب حتى تجمعوا لحرب رسول الله ﷺ في هذه الغزوة حيي بن أخطب اليهودي فلما اجتمعت العرب عامسة وحاصرت المدينة أتى حيي بن أخطب كعب بن أسد سيد قريظة ليقتنعه بإهاء عهده مع رسول الله ﷺ والمشاركة في الحرب ضده وكان كعب حتى تلك اللحظة مغلقاً أبوابه وحصونه وملتزماً بالوفاء بعهده مع رسول الله ﷺ .

ولما طرق حيي بن أخطب باب كعب قال له كعب رافضاً أن يفتح له الباب إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً وبعد أخذ ورد سمح له كعب بالدخول فقال حيي : ويحك يا كعب جئت بعز الدهر وبحر طام .

قال : وما ذاك

قال : جئت بك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسياال من رومه وبغطفان على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحد وقد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى يستاصلوا محمداً ومن معه .

قال كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه يرعد ويسبرق وليس فيه شيء . دعني وما أنا عليه فإنني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً .

ولكنه لم يزل به وبين قريظة حتى أقنعهم بنقض العهد فاحضرت قريظة الصحيفة التي كتب بها الميثاق فمزقتها وبعث النبي من يستكشف له الأمر كسعه

ابن معاذ حليف بني قريظة في الجاهلية فقالوا له : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد وسبوا سعداً فقالوا له وهو سيد الأوس بكل وقاحة أكلت أير أبيك.. وكانت خيانة داخلية في أخرج المواقف ، وغدرآ لو أعطى ثمراته الحبشة لاستؤصل الإسلام والمسلمون ، إذ به لا تعود للخندق فائدة ، ويتحطم خط دفاع المسلمين ، وتكون الكارثة ، إنها خيانة جزاؤها بشكل طبيعي الإعدام .

وانتهت غزوة الأحزاب بانسحاب المشركين ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين للتوجه إلى بني قريظة لمعاقبتهم وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه وكانوا يعرفون أن الحكم فيهم سيكون القتل والصحابة كلهم يعرفون أن جزاءهم سيكون كذلك. وهذا هو الحكم الحق والعدل والذي نصت عليه توراة اليهود نفسها .

وقبل أن يصدر الرسول ﷺ حكمه توائبت الأوس وطلبوا من الرسول ﷺ العفو كما عفا عن بني النضير ، إذ بنو قريظة كانوا حلفاء الأوس في الجاهلية ، وبنو النضير كانوا حلفاء الخزرج ، والأوس والخزرج كانا تتنافسان في كل شيء ، وإذن فرسول الله ﷺ أمام معارضة من قسم كبير من أصحابه في قضية حساسة هي قضية تنفيذ عقوبة يستحقها مجرمون فكان من أمر رسول الله ﷺ معهم ما هذه قصته كما يرويها ابن هشام حيث حكم سيد الأوس فيهم وسيد الأوس هو الذي عانى ما عانى من بني قريظة يوم غدروا ، وسيد الأوس ما كان يحكم إلا بما استحق هؤلاء فرضيت الأوس بتحكيم سيدها وحكم بالعدل في أمرهم وهو القتل جزاء خيانتهم ورضيت الأوس :

يقول ابن هشام :

فلما أصبحوا (أي بني قريظة) نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتوائبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت — وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه . فسأله إياهم

عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له - فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم؟ قالوا بلى . قال رسول الله ﷺ فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها ربيعة في مسجده ، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالحنديق : اجعلوه في خيمة ربيعة حتى أعوده من قريب . فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطنوا له بوسادة من آدم ، وكان رجلاً جسيماً جميلاً ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد أتى (آن) لسعد ألا تأخذه في الله لومة لأثم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد . عن كلمته التي سمع منه .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين . قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم - فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار .

وأما الأنصار فيقولون : قد عم بها رسول الله ﷺ فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمرو ، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فقال سعد ابن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه . أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم - قال : وعلى من ها هنا ؟ - في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له - فقال رسول الله ﷺ نعم : قال سعد فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبي الذراري والنساء . قال رسول الله ﷺ لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » .

ثم نفذ رسول الله ﷺ الحكم .

٥ - حله لمشكلة هزيمة أحد :

يوم أحد خسر المسلمون المعركة بسبب عدم تنفيذ مخطط الرسول ﷺ للمعركة كاملاً وهذا الفشل سيكون من آثاره ما يلي :

- ١ - ضعف الروح المعنوية عند المسلمين .
- ٢ - طمع القبائل العربية كلها بالمسلمين .
- ٣ - سقوط هيبة المسلمين العسكرية .
- ٤ - توجه قلوب الناس كلها للقضاء على المسلمين .
- ٥ - تنفس المنافقين واليهود وتربصهم الشر بالمسلمين .
- ٦ - وهناك احتمال بعد أحد أن يفكر المشركون وقد انتصروا ورجعوا أن يعودوا لاستئصال المسلمين من جديد وقد سنحت لهم الفرصة .

فكيف فعل رسول الله ﷺ لتلافي هذه النتائج كلها :

إنه ما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر المسلمين الذين دخلوا المعركة أن يستعدوا مباشرة للحرب رغم إعيائهم ثم خرج بهم تابعاً آثار المشركين ولم يكذب المشركون يسمعون بأنباء هذا الهجوم والطرده وراءهم إلا وأعلنوا الرحيل الذي يشبه الهرب مع أنهم كانوا يفكرون أثناءها بالرجوع إلى المدينة لاستئصال المسلمين فيها ولم يقع يومها حرب ولكن هذه العملية الجريئة غسلت آثار أحد كلها وبشكل سريع. إذ كانت معركة أحد يوم السبت وكان خروج الجيش هذا يوم الأحد وبقي معسكراً في حمراء الأسد طيلة ثلاث ليال ونزل القرآن بعد ذلك فربى المسلمين ووعظهم وغسل كل الآثار النفسية للهزيمة ..

هذه أمثلة خمسة ضربناها لنرى كيف كان رسول الله ﷺ يحل المشاكل

بسرعة عجيبة فلا يبقى لها أي أثر ، هذه الإمكانية العجيبة في حل المشاكل . جعلت رجلاً كبرنارد شو الأديب الإنكليزي المشهور يقول : ما أحوج العالم إلى رجل كمحمد يحل مشاكله وهو يشرب فنجاناً من القهوة (أي ببساطة) وهذه الأمثلة التي ضربناها : نماذج . وإلا فمن قرأ كتب الحديث ككتاب البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسنند أحمد وكتب حياة الصحابة وكتب السيرة ، رأى كثرة المشاكل اليومية الفردية والجماعية التي كانت تعترض رسول الله ﷺ وهو يسوس شعباً من أعصى شعوب العالم انقياداً وطاعة وسياسة ، ومع هذا فما عرف أن مشكلة مرت عليه إلا وحلها بسهولة كاملة واستقامة مع منهج الحق الذي يدعو إليه ، والذي يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية بأن واحد ، وما كان ذلك ليكون لولا توفيق الله ورعايته .

٧ - بعد نظره عليه السلام وضرباته السياسية الموفقة :

إن الدارس لتصرفات رسول الله . يجد أنه لا يوجد تصرف من تصرفاته عليه السلام ، إلا وفيه غاية الحكمة ، وبعد النظر ، فمثلاً يرسل كسرى إلى عامله على اليمن / باذان / أن يهيج رسول الله ، وأن يقبض على رسول الله ليرسله إلى كسرى فيرسل باذان رجلين ليقبضا على رسول الله ويأتيا به إلى كسرى ويأمر باذان أحد الرجلين أن يدرس أحوال رسول الله فلما وصل الرجلان أبقاهم الرسول عنده خمسة عشر يوماً دون رد عليهم وقتل كسرى في اليوم الخامس عشر فانبأهم عليه السلام بقتل كسرى يوم مقتله وأهدى أحد الرجلين منطقة فيها ذهب وفضة وأرسل إلى باذان رسالة مضمونها انه إن أسلم أعطاه ما تحت يده وكان من آثار هذا كله أن خلع باذان ولاءه لكسرى وأسلم معلناً ولاءه لمحمد ﷺ .

ويوم أراد المنافقون أن يستغلوا شعائر الإسلام ، ليوجدوا عملاً منسقاً فيما بينهم ضد الإسلام . بأن يبنوا مسجداً يكون مركزاً لتآمرهم وديسهم وتجمعاتهم المشبوهة . أمهلهم عليه السلام حتى عاد من غزوة تبوك ، ثم حرق المسجد وهدمه وفضح الله أمرهم ، والأمثلة من هذا النوع كثيرة كلها تدل على حنكته عليه السلام وحكمته وبعد نظره السياسي ، وإن كان العمل السياسي عنده عليه السلام غير منفصل عن غيره ، فتيجده يخاطب كل قوم بأسلوب ينسجم مع نفسياتهم ، ويعامل كل إنسان بطريقة ترضي هذا الإنسان بالحق وهكذا ، انظر إلى خطابه إلى وفد بني الحارث بن كعب تجده يختلف عن أي خطاب آخر يخاطب به وفداً من الوفود لأن هذه القبيلة لها وضع خاص .

قال ابن هشام :

فاقبل خالد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب منهم قيس ابن الحصين ذي العصبة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قراد الزياتي وشداد بن عبد الله القناني وعمر بن عبد الله الضبابي فلما قدموا على رسول الله فرأهم قال من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند : قيل يا رسول الله : هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا نشهد أنك رسول الله وأنه لا إله إلا الله . قال رسول الله وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ثم قال رسول الله أنتم الذين إذا زجروا استقدموا فسكتوا فلم يراجعهم منهم أحد ثم أعادها الثانية فلم يراجعهم منهم أحد ثم أعادها الثالثة فلم يراجعهم منهم أحد ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المدان نعم يا رسول الله نحن الذين إذا زجروا استقدموا قالها أربع مرار فقال رسول الله لو أن خالداً لم يكتب إلي أنكم أسلمتم ولم تقاتوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم قال يزيد ابن عبد المدان أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً قال فمن حمدتم قالوا حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يا رسول الله قال صدقتم ثم قال رسول الله بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية قالوا لم نكن نغلب أحداً قال بلى قد كنتم تغلبون من

قاتلكم قالوا كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله إنا كنا نجتمع ولا نفرق ولا نبداً أحداً بظلم .

ولما كانت خطتنا في هذا البحث الإختصار فسنكتفي بتحليل موقف من أبرز مواقف السياسية عليه السلام ، تتضح به حنكته وحكمته بشكل كامل . هذا الموقف هو الموقف الذي تمخض عنه صلح الحديبية ، وما لهذا الصلح من آثار رائعة وهذه هي القصة كما يرويها ابن هشام نذكرها ثم نعقب عليها :

قال ابن هشام :

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذين صنعوا : أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له .

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل وقد نزلوا بذئ طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد ابن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم ، فقال رسول الله ﷺ يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (في صفحة العنق) .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ وإن رجلاً من بني أسلم قال : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعرأً أجزل (كثير الحجارة) بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ للناس : قولوا : نستغفر

الله ونتوب إليه . فقالوا ذلك . فقال : والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال : اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض في طريق تخرجهم على ثنية المزار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة .

فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قرة الجيش (غبار الجيش) قد خالفوا عن طريقهم ، رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المزار بركت ناقته . فقالت الناس : خلأت الناقة (بركت ولم تنهض) . قال : ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ، ثم قال للناس : انزلوا . قيل له يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في قلب من تلك القلب (القلب : بئر) فغرزته في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه : ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ، ومعظماً لحرمة ، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ! إنكم تعجلون على محمد ، إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت ، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتلاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ ، مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة .

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : هذا رجل غادر ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له رسول

الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة - أو ابن زيان - وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظماً لما رأى .

فقال لهم ذلك . فقالوا له : اجلس فإنما أنت اعرابي لا علم لك . فغضب عند ذلك وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أبصد عن بيت الله من جاء معظماً له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له : مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروه بن مسعود الثقفي ، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال :

يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس (الأوشاب : الأخطا) ثم جئت بهم إلى بيضتك (القبيلة والعشيرة) لتفضها بهم . إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل . قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً .

وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد ، فقال : أمصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟

قال : هذا ابن أبي قحافة .

قال : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها .

ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه . والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد . فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول :

أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك .
فيقول عروة :
ويحك ما أفظك وأغلظك .

فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أي غدر ، وهل غسلت سؤأتك إلا بالأمس . فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً . فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً . فروا رأيكم .

وإن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له « الثعلب » ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وارادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلزوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي ابن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان ابن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة . فخرج عثمان إلى مكة فلقبه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش

فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل . قال ابن اسحاق فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ قال : حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى نناجز القوم فدعا رسول الله الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجعد بن قيس أخو بني سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقتة قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان بن عفان باطل .

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو وأخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : إئت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ولم يبق إلى الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال يا أبا بكر : أليس برسول الله ؟ قال بلى قال أو لسنا بالمسلمين قال بلى قال : أليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر :

يا عمر : الزم غرزه ، فاني أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؟ أأنت برسول الله .

قال : بلى

قال : أو لسنا بالمسلمين ،

قال : بلى

قال : أو ليسوا مشركين ؟

قال : بلى

قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني .

فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا .

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال : أكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » فكتبها ثم قال : أكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . إصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه . وان بيننا عيبة مكفوفة وانه لا اسلال ولا اغلال . وانه من احب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ..

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو

جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه ، ثم قال : يا محمد لقد لحت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل ينثره بتليبيه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله ﷺ يا أبا جندل ، إصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : إصبر يا أبا جندل ، فانهم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني عمر قائم السيف منه ، يقول عمر :

رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك وعلي بن أبي طالب ، وكان هو كاتب الصحيفة . اهـ

هذه قصة الحديدية فلنر آثارها وقيمة هذا العمل من الناحية السياسية الحركية :

يقول الزهري ، فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان

القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك .

قال ابن هشام :

والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في الف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف « وحسبك أن تعلم أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان ابن طلحة زعماء قريش اسلموا في هذه المرحلة .

ومن آثار هذه العملية :

أن تهدمت حجة قريش الأساسية في جمعها العرب على رسول الله ﷺ إذ أن قريشا أخذت زعامتها من كونها مجاورة للكعبة بيت الله ولهذا الحوار ولتعظيمها لهذا البيت كانت العرب تعظمهم وتدين لهم فلما سار رسول الله ﷺ معلنا عمرته وتعظيمه للبيت الحرام تهدم أمام الرأي العام كثير من الحجب . ومن آثار هذه العملية أن فرغ الرسول ﷺ من العرب الذين يسرون في فلك قريش لغيرهم ، وأن تفرغ لليهود فأنهاهم من جزيرة العرب سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ومن آثار هذه العملية أن اقتنعت كثير من القبائل العربية بتعنت قريش حتى أن الأحابيش كادوا يدخلون المعركة بجانب محمد ﷺ يومها وهم حلفاء قريش المشتركة .

ومن آثار هذه العملية أن أعطيت القبائل العربية حرية التحالف مع محمد ﷺ وهذا شيء ما كان ليكون من قبل ، فدخل من شاء من هذه القبائل في حلف رسول الله ﷺ .

ومن آثار هذه العملية وكثرة إقبال الناس على الإسلام بعدها ، أن انقطع

أمل الناس من غير المسلمين بنصر أو عزة أو غلبة أو منعة إلا بالإسلام، فضلا عن انقطاع أملهم بانتهاء الإسلام والمسلمين .

ومن آثار هذه العملية أن تفرغ رسول الله ﷺ لفتح آفاق أمته على العالم . وتفهمهم مهمتهم العالمية ، بإرسال رسله وكتبه إلى الدول الكبرى يومذاك . كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشي ...

ومن آثار هذه العملية أن خمدت فتن المنافقين الذين كانوا يشدون أزرهم . وتتقوى ظهورهم بقريش ، وتبعثرت القبائل العربية الوثنية ، وهمدت حدة قريش وعصبيتها ، واسترخت وأخذت تقوى تجارتها ، وركنت إلى السلام ، ولما كانت الهدنة مديدة المدة لم تفكر في البحث عن أحلاف لها بينما كان المسلمون يتوسعون يوميا .

ومن آثار هذه العملية فتح مكة . إذ عندما نقضت قريش عهدها واعتدت على حلفاء رسول الله ﷺ من بني خزاعة وعمد رسول الله ﷺ إلى مكة فاتحا. لولا صلح الحديبية وما أحاط به لرأيت عرب الجزيرة العربية كلهم وقد ورمت أنوفهم وأقبلوا للدفاع عن مكة وكعبتها وأصنامها وقريشها، ولكن صلح الحديبية والآثار التي ترتبت عليه لم يبق بقية من الحمية لا عند قريش ولا عند غيرها لها ، فكان أن فتحت مكة صلحا بل لقد فتحت مكة من يوم دخلها المسلمون في العام التالي للصلح بأعدادهم الضخمة وروحهم العالية المرتفعة وتظاهرهم التي أرهبت من رآها .

لقد كانت ضربة سياسية لا يستطيعها غير محمد ﷺ . إذ ضربها وأصحابه غير راضين ، وأعداؤه لا يعرفون كيف يتصرفون . وإنك عندما تعلم أن عمر وكبار الصحابة كانوا كارهين لما حدث ، وترى بعد ذلك هذه الآثار ، تدرك أن الأفق الذي ينظر منه رسول الله ﷺ أفق فريد في تاريخ الزعامات كلها .

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتعرض لمصير أقصى الشروط التي

فرضتها قريش في المعاهدة والذي أثار المسلمين ، وهو أن قريشا لا ترد من جاءها من المسلمين مرتداً وأن المسلمين يردون من جاءهم من مكة مسلماً بدون إذن ، لقد كانت نهاية هذا الشرط أن طلبت قريش نفسها الغاء هذا الشرط من المعاهدة وقصة ذلك ما يلي :

لما فر أبو بصير عبيد بن أسيد وهاجر إلى المدينة بعد صلح الحديبية أرسلت قريش وراءه رجلين وقالوا :

العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر فقال أجل والله لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال ﷺ حين رآه :

لقد رأى هذا ذعرا فلما انتهى إلى النبي قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله قد وفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر . قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت عنده عصابة فوالله ما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا تعرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله تعالى والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل إليهم .

وهكذا ألغت قريش بنفسها أشد البنود قسوة كما ظنها المسلمون .

إذا عرفت آثار الحديبية وعرفت أن الصحابة كلهم كانوا غضاباً لهذا الصلح . حتى إن رسول الله ﷺ لما أمرهم بعد كتابة الصلح أن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا متحللين من إحرامهم لم يقيم منهم رجل واحد ،

مما داخلهم من الغم مع تكرار رسول الله ﷺ الأمر ثلاثاً . ولم يفعلوا إلا بعد أن خلق عليه السلام ونحر هديه ، هنالك أفاقوا ونفذوا ما أمرهم به ، اذا عرفت هذا تدرك الأفق العالي الذي كان ينظر منه عليه السلام ، وتدرك أن قيادته جزء من صلته بالله المحيط علما بكل شيء فكان مسدداً راشداً مهدياً .

٨ و ٩ - الوصول الى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر

واحكام البناء بحيث يكون قادراً على الصمود في المستقبل ووضع أسس النمو الدائب المتطور بحيث تحتفظ الدعوة بامكانية السير عبر العصور :

لقد مضى على بدء الإسلام أربعة عشر قرناً ولا زال الإسلام بانتشار ولا زال يتوسع ، ورغم كل ما تبذله الدعايات الكافرة من أعدائه . سواء كانوا أصحاب دين أو غير أصحاب دين ، بطرق منظمة وغير منظمة ، فلا زال الإسلام هو الإسلام ولا زال قادراً على أكثر من الحركة ، ورغم الملاسات التاريخية التي أوقعت العالم الإسلامي في قبضة أعدائه ، ورغم سيطرة هؤلاء الأعداء . فالإسلام باق ورغم أن الكافرين استطاعوا أن يهيؤوا لأعداء الإسلام وسائل الانتصار داخل العالم الإسلامي ، فالاسلام شامخ يتحدى ويقهر . وخلال هذا التاريخ الطويل . دخل الاسلام في صراع مع ثقافات فغلبها ، ومع أديان فغلبها ، ومع قوى عظيمة فصهرها .

وخلال هذا التاريخ الطويل سقطت دول تحكم باسم الإسلام، وقامت دول تحمل الإسلام واستوعب الإسلام الجميع . وفي كل مرة كان الإسلام محمولاً حق الحمل ، كان أصحابه هم الغالبين وحضارته أرقى الحضارات وما أتى المسلمون إلا من تقصيرهم وتفريطهم وجهلهم بالإسلام .

القرون الوسطى عند الأوروبيين قمة التأخر ، والقرون الوسطى عندنا قمة التقدم ، وكانوا يومها متمسكين بدينهم وكنا لا زلنا متمسكين بديننا ومن هنا مفرق الطريق ، حيث كان الإسلام حمل أتباعه على التقدم . وسرى هذا واضحا في المبحث الثالث وحيث كان غير الإسلام ديننا كان تأخر .

والإسلام الآن يصارع على كل مستوى شرقا وغربا فكرا وسلوكا وهو في كل حال أبدا غالب وإن اضطهد المسلمون فذلك لقوة فكرهم لا لشيء آخر .

وما أحد يجهل أن روح الجهاد في قلب المسلمين هي التي حررت العالم الاسلامي من قبضة مستعمرية في عصرنا هذا ، وإن كان جهاد المسلمين ضرب بيد ناس منهم وليسوا منهم ، فأبدلوا بعد التحرير المسلمين بالاسلام مذاهب أخرى . هذا الإسلام الذي كان هكذا عبر العصور يحمله جيل إلى جيل وهو الآن يستعد ليكون له المستقبل كله .

هذا الاسلام استطاع أن يفعل هذا لأن الأساس الذي بناه رسول الله ﷺ له خلال ثلاث وعشرين عاما ، كان من القوة بحيث يحمل كل العصور ، ويسع كل العصور .

ونحن اليوم نرى دعوات فكرية وسياسية كثيرة ، لا تحمل في جوهرها إمكانية تطبيقها ، أو لا تستطيع قياداتها أن تحققها في عالم الواقع مع أن بيدها كل السلطات وبيدها كل الوسائل . ولكنها تقف عاجزة عن تحقيق الفكرة ، وأحيانا نراجع من نصف الطريق ، ولكن الظاهرة التي نراها في حياة رسول الله ﷺ أنه خلال عشر سنوات فقط كان كل جزء من أجزاء دعوته قائما يمشي على الأرض ، على أكمل ما يكون التطبيق ، وكل جزء من أجزاء دعوته قابلا للتطبيق ، خلال كل عصر وما مر عصر إلا ورأيت الإسلام مطبقا بشكل من الأشكال ، فإذا ما علمت بأن دعوة سياسية فكرية تحتاج إلى عشرات السنين

حتى تنتشر وتنتصر وقد تطبق وقد لا تطبق ، أدركت أن العملية هنا ليست
عملية عادية وإنما هي شيء خارق للعادة تحس وراءه يد الله . وتحس بالتالي أن
الدين دين الله . وأن محمدا عبده ورسوله ...

وقد آثرنا هنا الاختصار لأن المسألة الثالثة (الإسلام) كلها برهان عملي
على أن شريعة الإسلام وأحكامه تعلو في كل عصر وعلى كل فكر .
وننتقل هنا نقلة أخرى لاستعراض جوانب الشخصية القيادية لرسول الله
ﷺ في أمور الحرب كما وعدنا في أول هذا البحث :

* * *

التسم الثاني: الرسول عليه السلام
الشخصية القيادية العسكرية المثلى

قبل الكلام عن شخصية الرسول ﷺ العسكرية . نحب أن نذكر بعضاً من مواقف العسكرية كنماذج تكون بمثابة مقدمة للحديث في هذا الموضوع :
١ - قال ابن هشام يروي قصة فتح حصون خيبر عن أنس بن مالك :
« واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا محمد والحميس فأدبروا هراباً فقال رسول الله : الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .
قال ابن إسحاق :

وكان رسول الله حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر (جبل بين المدينة ووادي الفرع) فبني له فيها مسجداً ثم على الصهباء (موضع بينه وبين خيبر روضة) ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع . فنزل بينهم وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ، فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهاليهم حساً . ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهاليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خيبر ... يفتحها حصناً حصناً ... » .

تأمل : عنصري المفاجأة والمداهمة ، حيث لم يستطع يهود حصون خيبر ،
أن يجمعوا قوتهم ، وتأمل حيلولة رسول الله ﷺ بينهم وبين المدد ، وتأمل
الإحتياطات المتخذة لابقاء غطفان في مواقعها .

ب - بعد فتح مكة سمع رسول الله ﷺ ان قبائل هوازن وثقيف ونصر
وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال . قد جمعوا جموعهم لحربه ،
فبعث اليهم عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم
فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن حذرد فدخل فيهم فأقام
فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ . وسمع من
مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

يقول ابن هشام :

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند
صفوان بن أمية أدراعا له وسلاحا فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال :
يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا غدا فقال صفوان : أغصبا
يا محمد ؟ قال : بل عارية وهضمونة حتى تؤديها لك قال ليس بهذا بأس
فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

وخرج رسول الله ﷺ بجيش عدته اثنا عشر ألفا منهم ألفان من أهل
مكة .

وجعل أمير مقدمته خالد بن الوليد . وطبعا المفروض أن تكون مهمتهما
إستطلاعية .

يقول جابر بن عبد الله فيما يرويه عنه ابن هشام :

لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط
إنما تنحدر فيه انحدارا وفي عماية الصبح (أي ظلامه قبل أن يتبين) وكان

القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعبه واحناؤه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا .»

وهنا تجد كيف أن خالدا رجل الحرب العظيم ، قد فشل في مهمته الاستطلاعية الضاربة ، إذ أصبح في الكمين هو ومقدمته . وكانت صدمة فرت منها المقدمة وثبت خالد ، إلا أن الجيش لما رأى المقدمة فارة دون معرفة السبب ، والجيش فيه من أهل مكة الكثير وهم بعد ليسوا في حالة نفسية جيدة . ففروا وأخذ الناس هول المفاجأة وبدقائق معدودات فر الجيش كله ، ولم يبق حول رسول الله ﷺ أحد :

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذرايرهم ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف والطلاق فادبروا عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ ندائين لم يخلط بينهما التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار : قالوا لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار فقالوا لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال : أنا عبد الله ورسوله .

وروى ابن هشام عن العباس بن عبد المطلب قال :

إني أسمع رسول الله ﷺ آخذاً بحكمة بغلته (أي لجامها) البيضاء قد شجرتها بها وكنت امرءاً جسيماً شديد الصوت ورسول الله ﷺ حين رأى ما رأى من الناس :

أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء فقال : يا عباس : إصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمره فقال : فأجابوه لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت : يا للأنصار ثم خلصت أخيراً يا للخزرج وكانوا صبراً عند الحرب ..

عن جابر بن عبد الله قال : بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جملة يصنع ما يصنع ، إذ هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه فيأتيه علي بن أبي طالب من خلفه فضرب عرقوبي الحمل فوقه على عجزه ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فأنجف عن رحله واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تأمل هذه المقتطفات من غزوة حنين : إرساله العيون للإستطلاع . إختياره خالدا . استعارته الأذراع والسلاح . تلافيه الهزيمة . إدارته المعركة بنفسه . معرفته برجاله الذين يعتمد عليهم في ساعة المحنة .

وقبل الإنتقال عن هذا المقام ، نحب أن نذكر هنا موقفاً يجمع بين أعلى ما في العبقرية العسكرية والسياسية :

بعد الانتهاء من معركة حنين قرر الرسول ﷺ أن يفتح الطائف ، فذهب إليها وحاصرها ، وكان أهلها عندهم خبرة في فن الدفاع العسكري ، والبلدة محصنة وخيراتها كثيرة ورأى الرسول ﷺ أن الحصار سيطول فاستشار نوفل بن معاوية فقال :

يا نوفل ما ترى في المقام عليهم فقال يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك فأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل .

والآن تصور منطقة الطائف وحولها قبائل متوترة منذ قريب لا زالت مستقلة فهي لا شك إذا تفرغت لنفسها ولم تشغل قد تسبب مشكلة خطيرة في قلب الدولة الإسلامية . اذ تكون مجمعا لكل متوتر حاقد .

فأنظر كيف هيأ لها رسول الله ﷺ ما يشغلها ويضايقها حتى أسلمت : كان قائد القبائل المحاربة لرسول الله ﷺ يوم حنين مالك بن عوف . وقد فر بعد المعركة وبلغاً إلى ثقيف فلما جاء وفد هوازن يفاوض الرسول

ﷺ سألهم عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا هو بالطائف مع ثقيف فقال رسول الله ﷺ : أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل فأتني مالك بذلك فخرج من الطائف . وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال ما قال فيحبسوه فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له فأتني به إلى الطائف فخرج ليلا فجلس على فرسه فركض حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها فلحق برسول الله فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة الإبل وأسلم فحسن إسلامه ... فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وتلك القبائل : ثماله وسلمة وفهم فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن الثقفي : هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة . وأتانا مالك بهم ناقضاً للعهد والحرمة . وأتونا في منازلنا ولقد كنا أولي نقمة .

فأنظر كيف استطاع رسول الله ﷺ أن يشغل ثقيفا ويضايقها فيقضي على الأخطار والمشاكل المتوقعة بهذه البساطة الكبيرة .

لعلك بهذين المثالين من مواقفه العسكرية عليه السلام أخذت صورة على أن محمدا ﷺ في القيادة العسكرية ، كهو في كل شيء ، يمثل دائماً القمة التي لا يرقى إليها آخرون ، وقد حلا لعباس محمود العقاد أن يعقد مقارنة بين محمد ﷺ والقائد العسكري الإفرنسي النابغة في فن الحرب نابليون بونابرت ، فأرانا في هذه المقارنة أنه ما من قضية مهمة في أمر الحرب فطن لها نابليون وطبقها إلا وكان رسول الله ﷺ سبقا لها . هذا مع أن نابليون كان متفرغا مختصا بفن الحرب . ثم إنه صادف في حياته العسكرية من الفشل ما لم يحدث قط لرسول الله ﷺ عسكريا ، ولا لمن رباهم ودخلوا المعارك الكبرى بعده ، هذا مع ملاحظة الإمكانيات المحدودة لرسول الله ﷺ والإمكانيات الكثيرة الموجودة بيد غيره من أمثال نابليون ، وقد استطرد العقاد استطرادات مفيدة

في هذا الموضوع نحب أن ننقلها مع شيء من الحذف لبعض الجمل لفائدتها ولكن قبل ذلك نحب أن نقرر هذه الحقيقة وهي :

أن الرسول ﷺ بدأ حياة دولته العسكرية بجيش مقداره ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا . محاط بقبائل الجزيرة العربية كلها . مشركيها ويهودها ونصاراها وكلها معادية له ، وفي الجزيرة العربية وعلى أطرافها سلطان لفارس والروم ، وقد استهدفهم رسول الله ﷺ بحربه وبهذه القوة الصغيرة وبدعوته الكبيرة شق رسول الله ﷺ طريقه دعوة وسياسة وحربا . فأخضع الجزيرة العربية كلها ، ولم يتوقف إلا وقد هيا المسلمين لحرب الفرس والروم بأن واحد . فأنتم خلفاؤه ما بدأه عسكريا . فسقطت الدولة الفارسية وتقلصت الدولة الرومانية عن آسيا وأفريقيا تقريبا . كل ذلك بحوالي ثلاث وعشرين عاما وما حدث بعده من فتوحات لا يمكن أن ينسب إلا إليه فإنه من آثار تربيته وتأسيسه وتخطيطه .

وهذا شيء يتحدى التاريخ سابقاً ولاحقاً أن يكون قد حدث مثله ولو مرة في تاريخ العالم . فنحن اذا ما نقلنا هذه المقارنة لا نعني التساوي . حاشا ، وإنما نريد أن نبرهن على أن كل عظمة يرجع بها رسول الله ﷺ على الاختصاصيين المتفرغين لها ، وهو في كماله بها ككمالها في كل شيء غيرها ، يرجع الناس كلهم بكما لا يهم كلها .

يقول « العقاد » : ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذي كان هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية ، والذي ظهر في الحرب العالمية الحاضرة انه لا يزال الخطوة الأخيرة في جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود . لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في خطط النبي العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم .

١ - « فنبليون » كان يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع .. وإنما كان عنايته الكبرى منصرفة إلى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التي يلجأ إليها جلة القواد .

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور ..

أن يختار الموقع الملائم له ،

وأن يختار الفرصة

وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداداته .

وكان النبي ﷺ سابقاً إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها ... فكان كما قدمنا لا يبدأ أحداً بالعدوان ، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال ، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك والناس مجذبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة ... فلا يشنيه ذلك عن الخطة التي تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي ، فلم يحدث ما توقعوه .

وكان عليه السلام يعتمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضي على عزائم أعدائه بالقضاء عليها ... ولا يضع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي المهاجمين ، إلا أن يكون الهجوم وبالاً على المتقدمين عليه ، كما حدث في غزوة الخندق .

٢ - وكان نابليون يقول إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد .

والنبي عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان . وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض المعارك مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح

والركاب إلى جانب رجحانهم في عدد الجنود ..

ومعجزة الإيمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة ، فالنبي عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة ... فلا يقال هنا أن الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون . وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان .

٣ - وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره ، فكان يحارب الإنجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل إلى القارة الأوروبية وتحويل المعاملات عن طريق إنجلترا إلى طريق فرنسا .

وهكذا كان النبي عليه السلام يحارب قريشا في تجارتها . ويبعث السرايا في إثر القوافل كلما سمع بقافلة منها .

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسموها « قطعاً للطريق » وهي سنة المصادرة بعينها التي أقرها « القانون الدولي » وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور ، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية ، رشيداً تارة وغالياً في الحمق والشطط تارة أخرى .

٤ - وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش ، ولا يفتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة .

ونرجع إلى غزوات النبي عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة ، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها في الغدر والوقعة ، كما حدث في حصار بني قريظة وبني قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف .

٥ - وكان نأبليون معتداً برأيه في الفنون العسكرية ، ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغني عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال .

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه ببدر ، وألعبنا اليه آنفاً - حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر ، ثم بتغوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل اليه الأعداء . وقيل في روايات كثيرة أنه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة . فحفر الخندق وعمل النبي بيديه في حفره .

وقبول النبي مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة وسنة من سنن القواد الكبار ، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقاً أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في إبان الهجمة عليها ، لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور في جميع وقعاته . وفي وقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين رامياً مشدداً عليهم في التزام موقفهم قائلاً لهم :

احموا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل ، والذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة مدينة ، ولكن المشاورة هنا هي المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق إليه النبي وما تبع فيه نأبليون ، فهذه خصلة معهودة في كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب .

٦ - ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نأبليون .

وكان فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه يضربون العبدین المستقيين من ماء بدر لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء . وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم فعرف قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذي يحتاج إليه . وكان صلوات الله عليه إنما يعول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلى العلم بفجاجة ودروبه ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خير به من فنون أو دلائل استطلاع . »

٧ - واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام وكان يقول : إنه يخشى من أربعة أقلام ، ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام .

والنبي عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التي عاهدوا عليها ويشهرون به وبالإسلام ، أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون في هجوه وهجو دينه ، فينفذ إليهم من يحاربهم في حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم .

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الإنجليزي كولردج الذي كان يخوض في ذمه ويستهوئ الأسماع بسحر حديثه .

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين : لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الإلهية والوثنية . وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلا من سبل الصراع في هذا الميدان . فليس في حالة سلم مع النبي إذن من يحاربه في

صميم الدعوة الدينية ويقصده بالطعن في لباب رسالته الإسلامية . وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهدده وإنما هو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة إلا ريثما تعود .

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح في وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب إزهاق حياته . وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين ، ولو كان للرسول الإسلامي من غرض لحاز له أن يقبل المسألة ممن يحاربونه في دينه وإن لم يشهروا السيف في وجهه . فان الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذي يضربون فيه .

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق إليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الحطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح ، ولم يتخذ محمد الحرب صناعة .. فاذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا إليه فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذي تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأُمي بين رمال الصحراء .

ولقد كانت خبرة النبي ببُعوث الاستطلاع كخبرته ببُعوث القتال فكانت طريقته في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والإتباع مثلا يحتذى في جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذي كثرت فيه ذرائع التخبيث والمرَاوغة وذرائع الكشف والدعوة فكثرت فيه — من ثم — حاجة المقاتلين إلى استقصاء أحوال العدو .

ففي الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التي تصدر إلى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو في عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض . إلى أمثال ذلك من العلامات التي تعين بها الجهات .

ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعاً على سر البعث ورجاله جميعاً يجهلون ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أم في مناورة استطلاع ، إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات وهناك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورهما للتهيؤ والتنفيذ ولا خوف من كشفها في تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو إذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة . ولا سيما إذا كانت الحركة من حركات البحار .

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة . وقد عرفت في المأثورات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش معه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه ان « سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامضي فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها غير قريش وتعلم لنا من أخبارهم » .

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثاً وقديماً وعند بداءة الدعوات على التخصيص .

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبي عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عيناً عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحذور . ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون ، وإن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبي عليه السلام في جميع المطالب وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع ، ولهذا كان إذا أراد غزوة ورى غيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب إلى الآن .

ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصاته ألا يكره أحداً منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام .

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه إذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعاً من أرسلوه ، بل لعله ينقلب إلى النقيض فيحرف الأخبار عمداً أو يتلقاه على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه .

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة حتى تطمئن إلى صحته قبل الاعتماد عليه .

وفي الحروب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطائرات وراء الصفوف ، فيتسللون إلى مراكز المواصلات ويعبثون بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والخيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الإتصال برؤسائهم من بعيد .

قبل في الإعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقبل في انتقادها والتنبيه إلى خطرها كثير .

فمن دواعي الإعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين وأنها شيء جديد في شكله وإن لم يكن جديداً في غايته وممراته .

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية . فهي تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لإنجازه رقيقا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه فليس أيسر له إذا هو انفرد وأعوزته الرغبة في إنجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل إليه من بلاد الأعداء طلبا للسلامة . ولا عقاب عليه إلى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من يحاسبه

وبعاقبه . وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات .

فالحطة الهتلرية فاشلة لا محالة ان لم ينفذها يريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول إليهم ، وهي لهذا أخرى أن تحسب من وحي إخوان الطريق وإلهام العقائد لا من النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون في نفوس الناشئة جذوة البغضاء ، ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذي يغني عن الرقابة ساعة التنفيذ ، لحبطت الحطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب .

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والإكراه . فهذه « أولا » بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه الفعال بين رجالها إذا أريد .

وهي « ثانيا » بعثة استطلاع لا يغني فيها عمل الكاره المقسور ، وألزم ما يلزم العامل فيها لإيمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فان أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء .

أما غرض البعثة كلها وهو الإستطلاع ، فقد كان النبي عليه السلام عليما بمزاياه . معنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية في الوقت الضروري ، ويحول من ثم دون الإنتصار عليه .

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حيث أصيب في وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون في روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم .

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب

من بعض الثقات قبل التوغل في الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع .

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ، ويخلون المدن والطرق حتى لا يرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع . أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الإستطلاع الذي كان شديد التعويل عليه .

أما « هتلر » فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة .

فقد اشتهر أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم. واشتهر أنه أخطأ في استطلاع القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ويترقب الإغارة عليه لنصرته كائنا من كان ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافي وهو عنصر الجرمان .

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطيء قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم — كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية — أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين .

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية . ينبغي أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو أشكالها أو أحجامها ، لأننا إذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق ، إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وأن حربا تدار بالمذيع والتليفون أعجب من حرب تدار بالقم والإشارة ، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والإبل ،

وأن المدفع امضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم ، فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهي إلى نتيجة واحدة وهي استتصخام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة الغابرة كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التي توجه هذه الضخامة .
لكنتنا إذا نظرنا إلى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه الف رجل قد تدل على براعة في القيادة لا نراها في توجيه مليون بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة .

وهذه الفكرة هي التي ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه وفي الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة في توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الرأي والسلاح والكلام . وهذه القدرة هي شهادة كبرى للرسول تأتي من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال .

ويزيد هذه الشهادة عظما ، أن الرجل الذي يجتنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هباب ، شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجور فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال .

فمحمّد كان في طليعة رجاله حين تحترق نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان علي فارس الفرسان يقول « كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو » .

ولولا ثباته في وقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين ، لحقت الهزيمة على المسلمين . وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد هددها الأعداء

بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة لم يدعه اليه شيء . لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الإستطلاع وهو قرير في داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يشنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب إلى غيره .

ومشاركته في الوقعات الأخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفي نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهي شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود .

وإذا كان القائد خبيراً بالحرب قديراً عليها غير هيب لمخاوفها ، ثم اكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية وتأتي جميع صفاته الحسنى تبعاً لصفات الرسول . اهـ

نقلنا كلام العقاد الآنف لما فيه من فوائد ، إلا أننا لا نعتقد أنه أحاط بمزايا رسول الله ﷺ العسكرية . ولا نعتقد أنه أراد ذلك ، وإنما لمس بعض هذه المزايا لمساً خفيفاً ، ولا نعتقد كذلك أننا نستطيع استجلاء هذه المزايا كلها لقصورنا أولاً وللإيجاز الذي نقصده ثانياً في هذه الكتابات ، غير أن هناك ميزة تربو على كل ما ذكر لرسول الله ﷺ من ميزات في قضية الحرب لم يتعرض لها حتى الآن هي تأمينه ﷺ لجيشه ولدولته دائماً (الهيبة العسكرية) التي تجعل الآخرين دائماً في حالة رعب وقد عبر هو نفسه صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الحقيقة بقوله « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » وإن من جملة عوامل النصر المهمة دائماً في حرب المسلمين هذه الناحية التي وطد أركانها رسول الله ﷺ في حياته ، وحافظ عليها أصحابه بعده ، وهي التي كانت تفعل في قلوب أعدائه المقاتلين الأفاعيل . ولو درسنا حياة الرسول ﷺ العسكرية لرأينا أن هدفاً كبيراً دائماً من أهداف عملياته العسكرية كان إبقاء هذه الهيبة وزيادتها وتأكيداتها وتوسيع دائرتها حتى وصل المسلمون إلى حالة في النهاية كان الناس كلهم يهابونهم ولا يهابون أحداً . لا دولة كبرى ولا صغرى ولا قبيلة ولا

جيشا ولا سلاحا ولا عددا ولا عدة فترى الجيش الصغير (٣٠٠٠) يهجم على الجيش الكبير (٢٠٠,٠٠٠) يوم مؤته ولا يبالي بالنتائج ، واليك عرضا موجزا لأعمال الرسول ﷺ العسكرية خلال سنة من أول سني المدينة لتعرف كيف أوجد هذه الهيبة العسكرية وأمنها ،

ما كاد يستقر بالمدينة حتى يرسل في رمضان من السنة الأولى للهجرة حمزة ابن عبد المطلب في ثلاثين من المسلمين فيلتقي بأبي جهل يقود قافلة لقريش ومعه ثلاث مائة راكب فيحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني فلا يقع قتال .

وفي شوال من نفس السنة يرسل عبيدة بن الحارث في ستين راكبا إلى وادي رابغ فيلتقي بأبي سفيان ومعه مائة مشرك فيترامى الفريقان بالنبل ولا يقع قتال .

وفي ذي القعدة يرسل سعد بن أبي وقاص في نحو عشرين رجلا يعترض عيرا لقريش ولكنها تفوته ، وفي صفر يخرج الرسول ﷺ بنفسه بعد أن يستخلف سعد بن عباد على المدينة فيسير حتى يبلغ ودّان يريد قريشا وبني ضمرة فلم يلق قريشا وعقد حلفا مع بني ضمرة .

وفي ربيع الأول خرج الرسول ﷺ على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط معترضا عيرا لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاته .

وفي جمادى خرج إلى العشيرة من بطن ينبع وأقام بها شهرا صالح فيه بني مدلج .

ثم أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة واستاق سرحها فخرج النبي ﷺ في طلبه حتى بلغ وادي سفوان قريبا من بدر فهرب كرز ولم يدركه رسول الله ﷺ .

وعند مقفله من هذه الغزوة أرسل عبد الله بن جحش بسرية فيها ثمانية من المهاجرين .

وفي رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التي كانت أول صدام عنيف مسلح بين المسلمين وغيرهم سقط فيه قتلى أعتى المشركين، فأنظر من رمضان إلى رمضان كم سرية وكم غزوة حركها رسول الله ومن حكم هذه السرايا :

١ - إنها تدريب عملي وإعداد نفسي للمسلمين يجعلهم دائماً في حالة تعبئة عامة وحذر دائم واستعداد يقظ وحركة قتالية سريعة .

٢ - إشعار الأعداء بالقوة التي تهاجم ولا تنتظر حتى تهاجم والقاء الرعب في قلوب من يفكر بغدروشر .

٣ - الإشعار بالانتقال من مرحلة الصبر إلى مرحلة الرد بالمثل على الظلم وإيقاف المشركين عند حدهم .

وكانت معركة بدر الضربة الساحقة التي حققت هذه الأغراض جميعاً ، وكان ما قبلها مقدمة لها ، وخلال عشر سنوات قضاهما الرسول في المدينة ، تجد أن أعماله العسكرية من غزوات إلى سرايا بلغت عشرات وكلها كانت محكمة وسريعة وناجحة ، من غزوة ضد قريش إلى عملية ضد اليهود ، إلى تحرك نحو القبائل العربية على الحدود الرومانية والفارسية . إلى مناوشة مع الدولة الرومانية ، ولم يقبض عليه السلام حتى فتح للمسلمين طريق العمل العسكري الذي انطلقوا منه على العالم . فلم يوقفهم شيء إلا ضعف جذوة الإسلام في أنفسهم لأمد .

والأهم من الناحية العسكرية مما قدمناه هو أن الرسول ﷺ بلغ بأتباعه من الانضباط العسكري مبلغاً ما بلغه قائد عسكري آخر ، ونحن نعلم أن الانضباط العسكري هو كل شيء في المعركة ولا يمكن أن تظهر عبقرية قائد عسكرياً إلا إذا كان الانضباط موجوداً ولذلك فإن ثمانين بالمئة من عبقرية القيادة العسكرية تظهر في إنضباط جندها معها في اللحظة الحاسمة ، فإذا بلغ رسول الله ﷺ من هذا قمته وفي أمة العرب الشعب المارد المتمرد الذي لا يعرف انضباطاً ولا طاعة فتلك معجزة المعجزات .

وكمثال على مدى الروح الإنضباطية التي تمتع بها المسلمون في آخر حياته عليه السلام ما حدث يوم غزوة تبوك . إذ تخلف بعض الأتباع عن الذهاب معه ﷺ فأمر رسول الله ﷺ الناس بمقاطعتهم (وهم ثلاثة) فلم يكلمهم أحد حتى تاب الله عليهم وستمر معك القصة في / مبحث الثمرات / .

إن عبقرية هذه القيادة لا مثيل لها في كل تصرف من تصرفاتها الصغيرة والكبيرة ، التي نجدها حيث يبقى أبا سفيان يوم فتح مكة على الطريق تمر به كتائب المسلمين كلها ، حتى ينقطع آخر أمل له في المقاومة وحتى يتلاشى آخر تردد عنده في الإستسلام ، والتي نجدها حيث يغزو الروم يوم تبوك ويعقد المعاهدات مع أطراف دولتهم ، ممهدا بذلك هذه الأطراف لاستقبال الجيوش الإسلامية في المستقبل .

وإذا كانت نتائج العمل العسكري ميزانا توزن به قيمة هذا العمل العسكري فانه لا يوجد في ميزان العالم أجمع أثقل من العمل العسكري الذي قام به رسول الله إذ ما من معركة حدثت للأمة الإسلامية بعد إلا وكانت قبسا من شمس رسول الله ، وما من ظفر حققه المسلمون إلا ووراءه الروح التي بثها رسول الله في موات القلوب ، ولئن مرت ظروف انتصرت بها الأمة الإسلامية في عصرنا . فاستغل انتصارها اعداؤها ، فان تعاليم رسول الله ستجعل هذه الأمة في وضع آخر مرة أخرى باذن الله .

وبعد : ان الرسالة الثالثة من هذا الكتاب وهي التي تشكل البحث الثالث فيه ستوضح تعاليم رسول الله بشكل مفصل . وهذا الذي جعلنا نقصر هذا البحث فقط على صفات الرسول دون ذكر التعاليم التي تنبع عنها هذه التصرفات ، وبصرف النظر عن الحدود التي حددها رسول الله لكل شيء في الحياة البشرية لتسهيل البحث ، وإنما أردنا إبراز الكمال الذي يتمتع به رسول الله في كل شيء في هذا الفصل . بحيث استجمع أعلى قمم السلوك البشري في كل شيء

فكان الإنسان الوحيد الذي يصح أن يكون قدوة البشر العليا في كل شيء .
وبعد أن تقرأ الرسالة الثالثة ستري بوضوح أن البشرية لن يستقيم أمرها إلا
بأخذها بتعاليم محمد والافتداء به ، وأن الحدود التي حددها رسول الله في
حياته السلوكية والعملية في كل الجوانب هي أرفع وأعدل ما ترتقي إليه آمال
البشر مع الواقعية التي لا تخرج هذه التعاليم إلى مثل معطلة ، وإن أي انحراف
عن التأسى برسول الله واتباع تعاليمه إنما هو في الواقع ارتكاس وانتكاس
مهما حاول أهل الباطل أن يفيضوا عليه من الالقاب والنعوت والتسميات .
فالرسول عليه السلام قد أعطى البشر بوحى من الله الصيغة الوحيدة للحق ،
فمهما ابتغت البشرية الهدى في غير هذه الصيغة فلنأبى إلى ضلال تسير . لقد
رأيت في هذا الفصل :

ان رسول الله صادق وذلك هذا على أنه رسول الله .
وان رسول الله أمين في تنفيذ ما دعا اليه وذلك هذا على أنه رسول الله .
وان رسول الله قد بلغ دعوة الله حقاً وذلك هذا على أنه رسول الله .
وان رسول الله أعقل البشر وأعظمهم فطانة فذلك هذا على أنه رسول الله
حقاً .

وان رسول الله أعظم الناس في باب التربية والتعليم وذلك هذا على أنه
رسول الله حقاً .

وان رسول الله أكمل الخلق أباً وزوجاً وأخلاقاً وقيادة وكل ذلك ذلك
على أنه رسول الله حقاً .

ورسول تدلك صفاته على رسالته إلى أين تفارقه متبعاً أصنام الهوى وأباطيل
الهوس ومجانين الضلال ، إن هؤلاء لا يسرون بك إلا إلى الهاوية .
ولكن رسول الله لا يدلك عليه فقط صفاته بل قامت الأدلة على رسالته
حتى لم يزغ عن الرؤية إلا أعمى .

فإلى الفصل الثاني لى الدليل الكامل الآخر على أن محمداً رسول الله .

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول : الصفات	١٦
المقدمة : تكوين الرسول الجسمي	١٧
الباب الأول : الصفات الأساسية	٢٠
١ - صدقه عليه السلام	٢١
أ - شهادة الخصوم	٢٢
ب - شهادة الأتباع	٢٤
ج - شهادة الواقع	٣١
نماذج من صدقه في مزاحه ومداعباته	٣١
نماذج من صدقه في وعوده وعهوده	٣٣
نماذج من حديثه الذي صدقته علوم عصرنا من غير النبوءات	٣٦
٢ - التزامه الكامل بتطبيق ما يدعو إليه عليه السلام	٥٤
نماذج من تنفيذه للأمر الأول « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين »	٥٦

- نماذج من تنفيذه للأمر الثاني « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ٦٦
- نماذج من تنفيذه للأمر الثالث « واخفض جناحك للمؤمنين » ٧١
- نماذج من تنفيذه للأمر الرابع « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » . . ٧٧
- نماذج من تنفيذه للأمر الخامس « كونوا قوامين بالقسط » ٨١

٣ - تبليغه عليه السلام دعوة الله وقيامه بذلك كاملاً ٨٥

١ - نماذج عن مواقف الكافرين منه عليه السلام : ٨٧

- أ - ابداؤه وصبره على ذلك ٨٧
- ب - محاولة اغرائه ورفضه لذلك ٩٢
- ج - محاولتهم أن يضطخوا عليه عائلياً ٩٧
- د - سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والاعراض والانتهاكات ٩٨
- هـ - استعمالهم سلاح المقاطعة ١٠١
- و - محاولتهم قتله ١٠٣
- ز - ملاحقة خطواته ومحاولة إثباته منهم ١٠٦

٢ - نماذج عن الطرق التي سلكها عليه السلام لإيصال الدعوة إلى الناس : ١٠٧

- أ - دعوته الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم ١٠٧
- ب - ذهابه إلى أماكن تجمع الناس وتبليغهم دعوة الله ١٠٨
- ج - رحلته من أجل التبليغ ١١١
- د - تكليفه من أسلم تبليغ من لم يسلم ١١١
- هـ - تكليفه من تعلم أن يعلم من لم يعلم ١١٢
- و - ارساله الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء ١١٣

٤ - عقله العظيم وفطانيته عليه السلام ١١٦

من وصاياه ١٢٨

الباب الثاني : القدوة العليا ١٣٣

الأخلاقي الأول « وإنك لعلی خلق عظيم » ١٣٦

أولاً : نماذج من صبره	١٣٧
ثانياً : نماذج من رحمته	١٤٣
ثالثاً : نماذج من حلمه	١٤٥
رابعاً : نماذج من كرمه	١٤٨
خامساً : نماذج من تواضعه وتياسره	١٥١

رجل الأسرة الأول : أباً وزوجاً	١٥٦
التعريف بأزواجه عليه السلام	١٥٦
المعلم والمربي الأول	١٧٩
رجل الدولة الأول : سياسياً وعسكرياً	١٩٦
القسم الأول : الرسول : القيادة السياسية العليا	١٩٧

١ - استيعابه عليه السلام لدعوته نظرياً وعملياً وثقته بها وبانتصارها	١٩٨
٢ - استطاعته عليه السلام الاستمرار بدعوته تبليغاً واقناعاً	٢٠١
٣ - قدرته عليه السلام على استيعاب أتباعه تربية وتنظيماً وتسييراً ورعاية	٢٠٣
٤ - الثقة التي كان يتمتع بها عليه السلام عند أتباعه	٢٠٩
٥ - استطاعة القائد الاستفادة من كل امكانيات الأتباع العقلية والجسمية	٢١٣
أثناء الحركة ، مع المعرفة الدقيقة بامكانية كل منهم ووضعها في محله	٢١٣
٦ - قدرته الكاملة عليه السلام على حل المشاكل الطارئة :	٢١٨

١ - حله لمشكلة وضع الحجر الأسود	٢١٨
٢ - نموذج من حلوله السريعة لمشاكل المنافقين	٢١٩

- ٣ - حله لمشاكل الهجرة ٢٢٢
- ٤ - حله لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة ٢٢٦
- ٥ - حله لمشكلة هزيمة أحد ٢٢٩
- ٧ - بعد نظره عليه السلام وضرباته السياسية الموفقة ٢٣٠
- ٨ و ٩ - الوصول إلى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر ٢٤٢
- القسم الثاني : الشخصية القيادية العسكرية المثلى ٢٤٥

* * *